

شؤون عربية

178 – صيف 2019

مجلة قومية، فصلية، تُعنى بدراسة قضايا الأمة العربية، وشؤون العمل العربي المشترك ومؤسساته
وتصدرها الأمانة العامة لجامعة الدول العربية



رئيس التحرير السفير / سعيد رفعت

هيئة التحرير

السفير / سعيد عبدالرحمن أبو علي	أمين عام مساعد	المسئول الإداري والمالي
السفير / خليل إبراهيم صالح الذوايدي	أمين عام مساعد	عماد الدين حلمي عبد الفتاح
السفير / د. قيس خزعل جواد العزاوي	أمين عام مساعد	
د. ثامر محمود زيدان العاني	وزير مفوض	
سامية فتحي أحمد بيبرس	وزير مفوض	مسئول الموقع الإلكتروني
زيد محمد رفيق الصبان	وزير مفوض	محمود إبراهيم العطار
د. حيدر طارق عبد الستار	وزير مفوض	
رائد علي صالح الجبوري	وزير مفوض	
د. محمد بن صديق	مستشار	المراجعة اللغوية
جمال رشدي أبو الحسن	مستشار	طارق محمد أحمد

الآراء الواردة في المجلة لا تعبر بالضرورة عن رأي جامعة
الدول العربية، أو الجهة التي يعمل فيها الكاتب



محتويات العدد 178

- 5 ☐ محاولات التقارب الإسرائيلية مع الدول العربية **سعيد رفعت**
بمعزل عن تسوية القضية الفلسطينية

ملف سياسي عربي

- 15 ☐ الانتفاضات العربية الشعبية بين عدالة المطلب
ومتطلبات الاستقرار
- 16 ☐ المداخل الإيراني لنفاذ إسرائيل إلى العالم العربي **غازي دحمان**
- 27 ☐ التوتر الأمريكي الإيراني: ضغوط متصاعدة وحرب **ماجد كيالي**
- 37 ☐ مستبعدة **شريف شعبان مبروك**
- 51 ☐ وضع الأكراد بعد الانتصار على داعش بين **د.نادية سعد الدين**
التهميش و الإدارة الذاتية

إعتراف أمريكا بسيادة إسرائيل على الجولان

- 61 ☐ فرض السيادة على الجولان، وإعادة تشكيل **د.رضا شحاته**
المستقبل السوري والتوازن الإقليمي
- 62 ☐ اعتراف أمريكا بسيادة إسرائيل على الجولان.. **د. خالد الأزعر**
المعني والتداعيات والنتائج

تطورات الأزمة الليبية

- 87 ☐ مآلات الأزمة الليبية بين الحرب والسياسة **سامح راشد**
- 88 ☐ ليبيا ... ملف مفتوح **عصام عاشور**
- 104



115

ملف خاص

- 116 **خالد فياض** ☐ توافق ديمقراطي لا ديمقراطية توافقية
- 125 **صلاح سالم** ☐ التنوير الديني في التقليد الألماني المثالي

139

ملف ثقافي

- 140 **سليم سحاب** ☐ يوميات أم كلثوم الغنائية
- 157 **شعبان يوسف** ☐ القصة العربية العلمية

169

تقارير وعروض كتب

- 170 **منى سليمان** ☐ تقرير حول حادث نيوزيلندا وآثاره السياسية والإيديولوجية
- 178 **عماد الدين حلمي** ☐ الأمن القومي العربي - واقعة وافاقه في ظل التحولات الاقتصادية العالمية المعاصرة
- 187 **أحمد محمد سعيد** ☐ مستقبل التغيير السياسي في الشرق الأوسط الجديد

195

دراسات

- 196 **د. مصطفى عبدالعزيز** ☐ تأثير مواقف ترامب على مسار الأزمة السورية ومآلتها
- 217 **عمار على حسن** ☐ الإعلام الجديد وأثره على قيم الديمقراطية الليبرالية



مجلة التنمية والسياسات الاقتصادية

مجلة محكمة نصف سنوية
تصدر عن المعهد العربي للتخطيط بالكويت
باللغتين العربية والإنجليزية
(ISSN-1561-0411)

تعنى بنشر الأبحاث المتعلقة بقضايا التنمية والسياسات الاقتصادية في
الأقطار العربية

من أجل

- زيادة مساحة الرؤية وتوسعة دائرة المعرفة لدى صانعي القرار والباحثين في
الأقطار العربية.
- خلق حوار علمي بقاء بين الباحثين وصانعي القرار.

ندعوكم إلى

- إرسال أبحاثكم لنشرها في مجلة اقتصادية متخصصة.
- إرسال مساهماتكم من مراجعات الكتب والتقارير عن مؤتمرات تعنى بقضايا
التنمية.
- الاشتراك في المجلة لاستلامها في مواعيد منتظمة.

توجه المراسلات إلى

رئيس التحرير - مجلة التنمية والسياسات السكانية
المعهد العربي للتخطيط بالكويت
ص.ب.: 5834 - الصفاة 13059 - الكويت
تليفون: 4844161 - 4843130 (965) - فاكس 4842935 (965)
البريد الإلكتروني: jodep@api.org.kw



المحاولات الإسرائيلية للتقارب مع الدول العربية بمعزل عن تسوية القضية الفلسطينية

سعيد رفعت

رئيس التحرير

□ في الوقت الذي تركز فيه الدول العربية اهتماماتها على مخاوفها الأمنية، وعداوتها الإقليمية، وانتفاضاتها الشعبية، وأزماتها الداخلية، وانقساماتها البينية، تتحرك إسرائيل بكل نشاط وجدية تجاه تنفيذ أهدافها المخططة، بدعم كامل من الإدارة الأمريكية، استنادا إلى تشارك الطرفين في التوجهات الشعبية، وسيادة الفكر اليميني المحافظ على سياستيهما. وفي علاقة التقارب الوثيقة بين المسؤولين فيهما عن متابعة ملف النزاع العربي الإسرائيلي سياسيا وإيدلوجيا، وهو الأمر الذي ظهرت آخر تجلياته في القرارات الأمريكية بالاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل، وما تلاها من الاعتراف بالسيادة الإسرائيلية على مرتفعات الجولان السورية المحتلة. وترجع خطورة هذه القرارات ليس فقط في تعارضها مع قرارات الأمم المتحدة، ومبادئ القانون الدولي، وقواعد التعامل المتعارف عليها بين الدول، وإنما لدلالاتها السياسية على أن الطرفين لم يعد يحركهما حافز التوصل إلى حصيلة أكثر فاعلية في المفاوضات، بل يسعيان إلى المضي قدما في وضع إطار مختلف للعلاقات العربية الإسرائيلية، يعتمد على الاعتراف بالحقائق على الأرض، ووضع النزاع في خانة الصراع الديني/الإثني، والاستناد إلى المحفزات الاقتصادية -على حساب الجوانب السياسية- في التعامل مع القضية الفلسطينية. مع استخدام التفوق العسكري الإسرائيلي لفرض واقع جديد على المنطقة ودولها.





ولعل التعبير الأوضح عن هذا الواقع لا يتمثل فقط في الموقف الأمريكي الحاسم في إصراره على تقويض موقع الفلسطينيين، وتجميد الاتصالات الأمريكية بهم، وإضعاف الدعم الإنمائي الأمريكي والدولي لهم، وحث الدول العربية على الانفتاح على إسرائيل للاستدارة عليهم وتهميش دورهم. وإنما أيضا فيما تُظهره الآراء والأفكار التي تدور في الأوساط الأمريكية والإسرائيلية النافذة - تصرّحا وتلميحا - والتي تفسر المواقف وتكشف حقيقة النوايا، وطبيعة الأهداف في المنطقة والتي تتمثل في التوجهات التالية:

أولاً: الزعم بأن مخاطر إعادة الجولان إلى إسرائيل لا يتعلق فقط بتحالف نظام الأسد مع إيران، بل لأن سوريا- بطبيعتها- ليست كيانا مستقرا. ولذلك فإنه حتى إذا برز يوما في دمشق نظام موال للولايات المتحدة، ومحاذ للاستقرار الإقليمي، فلن يكون الأمريكيون قادرين على الرهان على بقائه واستمراره.

ثانياً: أن هذا المنطق ينسحب أيضا على الفلسطينيين الذين يعانون من حالة «مرضية» من فقدان الاستقرار، ومن الانقسام في الرأي، والاختلاف في الإيديولوجية السياسية بين الفصائل المختلفة. وهو انقسام يتعلق في الأساس - بالرغم من تعدد وجوهه - بمبدأ السلام مع إسرائيل. وهو ما يدفعها إلى الادعاء بأن تأكيد ضمان أمنها لن يتم إلا عبر الانخراط في عمليات «توسع دفاعي»، بما يستتبع بالضرورة اتجاهها إلى الاستيلاء على مزيد من الأراضي التي تحقق لها هذا الهدف، ويبرر - بالتالي - سعيها للحصول على اعتراف أمريكي بحقها في ضم الأراضي المقام عليها المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية.

ثالثاً: أن محصلة هذه الأفكار تتوافق إلى حد كبير مع آراء عدد مؤثر من المشرعين المؤيدين لإسرائيل في الكونجرس الأمريكي، الذين يعتبرون أنه حان الوقت للتخلي عن نوازع الانحناء للتقاليد الدبلوماسية، والاستجابة للضغوط الدولية، والعودة إلى المفاهيم المثبتة لنصر الحليف الإسرائيلي، والتي تتمثل في قيام السياسة الأمريكية بالإجراءات المؤكدة لاعتقادها بانتصار إسرائيل على الفلسطينيين، وأهمها التخلي عن مفهوم الالتزامات المتقابلة مثل الأرض مقابل السلام، وحل الدولتين، وقيام



الطرفين -الإسرائيلي والفلسطيني- بتنازلات وتضحيات «مماثلة». وهو الأمر الذي يعني في النهاية حصول إسرائيل على اعتراف أمريكي صريح بسيادتها على أراضي الضفة الغربية استنادا إلى تبريرات دينية/إثنية. هذا فضلا عن تسابق هذا اليمين لإمرار قرارات وإجراءات داخلية في إسرائيل تؤكد مبدأ «التفوق اليهودي» وحصرية التمتع بحقوق المواطنة لهم في دولة إسرائيل «اليهودية».

رابعا: أن الولايات المتحدة التي ظلت على مدار عقود تتبع أسلوب الغموض الدبلوماسي في التعامل مع مشكلة النزاع العربي الإسرائيلي باعتباره أفضل نهج لتسوية هذا النزاع أو إدارته. قد قررت إدارتها الحالية المضي قدما في اتجاه معاكس بإقدامها على تحديد المواقف، وتوضيح الأمور بشكل يصعب تأويله على نحو يغير واقع الانحياز المطلق لإسرائيل، وكان من أبرز دلالاته قيام الرئيس الأمريكي بتأييد نتتياهو في الانتخابات التشريعية الإسرائيلية الأخيرة بشكل كامل وعلمي، عبر إغراقه بعدد من «الهدايا» -وأهمها القدس والجولان- والتي وإن جاءت على حساب حقوق الفلسطينيين وبعض الدول العربية، وخصما من مكانة الولايات المتحدة وسمعتها الأخلاقية، إلا أنها فتحت الآفاق أمام فوز نتتياهو في الانتخابات ما أدى إلى مسارعة ترامب بمباركة نتائجها عبر تأكيده بأنها تعزز من فرص السلام في المنطقة.

خامسا: أن اتجاهات نتتياهو القاطعة - والتي انعكست ملامحها أثناء حملته الانتخابية الأخيرة - تبين بجلاء أبعاد خطته وأهدافها من حيث الادعاء بأن إسرائيل لا تستطيع حل الأزمة، ولكنها تستطيع الاستمرار في إدارتها. وأنها تعتمد على ثلاثة عناصر تتمثل في الجدار الحديدي، واستنفاد الوقت، واتباع طريق عدم الحل. مع تحمل ثوابع هذا الموقف أيا كانت الضغوط التي تتعرض لها عربيا وأوروبيا ودوليا. وهو الأمر الذي يفسر تحالف نتتياهو مع أشد عناصر اليمين تطرفا في إسرائيل، الذين لا يخفون اعتقادهم بضرورة ضم كافة الأراضي المحتلة لإسرائيل، وتشجيع



العرب -حتى الإسرائيليون منهم - على ترك البلاد لأنه ليس هناك -من وجهة نظرهم -سلام ممكن أو مرغوب معهم.

سادسا: ومع ذلك فإن الشاهد أن هناك شعورا عاما بالقلق لدى دوائر أمريكية وإسرائيلية تجاه توجهات نتنياهو في هذا الشأن، وما تؤدي إليه من تفاقم الانقسامات داخل إسرائيل. فضلا عن إصرار نتنياهو - ربما لصرف الأنظار عن الاتهامات الجنائية الموجهة إليه واستجداء أصوات الناخبين لإنقاذه من عواقبها - علي إظهار نفسه بمظهر الوحيد القادر على حماية إسرائيل ضد أعدائها. ومعاملة كل من له آراء مخالفة في هذا الشأن باعتباره انتهازيا أو خائنا، فضلا عن مهاجمته للصحافة الحرة، وخصومه السياسيين. إضافة إلى التأثيرات السلبية التي تشيعها الأجواء «العنصرية» لسياسته، وتثير التناقض بين فكرة يهودية الدولة وما يتبعها من تفرقة ضد العرب الإسرائيليين، وصورة إسرائيل التي تتفاخر بها باعتبارها الدولة الديمقراطية الوحيدة في المنطقة.



ومن هنا، تظهر طبيعة الدوافع التي تقف وراء محاولات نتنياهو في الانفتاح على الدول العربية، ليس فقط من حيث انعكاساتها على حملته الانتخابية، وإنما أيضا لمحاولة استثمار حالة الاضطراب والتفاعل التي تقاوم حدة التوتر في المنطقة، وخاصة تجاه إيران. وتقديره بأن مثل هذه التطورات، التي تستدعي بالضرورة مشاعر التوجس ونوازع القلق لدى الدول الخليجية، خاصة في ضوء افتقاد دول المنطقة إلى إطار عمل أمني جماعي، وتساعد إيقاع ممارسات إيران التوسعية، وزيادة حدة التوتر بينها وبين الولايات المتحدة في المنطقة. هذا فضلا عن رغبة نتنياهو في مواجهة الاتهامات التي تُحمّله مسئولية عزلة إسرائيل نتيجة سياساته تجاه الفلسطينيين. مما يدفعه إلى العمل على تقوية علاقاته مع دول غير صديقة ونجاحه في تحقيق هذا الهدف مع دول أوروبا الشرقية وبعض الدول الآسيوية والإفريقية. إلا أنه من الواضح أن الدول العربية، وخاصة



الخليجية منها، هي التي تمثل المسعى الأكبر لجهده في هذا الشأن باعتبار أن نجاحه في تحقيق هذا المسعى يمثل «اختراقاً» في جدار الرفض العربي لإسرائيل. كما يعتبر نجاحاً لسياسته في اتجاه تطبيع العلاقات الإسرائيلية العربية، والمشاركة في أية تحركات أمنية ضد إيران، دون أن يقابلها تقديم أية تنازلات من جانبه في القضية الفلسطينية. وهو الأمر الذي يؤكد مقولته بأنه يؤمن بتحقيق السلام من خلال القوة. ويرى أن تشكيل التحالفات في المنطقة يجب أن يتم عبر الاعتراف بقيمة إسرائيل كقوة تكنولوجية ودفاعية واستخباراتي. ومن هنا كان اتجاهه لتجاوز المبادرات و المعادلات السابقة والتركيز على أن يكون انفتاحه على العالم العربي مستنداً إلى ثلاثة ركائز سياسية، ليس بينها القضية الفلسطينية و تتمثل فيما يلي:

أولاً: وضع إيران في المنطقة، وما أصبحت تشكله من تهديد سياسي، وإيديولوجي، وعسكري لكل من الدول العربية وإسرائيل. وأنه في ضوء ما هو معترف به إقليمياً ودولياً من أن إسرائيل أصبحت القوة العسكرية الأضخم في المنطقة، والدولة الوحيدة التي تمتلك قدرة نووية على ساحتها. واعتماداً على رغبة إسرائيل في تجنب مواجهة الخطر الإيراني وحدها، باعتباره يشكل تهديداً إقليمياً لكافة دول المنطقة، يستوجب التعاون المشترك بينها لمواجهة بما يؤدي لطمأنة الدول العربية على أمنها من التهديد الإيراني من ناحية، ويسفر -في نفس الوقت- عن تعزيز تموقع إسرائيل في المنطقة، و يمنحها شرعية أكبر في حركتها ضد إيران.

ثانياً: تقدير إسرائيل بحاجة دول الخليج إلى منصة أمن ومراقبة متطورة يمكن أن تشكل عامل ثقة أمنية لهذه الدول من أية تفاعلات داخلية إرهابية، أو تهديدات أمنية خارجية. خاصة مع خبرة إسرائيل الواسعة، وحيازتها لأنظمة متطورة لمواجهة هذه التحديات.

ثالثاً: أن الدول العربية، والخليجية منها بصفة خاصة، رغم علاقاتها الوثيقة بالولايات المتحدة، إلا أن هذه العلاقات يحدها الاعتماد على صلات طيبة بشخصيات نافذة في واشنطن كبديل لافتقادها للدعم الواسع من الكونجرس والشعب الأمريكي.



فضلا عن المشكلات التي يمكن أن يسببها داعمو إسرائيل في واشنطن للمصالح والمطالب العربية، خاصة في ضوء تمتعهم بنفوذ سياسي قوي لدى أصحاب القرار في واشنطن. لذلك فإن الانفتاح العربي الإسرائيلي يمكن أن يساهم في التخفيف من هذه المعارضة، وقد يسفر عن إعادة تأكيد الولايات المتحدة لالتزاماتها الأمنية تجاه هذه الدول خاصة إذا تم ربط أمنها بالأمن الإسرائيلي.



وإذا كانت بعض الدول العربية - وخاصة الخليجية - قد استجابت لمحاولات الانفتاح الإسرائيلية من خلال استقبال بعض كبار المسؤولين الإسرائيليين في بلادهم، أو السماح لبعض الوفود الشعبية بزيارة إسرائيل، أو إجراء مقابلات بين شخصيات عربية وإسرائيلية على مستوى أكاديمي. إلا أن الشاهد أن هذه التحركات لم تتخط حدود جس النبض، أو استكشاف النوايا، أو إبقاء الخيارات مفتوحة أمام أية احتمالات مستقبلية. كما أنها لم تتجاوز هذا الإطار إلى طرح أفكار أو تقديم مبادرات، أو القيام بوساطات، أو اتخاذ مواقف مغايرة للموقف العربي العام من القضية الفلسطينية، وتجاه السياسات الإسرائيلية.

وبالرغم من وجود اتجاه عربي عام لا يُخفي اعتقاده بمسؤولية الفصائل الفلسطينية - عبر تعميق انقساماتها، وتوسيع خلافاتها، وتضارب حساباتها - عن تهميش قضيتهم، وإفقادها الزخم الدولي والعربي والداخلي، لاسيما في أوساط الأجيال الأصغر سنا. وذلك في نفس الوقت الذي تتغافل فيه عن حدة التطورات والتفاعلات المستجدة على الساحة العربية، والتي أصبحت تتطلب - أحيانا - تغييرا في الأولويات، وتركيزا على مصالح وطنية أكثر إلحاحا. إلا أن الواضح، مع ذلك، أن تيار الدعم العربي لحقوق الفلسطينيين لم يضعف اندفاعه، كما أن الموقف العربي من رفض أية مبادرات أو صفقات تُخرج القضية عن مسارها المتفق عليه عربيا، أو لا تتسجم شروطها مع المعايير الدولية ما زال محتفظا بمبدأيته وتماسكه.



وبذلك يمكن القول إن محاولات الانفتاح الإسرائيلية على الدول العربية - طالما أنها تتم في إطار سياساتها المتشددة والمنغلقة - ستظل تعاني من ضيق المساحة، وصعوبة التحرك، وانسداد الأفق، خاصة في ضوء التقدير العربي العام والإدراك الرسمي الكامل للاعتبارات الآتية:

أولاً: أن شعور التماهي العربي مع الفلسطينيين، ونوازع العداء لإسرائيل مازالا متجذرين بعمق في النسيج الثقافي والسياسي في المجتمع، وتتصاعد وتيرته مع تصاعد تشدد الحكومة الإسرائيلية وتبلور أهدافها التوسعية في الأراضي المحتلة. وبالتالي يصعب تخلي الدول العربية ببساطة عن مواقفها التي اتخذتها لعقود طويلة سواء في مساندة الحقوق الفلسطينية، أو إدانة الممارسات الإسرائيلية. خاصة وأن أي تغيير في موقفها قد يؤدي إلى منح الفرصة لقوى «الممانعة» لإثبات مزاعمها بأنها الداعمة الحقيقية للقضية الفلسطينية، بما قد يمكنها من استقطاب الأعداء الداخليين من معارضين أو متشددين أو إرهابيين في الدول المعنية.

ثانياً: أن اتخاذ أية مواقف متهاونة حيال القضية الفلسطينية، وإعطاء إسرائيل انطبعا زائفا بتخفيف الالتزام العربي تجاه هذه القضية، في وقت تعاني فيه المنطقة من اضطراب إقليمي متصاعد، وتشهد فيه أحوالها سيولة في الأوضاع وتقلبا في التوجهات، من شأنه تعريض الدول المعنية لمواقف محرجة إذا ما تغيرت الظروف، ووجدت نفسها عالقة في الجانب غير الصحيح من المعادلة.

ثالثاً: أن مساعدة إسرائيل على تحقيق اندماج أكبر لها في المنطقة - مع افتقاد حل دائم وعادل للقضية الفلسطينية - قد يكون له آثار جانبية معقدة، كما أنه قد يثير احتمالات يصعب توقعها. من حيث تمكين إسرائيل من تحقيق مكاسب مجانية دون مقابل، وذلك في وقت تكون قد ترسخت فيه فكرة عدم الحاجة لمعادلة حل الصراع في مقابل إقامة علاقات مع العالم العربي، وهو ما يضع الفلسطينيين في



موضع أكثر انعزالاً بعد أن يجري حرمانهم من مصدرهم الأساسي في الضغط على إسرائيل، في نفس الوقت الذي قد يجد الجانب العربي نفسه في موقف محفوف بالمخاطر دون أن يكسب به أكثر مما لديه أصلاً.

رابعاً: أن معادلة الربط بين التقارب مع إسرائيل، وتحقيق علاقات مع الولايات المتحدة قد لا تسفر بالضرورة عن النتائج المرتقبة منها عربياً. وتظهر دلالة هذا التقدير في موقف الكونجرس الأمريكي من المشاركة الأمريكية في حرب اليمن، وواقعة اغتيال الصحفي السعودي في إسطنبول، واستصدار قانون جاستا حول الإرهاب، وذلك رغم موقف تنتياهو المعلن من تأييد الجانب العربي في هذه القضايا. هذا فضلاً عن استبعاد فكرة ربط الأمن الإسرائيلي بأمن دول الخليج ثمناً لاستعادة الولايات المتحدة لالتزاماتها الأمنية تجاه هذه الدول، ليس فقط لمواقف مبدئية ومبررات سياسية وشعبية، وإنما أيضاً من واقع تقدير سياسي وأمني بأن سعي إسرائيل الدؤوب للدخول في نطاق عمل القيادة المركزية الأمريكية في الشرق الأوسط يمكن أن يضع الحاجات الأمنية العربية تحت رحمة متطلبات إسرائيل الأمنية.



ولا يبقى بعد ذلك إلا الإشارة إلى أن التقارب بين بعض الدول العربية وإسرائيل لا يمثل في حد ذاته «المشكلة»، إذ أن الجانب العربي قد تجاوز هذه المرحلة عبر ارتضائه تطبيع العلاقات مع إسرائيل في مبادرة السلام العربية، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في رفض الجانب الإسرائيلي التقيد بأية مسؤوليات بمقتضى مبدأ تقابل الالتزامات بين طرفي المعادلة، وإصرارها على التعامل مع الفلسطينيين من موقع المنتصر، وكذلك في الموقف الأمريكي الداعم لهذا الاتجاه عبر الاعتراف بالسيادة الإسرائيلية على كل من القدس والجولان، وإسقاطهما من جدول أعمال المفاوضات المفترضة، ومن خلال تجنب توصيف وضع القوات الإسرائيلية في الأراضي العربية باعتبارها قوات احتلال، بما قد يشير إليه هذا الموقف من احتمالات لاعتراض أمريكي قادم بالسيادة الإسرائيلية على



الأراضي الفلسطينية المقامة عليها المستوطنات. هذا فضلا عن التصور المعلن لنتيائهم حول السلام من خلال القوة، ورفضه الربط بين العلاقات الإسرائيلية مع الدول العربية وبين تطور عملية السلام مع الفلسطينيين. وكلها عوامل توضح بجلاء الطريق المسدود الذي تسير فيه ما يسمى «بصفقة القرن». وما تثيره من مشاعر القلق والتوجس، نتيجة ما جرى تسريبه منها، وما سبقها من قرارات أمريكية اعتبرت بمثابة تهينة المناخ السياسي لها، ووضع اللبئات الأساسية لتنفيذها. خاصة مع الاعتقاد العربي بقيام الصفقة على افتراضات هشة، وأوهام متخيلة سواء للواقع العربي أو للظروف الفلسطينية، التي تتضح دلالاتها فيما يلي:

أولاً: افتراض إمكانية تهميش دور الفلسطينيين، والاعتماد على بعض الدول العربية لإقناعهم، أو الضغط عليهم لقبول بنود الصفقة، أو على الأقل قبول التناحر حولها.

ثانياً: توهم إمكان تراجع المشاعر الوطنية الفلسطينية، وخفوت نوازع ارتباطهم بالأرض وتمسكهم بحلم الدولة. وإمكان قبولهم التعويض بحوافز اقتصادية ترفع عنهم المعاناة، ثمنا لموافقتهم على تجاوز حل الدولتين، والموافقة على منظور جديد لمباحثات السلام تسقط بمقتضاه قضايا التفاوض الخمس.

ثالثاً: افتراض إمكانية قبول الدول العربية بدعم خطة سلام أمريكية لا تتضمن مساراً واضحاً نحو إقامة دولة فلسطينية، وإساءة التقدير بالنسبة لقوة الإرادة الشعبية العربية في رفض مثل هذا المسار، وذلك تحت وهم وهن التأييد العربي الرسمي والشعبي للقضية الفلسطينية، وافتراض أن حرص الدول العربية على علاقاتها بالولايات المتحدة ستردعها عن ترف رفض الصفقة.

رابعاً: التقدير بإمكانية تسوية القضية الفلسطينية من خلال سياسة الصفقات والمقايضات، واللجوء إلى أسلوب التهديد والفرص إذا لم يتم الاستجابة للمطالب الأمريكية، والاعتماد على فريق مفاوض لا يُعرف عنه دراية خاصة بالشئون



الخارجية، أو خبرة سابقة بتعقيدات وخفايا النزاع العربي الإسرائيلي. وانحصار "كفأته" في تأييده المطلق لإسرائيل.



ومن هنا، كان التوقع العربي العام بفشل هذه الصفقة لاستنادها إلى تغير المعطيات الأساسية على ساحة المنطقة، ولتعاملها مع القضية الفلسطينية بمنطق التسوية الفوقية التي تُفرض بحكم موازين القوى الجديدة، وشروط الواقع الفلسطيني واحتياجاته المعيشية، إضافة إلى وهم اعتبار أن هذه الظروف تمثل فرصة لتطبيع العلاقات الإسرائيلية العربية، خاصة الخليجية منها. وهو الأمر الذي يفسر -في مجموعه- الموقف العربي المتحفظ على التقدير الأمريكي، والحريص على اتخاذ سياسة النأي بالنفس عن الصفقة، واعتبار أن ما صدر من مقدمات لها، وطُرح من تسريبات حولها، لا يشجع الدول العربية على دعمها، أو محاولة إقناع الفلسطينيين بها، أو تطوير العلاقات مع إسرائيل على أساسها. ومع ذلك فإن المعتقد أن خطورة هذه الصفقة تتجاوز المعطيات السابقة، وتتمثل امتداداتها وتشعباتها في الاعتبارين التاليين:

أولاً: أن ممارسة الأمريكيين أقصى الضغوط على الفلسطينيين قد تضع السلطة في موقف مالي بالغ الحرج، وقد تهدد استقرار وضعها السياسي، وإنما لن تجبرها على قبول الصفقة، ولن تردع الدول العربية والإسلامية عن الاستمرار في تأييد الفلسطينيين ورفض الصفقة، خاصة وأن إسرائيل نفسها توافق عليها بتحفظ ليس بهدف تحقيق السلام مع الفلسطينيين وإنما بأمل الانفتاح على دول الخليج.

ثانياً: أن صفقة القرن الأمريكية -رغم توقع فشلها - ستظل تطرح نفسها مستقبلاً على الإدارات الأمريكية القادمة، نتيجة صعوبة التراجع عن الأسس التي وضعتها للمقاربة الأمريكية من النزاع العربي الإسرائيلي، خشية من ردود الأفعال الساخطة والضاغطة من حلفاء إسرائيل في الداخل الأمريكي.

ملف سياسي عربي



- الانتفاضات العربية الشعبية بين عدالة المطلب ومتطلبات
الاستقرار
- المداخل الإيراني لنفاذ إسرائيل إلى العالم العربي
- التوتر الأمريكي الإيراني: ضغوط متصاعدة وحرب مستبعدة
- وضع الأكراد بعد الانتصار على داعش بين التهميش والإدارة
الذاتية
- غازي دحمان
- ماجد كيالي
- شريف شعبان مبروك
- د.نادية سعد الدين



الانتفاضات السلمية العربية بين عدالة المطلب ومتطلبات الاستقرار

غازي دحمان

باحث سوري- سوريا

بعد تسع سنوات على انطلاق الانتفاضات السلمية العربية، ما زال الخلاف قائماً حول أولوية الثورة على الاستقرار، أم أولوية الاستقرار على المطالب الاجتماعية حتى لو كانت محقة وعادلة، وعلى مدار تلك السنوات تداول أنصار هذين الرأيين الغلبة وأرجحية الرأي تبعاً لتطورات الأحداث والسياقات التي احتضنتها، في البداية سيطرت الثورة على الوجدان والعقل العربيين حتى بدا أن كل العالم العربي، باستثناءات قليلة، ذاهب للثورة، وكانت الحجة أن الثورة هي المخرج الوحيد من حال الاستعصاء الذي علق به العالم العربي عقوداً طويلة، وأن الأثمان التي ستدفعها الشعوب العربية، مهما كانت كبيرة تبقى أقل من الخسائر التي تدفعها ثمناً للفساد والعطالة، ثم إن للثورة فرصاً معتبرة للنجاح في ظل مناخ ثوري عربي شامل وتفهم دولي عبرت عنه غالبية القوى الفاعلة في العالم.

لكن ما أن بدأت الأحداث تتطور باتجاه العنف، وضرب الانقسام بعض المجتمعات العربية بعنف، حتى برزت بقوة تيارات متعدّدة تتهم الثورة بأخذ البلاد العربية صوب المجهول، وأن مطالب الثورات من الحرية والكرامة تبقى أقل قيمة من تهديد مصائر البلدان، وأن هذه المطالب يمكن تحقيقها بالتدريج وعبر أدوات غير الثورة العنيفة.

وفي السنوات الأخيرة؛ برزت غلبة هذا المنطق وأرجحيته، مع ارتفاع منسوب الحرب ومناظر الدمار الهائلة، وما رافقها من عمليات لجوء وتشريد، واعتقد الكثير من



مراقبي التحولات في العالم العربي أن الشعوب العربية أجلت طموحاتها في التغيير، إن لم تكن قد ألغتها نهائياً؛ بعد أن جريت حظوظها مع الثورة والنتائج الصادمة التي وصلت لها.

لكن عودة الثورة إلى الجزائر والسودان أعادت من جديد الغلبة لأصحاب الرأي القائل أن الثورة هي الحل، شرط أن تكون الانتفاضات الجديدة قد استوعبت الدرس جيداً وامتلكت القدرة على التفاوض مع الأنظمة الحاكمة والنجاة من تكتيكاتها في حرف الثورات عن سياقاتها المطلوبة.

الانتفاضات والسياق العربي

عشية اندلاع الانتفاضات العربية كانت قوائم المؤشرات المختلفة ترزح تحت عبء ثقيل من الأرقام السالبة على مختلف الصعد والمستويات، وبدأ أن العالم العربي يدخل إلى زمن الألفية الثالثة وهو مجرد من أدوات القوة ومن أي رصيد يستطيع من خلاله الإعلان أنه موجود وحاضر على قوائم المنافسة للولوج إلى العصر الحديث، حيث أجرت شعوب الأرض تحديثات هائلة على بطاقتها التعريفية؛ تضمنت في الغالب قيماً جديدة وأنماطاً معرفية تتناسب مع التحولات الهائلة والتغيرات المتسارعة في السياق العالمي.

البارز في ذلك؛ أن عناصر القوة السابقة، من نفط وجغرافية وسوق استهلاكية واسعة، تراجعت بشكل كبير في حسابات قوة الأمم وضعفها، بل إنها أصبحت أرجح للحساب ضمن خانة الضعف ما لم يتم تدعيمها بالقيم الجديدة لقوة الأمم، المرتكزة بالأساس على التطور المعرفي والتقني، والأرجح أن هذا السبب هو الذي أسهم بدرجة بارزة في إضعاف القيمة الاستراتيجية، ليس للعالم العربي، ولكن لأنظمة الحكم العربية التي طالما تترسست خلف عناصر قوتها السابقة وفاوضت القوى الفاعلة على مسرح السياسة الدولية بهذه الأوراق.



مقابل ذلك، ظهر العالم العربي، بموقف ضعف هزيل، بسبب قوّته البشرية التي يشكّل الشباب النسب الأكبر من تركيبته السكانية، 65-70 بالمئة، وللمفارقة فإن فقدان هذه القوّة شكّل أحد أسباب تراجع أوروبا على مسرح التأثير الدولي مقابل صعود الصين والهند والبرازيل، في حين أنه في العالم العربي بدت هذه القوّة أحد المخاطر التي يتعين التعامل معها بسياسات جديدة، وقد عبر الرئيس الأميركي باراك أوباما عن هذا الأمر أثناء اللقاء الذي جمعه بزعماء دول الخليج، حين أكد لهم أن الخطر الحقيقي على أمن دولهم ونظمهم يكمن في الداخل، وأشار إلى فئة الشباب بالتحديد.

وهكذا، دخل العالم العربي الألفية الثالثة وهو يحمل صواعق تفجير أوضاعه الهشة داخل أحشائه، تمثلت بكتلة شبابية ضخمة ليس لديها فقط طاقات وأحلام وطموحات كبيرة، بل أيضاً اطلاع واسع على أنماط الحياة وطرق ممارسة السياسة في الطرف الآخر من العالم، تأتيه بشكل يومي عبر قنوات البث الفضائي ووسائل التواصل الاجتماعي، ولدى مقارنة هذه المحتويات الوافدة بما هو عليه الواقع العربي، فإن النتيجة ستكون مزيداً من الاحتقان والغضب على الأوضاع السائدة، والبحث عن السبل الكفيلة بكسر هذه المعادلة الجهنمية التي تحكم على العالم العربي بالتخلف الأزلي، والتي تشكل سياسات الأنظمة السياسية العربية أحد أضلاعها.

وما زاد من بؤس هذه الأوضاع، أن النخب العربية بدلاً من أن تبدأ رحلة البحث عن مخارج وحلول للتردي العربي على مختلف المستويات، ذهبت باتجاه تعزيز الأوضاع السائدة وتكريسها، عبر ميل هذه الأنظمة إلى توريث السلطات ومحابة الطبقات الغنية ومنحها المزيد من الامتيازات؛ فضلاً عن النهب العلني لموارد الدولة، والاستهتار بمشاعر الشعب من خلال استعراض البذخ " الفاجر " كما سماه المفكر العربي غسان سلامة.

في ظل هذا التردي كان لا بد من التساؤل عما إذا كانت الأنظمة العربية، بنسختها الأخيرة، تهتم باستقرار وأمن المجتمعات والبلدان العربية، وتخطط فعلاً لتحقيق



هذا الاستقرار، أم أنها تمارس اللعبة السياسية وكأن ليس في الساحة سواها من لاعبين آخرين، كالشعوب والاستخبارات الإقليمية والدولية؟، وهل لدى نظم الحكم هذه جهات تقدير تبصرها بالمخاطر وبتجاهات الرأي ومعطيات الواقع؟، أم أنهم يكتفون بتقديراتهم وفق رغبات أصحاب المصالح وأهوائهم؟، وهل كانت ثمة خيارات أخرى لتجنب الهزات التي واجهتها البيئة العربية؟.

هل كانت الانتفاضات حاجة زائدة؟

الثورات عمل حتمي تُدفع لها الشعوب دفعا ولا تختارها. وخاصة إذا أغلقت أمامها كل طرق التعبير السلمي والتدريجي، وفي ظل فشل أنظمة ما بعد الاستقلال العربي في تحقيق أي من مطالب هذه الشعوب وطموحاتها، سواء ما تعلق منها بتحرير الأرض المحتلة، أو بتحقيق التنمية والعدالة.

جاءت الانتفاضات العربية ضمن تطورات سياسية واجتماعية واقتصادية ارتبطت بسعي شعوب العالم العربي لعلاقة مختلفة مع أنظمتها السياسية. فعوضا عن شعور التبعية والتهميش أرادت الشعوب أن تكون العنصر الأساسي في المعادلة وذلك عبر انتخابات شفافة تؤدي لمساءلة حقة وحقوق واضحة.

انتظمت مطالب الانتفاضات العربية ضمن منظومة الحرية والكرامة، وإذا كانت الحرية تعني الحق في المشاركة السياسية والانتخابات النزيهة، وما يلي ذلك من حرية تأسيس أحزاب سياسية وإعلام حر، فإن مطلب الكرامة، يدرج في مضامينه التوزيع العادل للثروة ومحاربة الهدر والفساد والحق في العمل.

وليست هذه المطالب في نظر الشعوب المنتفضة شيئا زائدا عن الحاجة، بقدر ما تقع في صلب أساسيات الحياة الاجتماعية والسياسية الحديثة، وعدم تحققها يعني وضع العوائق أمام المجتمعات العربية للوصول إلى الحداثة والعصرية، واتساع الفجوة التي تفصل الشعوب العربية عن بقية شعوب العالم، وليست مشكلة العالم العربي في



الأشخاص أنفسهم الذين جرت الانتفاضات ضدهم، بقدر ما أن القضية قضية استحقاقات داهمة لم يعد ممكناً تأجيلها في ظل التطورات المتسارعة التي يعيشها العالم فيما لا تزال البلدان العربية تترجح تحت أعباء أنماط من الأزمات والمشاكل تخططها البشرية من عقود، بما فيها ما كان يسمى بدول العالم الثالث، وبقيت الشعوب العربية، مع بعض الشعوب في قارة أفريقيا، هي الاستثناء في هذا الواقع المتخلف.

مخاطر عدم الاستقرار

شكل عامل الاستقرار الهاجس الأساس لدى الكثير من الشرائح والفئات العربية وهي تراقب التطورات الساخنة في العالم العربي، وكانت هذه الشرائح تفضل الاستقرار على مطالب الشعوب، حتى لو كانت تراها محقة، وقد استثمرت النخب الحاكمة في مخاوف هؤلاء وسعت إلى تعميم هذا المنطق، حتى أنه كان شعار ما سمي الثورات المضادة، وخاصة في الدول التي انزلت فيها الأحداث إلى صراعات حربية "سورية وليبيا واليمن".

وبنفس المقدار، استثمرت الأنظمة العربية، في الدول التي كانت تتوجس من وصول الانتفاضات لها، أو تلك التي حصلت فيها حراكات مطلبية، استثمرت في هذا الهاجس، وكان منظر الدمار في سورية وقوافل اللاجئين والمشردين يعزز من موقف أصحاب نظرية أولوية الاستقرار والأمن على المطالب الاجتماعية، على اعتبار أن المطالب يمكن تأجيلها إلى وقت آخر ويمكن تحصيلها بطرائق كثيرة، أما الأوطان إذا ضاعت وذهبت للتقسيم فسيصبح من الصعب إعادتها، كما يغدو الحصول على المطالب أمراً شبه مستحيل، فضلاً عن الفوضى ستأتي ببدايل سلطوية أسوأ بكثير من الأنظمة الحاكمة، وخاصة في ظل انتشار تنظيمات مثل داعش والنصرة والمليشيات الإيرانية.



المنطق في هذه المعادلة يميل لصالح نظرية الاستقرار تحت أي ظرف وتفضيلها على ما عداها من فوضى وخراب، لكن هذا الوضع دفع الكثير من النخب العربية إلى التساؤل عن أسباب اختزال المعادلة العربية السياسية في العالم العربي بين الفوضى المنفلتة والخضوع للسياسات الجائرة لأنظمة الحكم، ولماذا لا يوجد خيار ثالث يتمثل بتحقيق مطالب الشعوب العربية في ظل بيئة آمنة ومستقرة؟. ثم ما هي أسباب الفوضى ومحركاتها ولماذا ابتليت انتفاضات الشعوب العربية بهذه المشكلة؟.

محركات عدم الاستقرار

دخل عامل الاستقرار ضمن لعبة الصراع بين السلطات والمعارضات، وذلك لإدراك الطرفين مدى حساسية هذا العامل بالنسبة لجميع البيئات، التي تؤيد الانتفاضات أو تلك المؤيدة للسلطة.

لقد وفرت جهات سلطوية عديدة في دول الانتفاضات المناخ المناسب للعبث بالاستقرار العام، واستخدمت هذا الوضع لقمع الانتفاضات ودحرها وتجريدها من التعاطف الشعبي معها، كما أنها شرعنت للسلطات استخدام العنف إلى أقصى درجة بذريعة الحفاظ على الأمن والاستقرار.

بالإضافة لذلك، عملت الأجهزة الاستخباراتية، التي ثبت أنها صمّمت هذه الأحداث، أسلوب العبث بالاستقرار، لدفع الجيوش لمواجهة الانتفاضات؛ وضمان عدم توحيد الجيش مع الشعب في مواجهة الدوائر التي ترفض التعامل بجدية مع مطالب الشعوب، وكان أفضل طريق للالتفاف على هذه المطالب هو خلق مناخ من الفوضى يثبت أن الانتفاضات ليست على حق، أو حتى إذا كانت كذلك، فإن هناك جهات خارجية عن القوانين استغللتها لتقوم بأعمال منافية للقانون وتهدد أمن واستقرار الدول.

وكان في تقدير أجهزة المخابرات أن حالة عدم الاستقرار ستكون مضبوطة وتحت سقف معينة، الهدف منها فقط دعائي، ويمكن تحمل الخسائر التي ستنتجها مرحلة



الفوضى هذه، وقد استخدمت هذه الاستراتيجية بوضوح في كل من العراق وسورية، حيث عمدت حكومات البلدين إلى إخراج مئات المساجين الخطرين ليجري لاحقا حقنهم في الحراك وتشويبه، وفي مصر جرت مهاجمة السجون في محاولة لدفع البلاد إلى فوضى عارمة، ضمن لعبة العبث بالاستقرار.

في تجارب الحركات الجديدة" الجزائر والسودان"، يبدو أن الطرفين أدركا خطورة هذه اللعبة، والمآلات التي وصلت لها في بعض الدول العربية، لذا كان الحراك أكثر حذرا من السماح لأصحاب الرؤوس الحامية في قيادة الحراك وتحويل أهدافه ومسارته، كما أن سلطات المرحلة الانتقالية تجنبت تجريب هذه الأساليب خوفا من خروج الأوضاع من تحت سيطرتها، وربما أيضا لإدراكها خطورة هذا النهج على أمن واستقرار الدول.

الثورات المضادة

تلعب الثورات المضادة، دورا خطيرا في صناعة حالة عدم الاستقرار، وهي في بلاد الانتفاضات العربية شكّلت الرافد الأساسي في مواجهات السلطات مع الانتفاضات. وتكونت الثورات المضادة من خليط من الدولة العميقة وأصحاب الامتيازات والمصالح والفئات المتوجسة من الانتفاضات، والذين يعتقدون أن فرصهم في الإثراء ستكون منخفضة إذا تغير النظام السياسي الحالي.

ولعلّ من أخطاء الانتفاضات سوء تقدير قوّة الفئات المنضوية تحت لواء الثورات المضادة وحجمهم، ذلك أن الأنظمة التي استقرت في الحكم على مدار عقود طويلة أوجدت فئات وبيئات مرتبطة بها مصالحا وأيديولوجيا، وقد أبدت هذه الفئات الاستعداد للقتال إلى جانب الأنظمة للدفاع عن مصالحها وامتيازاتها.

كما أنه في البلاد التي تعاني من انقسامات طائفية وإثنية، تميل كفة الأقليات باتجاه أنظمة الحكم للحفاظ على مكتسباتها، ولخوفها من الفئات الصاعدة، أو البدائل



الأخرى، وخاصة إذا استطاعت مكائن الأنظمة الإعلامية التأشير إلى وجود بعد طائفي في الحراك ودفع الأقليات إلى الالتصاق بالنظام الحاكم، كما حصل في سورية.

مشكلة الثورات المضادة أنها تضع الجميع في مأزق سياسي خطير، صحيح أنها في البداية تكون نتيجة دفع الأنظمة وتحريكها، لكنها لا تلبث أن تشكّل عائقاً أمام أي تفاوض محتمل بين السلطات والانتفاضات؛ ما يضعف التيارات السلطوية التي لها تقديرات مختلفة، ويجعل الكلمة الفصل لاتخاذ سياسات متشدّدة كنوع من مكافأة الثورة المضادة على إنقاذها للنظام وسحق الانتفاضة.

التخلف الاجتماعي

شكّل عامل التخلف الاجتماعي أحد مصادر تهديد الاستقرار في الدول العربية بعد قيام الانتفاضات، وهذه حقيقة حاولت أدبيات الانتفاضات عدم الإشارة أو التطرق لها باعتبارها أحد المعوقات للعمل الجماعي الثوري لتحقيق المطالب الاجتماعية وانتزاع الحقوق من السلطات التي ترفض الاعتراف بالثورات وتعتبرها أعمال شغب وتخريب.

يتمثّل الخطر الكامن في التخلف الاجتماعي من سهولة تحريف الحراك ودفعه للفوضى، نتيجة عدم خبرة المجتمعات المحلية بإدارة الصراعات السياسية مع السلطات المدبّرة والخبيرة في هذا النمط من الصراعات، حيث يصبح اللجوء للتطرف الوسيلة الأكثر إمكانية في ظل عدم الخبرة في أنماط الاحتجاج الأخرى.

ولعل ما هو أخطر في مسألة التخلف الاجتماعي، الانكفاء إلى المرجعيات الضيقة، القبلية والطائفية، وعدم الالتزام بمرجعية عامة بذريعة أنها لا تعبر عن قيم ومعتقدات الجميع، وأن الاحتماء بالانتماءات القبلية والعائلية والطائفية تقوّي هذه الجهات في مطالبتها من السلطات السياسية القادمة، على اعتبار أن الثقة معدومة بأي تيار سياسي مهما رفع من شعارات وتبنى من مطالب.



يضعف التخلف الاجتماعي من قدرات الثورات التساومية في مواجهة السلطات، ذلك أنه يحول الحراك إلى حركات منفصلة وبمطالب مختلفة، وينزع عنها الصفة الوطنية والسياسية، كما أنه يضع الانتفاضة بمجملها في خانة التمردات المحلية أكثر من كونها ثورة وطنية عامة.

ولا يفيد هنا القول أن التخلف الاجتماعي هو استثمار الأنظمة السياسية في المجتمعات العربية، نتيجة سلوكيات مقصودة رسخت من خلالها حالة التخلف الاجتماعي ودعمت هياكله، فيمقدار صدق هذه الحقيقة، إلا أنها يجب أن تكون في صلب تفكير قيادات الحراك كمعطى يتوجب التعامل معه بخصوصية، سواء لجهة عدم تحميل البيئات الاجتماعية ما يفوق قدراتها وطاقاتها، أو لجهة تكيف الشعارات والمطالب بما يتناسب وهذا المعطى الاجتماعي.

عدم بلورة أهداف الثورات

من سمات الانتفاضات العربية، عدم تبلور أشكال نهائية لبنى سياسية أو حزبية تؤطر حراك شباب الثورات، بمعنى عدم وضوح توجهات هذه الثورات في بداية انطلاقها، وتخطيها بحثاً عن طريق سياسي تسلكه، ما يفتح الطريق معبداً أمام سطوة الأحزاب الإسلامية التي عملت تحت الأرض، ونظمت نفسها طوال عقود من مواجهتها قمع الأنظمة الشمولية في المنطقة.

إن الطبيعة الشبابية الغالبة على الحراك السياسي العربي، سواء في الانتفاضات الأولى أم الثانية، والاعتماد بشكل رئيس على تكنولوجيا الاتصال ووسائل التواصل الاجتماعي في الحشد والتعبئة خلف شعارات عامة فضفاضة مثل الحرية والعدالة الاجتماعية والمساواة ومحاربة الفساد، من دون وجود برامج سياسية واضحة ومتفق عليها، تتعلق بشكل ومضمون التغيير المطلوب وطبيعته الأيديولوجية، أدى إلى ارتكاب شباب الثورة في الربيع الأول أخطاء كثيرة في التعامل مع قوى الثورة المضادة، ثم مع



الجيش ومؤسسات الدولة، إذ تصورت قوى الثورة أنه يمكن تحقيق التغيير والديموقراطية في ضربة واحدة وفي أشهر عدة، وهو الأمر المستحيل نظريا وعمليا، وأقحمهم في صراعات سياسية وأيديولوجية لا طائل منها.

ورغم الشكل الليبرالي لهذه الثورات، إلا أن هذا الشكل لم يتبلور بشكل واضح بعد، إذ أن كل الاحتجاجات حصلت على التفاف جماهيري حولها من كل أطراف المجتمع، ورغم أن مطالب الثوار انصببت على إصلاح النظم السياسية، من خلال تبني منظومات المفاهيم الديمقراطية بشكلها الغربي، من حيث المطالبة بانتخابات تمتاز بالشفافية ومراقبة القضاء لها، وأن الوصول للحكم لن يكون إلا عبر صناديق الاقتراع، إلا أن ذلك لم يبعد التيارات الإسلامية عنها، وكانت خطوة تكتيكية لاستثمار فورة الثورة من قبل هذه الأحزاب في مجتمعاتها المتزلزلة.

التحديات الواقعة

لا شك أن التغيير الثوري بعد عقود من الاستبداد عملية صعبة ومعقدة، ذلك أن الانتقال لحالة جديدة يحتاج إلى تطوير في أدوات التفكير والحكم ويحتاج إلى بناء مؤسسات كما أنه يحتاج لتضحيات وخسائر أيضا، ويكمن التحدي الأكبر في معضلة بناء المؤسسات، وترسيخ التقاليد الديمقراطية، وتطوير المجتمع نحو المسار الديمقراطي دون خسائر كبيرة أو دون الدخول في صراعات جديدة.

و بنفس الوقت أرادت الشعوب أن تخوض تجربة واضحة مع الإصلاح السياسي في جميع الأنظمة العربية بما يأخذها نحو ضمانات حقوقية وحرية وعدالة اجتماعية، لكن الظروف الموضوعية والتجربة المكتتزة في صفوف قوى الإصلاح لم تكن مهيأة لهذا التحول مما أدى بالحالة العربية نحو المراوحة والتراجع.

ما الحل؟.



تعزيز اهتمام الحكومات والأحزاب والمجتمع المدني بالعدالة الاجتماعية بحيث يجب أن يكون اهتمامها جميعا انطلاقا من نظرتها إلى العدالة الاجتماعية باعتبارها الغاية القصوى من الثورة لأنها تعني التغيير الأساسي في أنماط حياة الشعب ومستوى معيشته. وهي هدف الثورات الأهم والأعظم الذي يضمن إزالة الأسباب المولدة للاحتجاجات والانتفاضات المستمرة وإقامة واقع ثوري تستند إليه جماهير الشعب في أدائها لأعمالها على النحو الذي يضمن الاستقرار. ومن بين شروط الاستقرار تحقق المساواة في أكثر أشكالها عدالة. وبدون هذا الاستقرار الذي تكفله عدالة اجتماعية يبقى الوطن في حالة الغليان التي تسبق الثورة وتجعلها حتمية مع مرور الوقت .

ومن مصلحة النخب السياسية في العالم العربي أن تعي المعادلة التالية، فرض الخضوع ليس حلا ولا يعني زوال الخطر، الاستقرار على هذه الشاكلة هو نوع من تمرير الوقت وإطالة الأزمة وتضخيم الأثمان.



المدخل الإيراني لنفاذ إسرائيل إلى العالم العربي

ماجد كيالي

باحث وكاتب فلسطيني - سوريا

ظلت إسرائيل، منذ إقامتها (1948)، تحاول تطبيع علاقاتها مع العالم العربي، بيد أن استخدام مصطلح "التطبيع" بحاجة إلى توضيحين، الأول، أن إسرائيل لا ترغب، أو لا ترى مصلحتها، في أن تتحوّل إلى دولة عادية، بحدود واضحة، جغرافية، أو ديمغرافية، فهي دولة بلا حدود، ثم هي تعتبر نفسها دولة ليهود العالم، وليس لمواطنيها، أو لليهود فيها، وهو ما جدّدت التأكيد عليه في تشريعها قانون أساس يعتبر أن "إسرائيل دولة قومية لليهود" (يوليو 2018)، بمعنى أنها بمثابة حالة فريدة من نوعها بين الدول، إذ لا يوجد دولة بدون حدود معترف بها، ولا يوجد دولة تعتبر أن مواطنين دول أخرى هم بمثابة مواطنين محتملين فيها فقط بسبب انتمائهم الديني. والثاني، أن إسرائيل تركّز على التطبيع المتعلق، بشكل خاص، باعتراف الدول العربية بها، وإقامتهم علاقات دبلوماسية واقتصادية وأمنية معها، والمتضمن خلق فرص تعاون مشتركة على صعيد البنى التحتية والتجارة وقطاعات الاقتصاد، بينها وبين تلك الدول، وفقاً لتبادلية تتأسّس عندها على ما تتمتع به من تفوق علمي وتكنولوجي، مقابل اليد العاملة العربية الرخيصة والثروة المالية العربية المتأتية من النفط (وهو ما عبر عنه شمعون بيريز صراحة في كتابه المشهور: "مشروع الشرق الأوسط الجديد"، الصادر في أواسط تسعينيات القرن الماضي).

معلوم أن تداعيات الصراع العربي . الإسرائيلي، وضمّنه سلب الشعب الفلسطيني أرضه وحقوقه (1948)، ثم احتلال إسرائيل أراض عربية في حرب يونيو (1967)، هي التي ظلت تفاقم من مشاعر العداء العربي لإسرائيل، وظلت بمثابة عقبة صلبة أمام أي



محاولة من قبل إسرائيل لفك طوق المقاطعة العربية لها، إلى درجة أن قيام علاقات عادية بين مصر وإسرائيل، بعد اتفاق كامب ديفيد (1978)، واستعادة شبه جزيرة سيناء، لم يخفف من آثار تلك المقاطعة.

من الشرق الأوسط الجديد إلى صفقة القرن

وفي مراجعة لمحاولات إسرائيل لاقتناص الفرص السانحة لتعزيز جهودها للنفاذ إلى العالم العربي، يمكن رصد حقيقتين، الأولى، وهي تشكلت، في مطلع التسعينيات من القرن الماضي، بناء على المعطيات أو التداعيات الناجمة عن انهيار الاتحاد السوفيتي السابق، واختفاء عالم القطبين، وهيمنة الولايات المتحدة على النظام الدولي، وحرب الخليج الثانية، وتاليا لذلك عقد مؤتمر مدريد للسلام (أواخر 1991). ففي حينه نجم عن المؤتمر المذكور جلوس إسرائيل على طاولة واحدة مع عديد من قادة الدول العربية، مع الرعاية الدوليين (سيما الولايات المتحدة وروسيا)، كما نجم عنه فتح قناة لمفاوضات "متعددة الأطراف"، تم تخصيصها لمناقشة قضايا التعاون الإقليمي بين بلدان الشرق الأوسط، في مجالات المياه والبنى التحتية والمواصلات والتجارة والتعاون الاقتصادي والبيئي، كما التعاون في مجالات الأمن، واللاجئين والقدس. بعد كل ذلك فإن توصل الفلسطينيين والإسرائيليين إلى عقد اتفاق أوسلو (1993)، قام بموجبها نوع من كيان للفلسطينيين في الأراضي المحتلة (1967)، بدا وكأنه أعطى دفعة لتشريع العلاقات العربية . الإسرائيلية، وهو ما نجم عنه، تطوير فكرة المفاوضات متعددة الأطراف، بحيث باتت على مؤتمرات "القمة الاقتصادية للتنمية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا"، التي أضحيت تعقد سنويا، بغرض تطبيع وتعزيز علاقات إسرائيل مع الدول العربية، وإقامة منظومة علاقات اقتصادية إقليمية، بحيث تم عقد أربعة مؤتمرات من نوعها، في كل من الدار البيضاء (1994) وعمان (1995) والقاهرة (1996) والدوحة (1997). بيد أن هذه المؤتمرات، التي ظن منظموها والمشاركون بها بأنها تعد بقيام "شرق أوسط جديد"، خال من الحروب والعداوات والاحتلالات ومحمل بالآمال الاقتصادية، باءت بالفشل،



مثلها كالمفاوضات "متعددة الأطراف" (ومثل المفاوضات الثنائية مع الفلسطينيين والسوريين)، وذلك لأسباب متعددة، أولها، رفض إسرائيل الالتزام بالاستحقاقات المطلوبة منها في عملية التسوية مع الفلسطينيين. وثانياً، ممانعة إسرائيل لأية مقارنة تتأسس على ربط عملية السلام بعلاقات التعاون في المجال الاقتصادي. وثالثاً، إصرار إسرائيل على رفض أي ربط بين قضية الفلسطينيين وقضية إقامة علاقات بينها وبين الدول العربية. وربما يجدر التذكير هنا أن تلك الحقبة، وانهيار الآمال التي وضعت عليها، تزامنت مع صعود بنيامين نتنياهو، كزعيم لحزب الليكود، للمرة الأولى إلى سدة السلطة في إسرائيل (1996.1999).

على ذلك ليس بمستغرب أن بنيامين نتنياهو (رئيس الحكومة الإسرائيلية) صاحب فكرة "السلام الاقتصادي"، وفك الارتباط بين موضوعي الفلسطينيين والعلاقات العربية، والذي يركز على "أمن إسرائيل أولاً"، هو ذاته الذي يدير دفة السياسة الإسرائيلية في هذه الحقبة، التي تطرح فيها خطة تسمى "صفقة القرن".

هكذا، نحن الآن إزاء حقبة ثانية جديدة، في محاولات إسرائيل النفاذ إلى العالم العربي، على النحو الذي تحدثنا عنه، وهي حقبة تجري برعاية أمريكية، ووفقاً لرؤى ومصالح إسرائيل، ويتجاوز لحقوق الفلسطينيين، وعلى أساس تمكين إسرائيل من التحول إلى فاعل رئيس بل وكشريك طبيعي في المنطقة، من مداخل عديدة سياسية وأمنية واقتصادية، ولاسيما من مدخل ما يسمى "صفقة القرن"، وتحجيم النفوذ الإيراني في المشرق العربي، مع كل ما في ذلك من شبهة مقايضة، بين تطبيع العلاقات العربية مع إسرائيل، وتغيير مضامين القضية الفلسطينية وفك الارتباط بها، من جهة، ووعود التنمية الاقتصادية وتحقيق الاستقرار والأمن السياسيين، وتحجيم نفوذ إيران من العراق إلى لبنان مروراً بسوريا، من الجهة المقابلة.



العوامل الدافعة للصفقة

الفكرة أن هذه الحقبة من المحاولات الإسرائيلية، المدعومة من الولايات المتحدة الأمريكية، للنفاذ إلى العالم العربي، أو لتطبيع إسرائيل علاقاتها معه، تحاول اقتناص مجموعة "الفرص السانحة"، المتمثلة بقوة الدفع الناجمة عن العوامل الأساسية الآتية:

أولاً: وجود رئيس للولايات المتحدة الأمريكية من نموذج دونالد ترامب مستعد لفعل أي شيء يخدم مصلحة إسرائيل، ويقويها، من دون حساب لأية معايير أو اعتبارات سياسية أو قانونية أو تاريخية. وكما شهدنا، فمذ مجيء ترامب إلى البيت الأبيض، قام بخطوات دراماتيكية خطيرة، ووجه ضربات موجعة لقضية الفلسطينيين، باعترافه بالقدس عاصمة موحدة لإسرائيل (أواخر 2017)، وبمحاولاته تصفية قضية اللاجئين، بإعادة تعريف اللاجئ، ووقف تمويل منظمة غوث وتشغيل اللاجئين (أونروا)، في أغسطس من العام الماضي (365 مليون دولار وهو ثلث ميزانية أونروا)، بعيد قراره بوقف تمويل مشاريع اقتصادية للسلطة (200 مليون دولار)، ناهيك عن إطاحته بفكرة الدولة الفلسطينية المستقلة، وسكوته عن الأنشطة الاستيطانية في الضفة الغربية، وأخيراً قراره بإغلاقه مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في واشنطن (سبتمبر 2018)، التي كانت وقعت اتفاق أوسلو برعاية الرئيس الأمريكي الأسبق بل كلينتون في البيت الأبيض (1993)؛ إضافة إلى اعترافه بسيادة إسرائيل على الجولان السورية (مارس 2019). وتوضّح كل تلك الخطوات أن الولايات المتحدة الأمريكية، في عهد رئيسها دونالد ترامب، تتوخى تغيير معالم قضية فلسطين، معنى ومبنى، وتهميش البعد الفلسطيني في أية ترتيبات مستقبلية في المنطقة، وأن ترامب يتصرف وفقاً للمبادئ التي يعتنقها نتيها هو منذ زمن، والتي تتعلق بالتركيز على أولوية أمن إسرائيل، وإقامة سلام أو علاقات تعاون اقتصادي بينها وبين الدول العربية، وفك الارتباط بين قضية فلسطين والعلاقات الإسرائيلية العربية، وتحجيم نفوذ إيران في المشرق العربي.



ثانياً: انفرط عقد "النظام الرسمي العربي"، شكلياً وعملياً، بوجود محاور وأجندات ومصالح عربية متضاربة، ومع غلبة مخاطر أخرى، يتمثل أهمها في انشغال أغلبية الأنظمة العربية بمواجهة التحدي الناجم عن تغول النفوذ الإيراني في المشرق العربي، لا سيما في العراق وسوريا ولبنان واليمن، ومواجهة التهديد الذي تمثله إيران لدول مجلس التعاون الخليجي،

ثالثاً: التطور الكبير الحاصل في علاقات إسرائيل مع القطب الدولي الآخر، المتمثل بروسيا الاتحادية، سيما في السنوات القليلة الماضية، ووجود نوع من شبكة مصالح واسعة، سياسية وأمنية واقتصادية تربط الطرفين، ويأتي في مقدمة ذلك التنسيق بشأن الترتيبات المستقبلية المتعلقة بسوريا، والتي تأخذ في الحسبان أمن إسرائيل، ما يفسر قيامها بشن غارات وتوجيه ضربات متعددة للمواقع العسكرية التابعة للحرس الثوري الإيراني، أو للميليشيات اللبنانية أو العراقية التي تتبع له في سوريا.

رابعاً: بيد أن ما يفترض إدراكه، إضافة إلى كل ما تقدم، أن السياسة التي تنتهجها إيران هي التي شكلت قوة الدفع الأساسية فيما يمكن اعتباره التسهيل لإسرائيل النفاذ إلى العالم العربي، وتقديم المبرر الأمني، والتغطية السياسية، المطلوبين، أو اللازمين، لمثل هذا التحول، في سلم الأولويات العربية، من اعتبار إسرائيل كالمخطر الأساسي الذي يتهدد الجسم العربي، وكالمهدد الأساسي للأمن القومي العربي، إلى اعتبار أن إيران هي التي باتت تحتل هذا الموقع. وتبعاً لذلك فإن العداء العربي لإيران، والتخوف من المخاطر والتهديدات التي أضحت تمثلها، إن بالنسبة لدول مجلس التعاون الخليجي أو بالنسبة لاستقرار المشرق العربي، باتا بمثابة حجر الزاوية التي انبنت عليها فكرة "صفقة القرن"، التي تنبني على تغيير معنى ومبنى القضية الفلسطينية، وقبول إسرائيل كفاعل أساسي وطبيعي فيها، على نحو ما سبق أن ذكرنا.



مسؤولية إيران

في الواقع، وهذا ما يجب الانتباه إليه أيضا، أن إيران هي التي تتحمل مسؤولية ذلك التحول، أولاً، بسبب السياسات التي انتهجتها إزاء الخليج العربي، بمحاولاتها اللعب على الوتر الطائفي/المذهبي، وبدعمها للانقلاب الحوثي باليمن، الذي استجر حرباً مستمرة منذ سنوات، استنزفت شعب اليمن. ثانياً، بسبب إنشائها ميليشيات طائفية ومذهبية مسلحة في كل من لبنان والعراق وسوريا. وثالثاً، بحكم مشاركتها في الحرب على الشعب السوري، منذ سنوات، باعتبارها أن النظام القائم هو حليف لوجودها، ومساند لسياساتها في المنطقة.

هكذا، وبناء على كل ما تقدم فإن السياسات التي انتهجتها إيران في المنطقة هي التي أدت إلى تقويض أو تصدع بنى الدولة والمجتمع في آن معا، في المشرق العربي في كل من العراق وسوريا ولبنان (إضافة إلى اليمن)، وهي المسؤولة عن إثارة الانقسامات في تلك المجتمعات على أسس طائفية، الأمر الذي خدم إسرائيل، أكثر من أي طرف آخر، وجعل منها أكثر دولة مستقرة في منطقة الشرق الأوسط. والمشكلة، أو المفارقة، في هذا الأمر، أن كل ما سبق أن ذكرناه حصل باسم المقاومة والممانعة، وبدعوة محاربة إسرائيل، وعبر ميليشيات باسم "فيلق القدس" وحزب الله، وغير ذلك، وهو ما أثار مخاوف الأنظمة العربية، وجعل معظمها يحسب لكيفية تحجيم إيران، وإيجاد نقاط مع أية أطراف دولية أو إقليمية يمكنها أن تساهم في هذا الجهد، ما يستتج منه أن صعود الخطر الإيراني أسهم في تراجع قضية فلسطين في سلم اهتمامات الأنظمة العربية.

وربما يجدر لفت الانتباه هنا إلى أن صعود نفوذ إيران في المنطقة، لا يعود لها وحدها فقط، إذ أن الفضل في ذلك يعود للسياسات التي انتهجتها الإدارات الأمريكية المتعاقبة، إذ أن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي مكّنت إيران من الاستحواذ على العراق، بعد إسقاطها نظام صدام حسين (2003)، سيما أن بول بريمر، الحاكم الأمريكي



في العراق، إبان إدارة بوش الابن، مكّن الميلشيات العراقية الطائفية/المذهبية، والمسلحة، والتي تشغل كأذرع إقليمية لإيران من السيطرة على العراق، بكل مقدراته، وهو الذي سهّل لها ذلك، بحله كل أجهزة الدولة العراقية، بما في ذلك أجهزة الشرطة والأمن والجيش، وهو الذي تحكم في صوغ دستور العراق على أسس طائفية، وبتقوية جماعة طائفية على جماعات أخرى.

وكما شهدنا، بعد ذلك، فقد سكنت الإدارة الأمريكية عن تغلغل إيران في سوريا، بوجودها المسلح الذي ظل يتزايد باضطراد، كما سكنت عن تطويرها برنامجها النووي لفترة طويلة، بالقياس لردة فعلها على البرنامج النووي العراقي، أو بالقياس لتهمة حيازة العراق (في عهد صدام) على أسلحة دمار شامل، وهي الحجة التي تذرعت بها إدارة بوش لغزو العراق في حينه (2003).

وعليه، فإن السؤال الذي يطرح نفسه الآن بالبحاح، لماذا سهّلت أو سمحت الولايات المتحدة (ومعها إسرائيل طبعاً) لإيران بتعزيز نفوذها في المنطقة، أي في العراق ولبنان وسوريا (واليمن)؟ أو لماذا سكنت عن ذلك، طوال الفترة الماضية؟

في الجواب على السؤالين السابقين، وإذا تجنّبنا تفسير ما تحدثنا عنه وفقاً لعقلية المؤامرة، أي بتوافق أمريكي - إيراني، أو بحسب عقلية التبعية، بمعنى تبعية طهران لواشنطن، فإنه يمكن تفسيره وفق منهج التشبيك والتقاطع في المصالح السياسية الاستراتيجية، وهذا أمر معروف في العلاقات والمنافسات والصراعات الدولية، وذلك على رغم كل الادعاءات الضدية المتبادلة، كمثل ادعاء إيران مقاومة إسرائيل، ومناهضة الولايات المتحدة، واعتبارها بمثابة الشيطان الأكبر، وادعاء الولايات المتحدة بشأن اعتبار إيران كمصدر للإرهاب وعدم الاستقرار في المنطقة، إذ في المحصلة، ومن الناحية العملية، فثمة عوائد أمريكية وتالياً إسرائيلية أهم وأكبر وأعمق تأثيراً، من ضرر تلك الادعاءات أو تلك المقاومة.



المهم أنه، في المحصلة، فقد ثبت في ميدان التجربة، وليس فقط بالتحليل السياسي، أن ذلك السماح الأمريكي والإسرائيلي إنما كانت غايته استدراج إيران للتورط في البلدان المذكورة، وتالياً توظيف هذا التورط في تقويض البنى الدولية والمجتمعية لبلدان المشرق العربي، وزعزعة الاستقرار وحفر التشققات فيها، الأمر الذي قدم خدمة كبيرة إستراتيجية لإسرائيل، كما قدمنا.

أما بخصوص ما يحدث الآن، من سعي الولايات المتحدة فرض عقوبات على إيران، وتحجيمها، وتوجيه الضربات الإسرائيلية لمواقعها في سوريا، فهو يفيد بأن المعطيات السابقة تغيرت، أي أن "المهمة" انتهت، وتالياً، فإن ذلك يستوجب إدخال تغييرات في الاستراتيجية الأميركية إزاء إيران، بحسب ما بات يتكرر في تصريحات الرئيس الأميركي دونالد ترامب، وأركان إدارته، وبحسب التصريحات الإسرائيلية، ما يؤكد أن الرؤية الأميركية لتوظيف، أو لاستثمار، الدور الإيراني في المنطقة تنطبق على إسرائيل، أيضاً، أي أن الطرفين الأمريكي والإسرائيلي باتا اليوم مقتنعان بأن على إيران أن تعود إلى حجمها الطبيعي خلف حدودها، وأن على ميلشياتها أن تنزع سلاحها.

ويستنتج من ذلك أن التسهيل الأمريكي والسكوت الإسرائيلي، سابقاً، على تغلغل إيران في المنطقة كان محسوباً، أولاً، لجهة عدم السماح لها بخلخلة أمن إسرائيل، وإبقائه عند حدود خلخلة أمن المنطقة، فقط، أي دولها ومجتمعاتها، وهو ما حصل عملياً. وثانياً، إبقاء كلفة مقاومة إسرائيل عبر "حزب الله"، وادعاء مناهضة إيران للولايات المتحدة وإسرائيل أقل ضرراً، أو كلفة، عليهما، بحيث إن العوائد الإيجابية التي نجمت عن ذلك أكثر من السلبية، أو أن فائدتها أكثر من ضررها، بالنسبة للولايات المتحدة وإسرائيل، من النواحي السياسية والعسكرية والأمنية، مع علمنا بتوقف مقاومة حزب الله منذ العام 2000، أي منذ 17 عاماً، باستثناء لحظة خطف جنديين إسرائيليين (2006)، التي استجرت حرباً على لبنان.



هكذا نحن نشهد الآن، أن كل الزخم الذي تستند إليه "صفقة القرن"، ومحاولة فك عزلة إسرائيل، وشرعنة وجودها، واعتبارها شريكا فاعلا في المنطقة، وإزاحة قضية فلسطين عن جدول الأعمال، إلى تحجيم إيران، وإرجاع نفوذها إلى داخل حدودها، كما تستند إلى وعود السلام الاقتصادي، وتحقيق الأمن والاستقرار في المنطقة.

والمغزى من كل ذلك أنه ليس مسموحا لإيران، وفق الأجندة الأمريكية والإسرائيلية أن تستثمر في وجودها في المشرق العربي، على شكل عوائد أو استثمارات سياسية وأمنية واقتصادية، وتعزيز للمكانة الإقليمية ودوليا، بل إن هذا الوجود بات بمثابة عبء سياسي وأمني واقتصادي على إيران، بواقع العقوبات الأمريكية والدولية المفروضة عليها، ومنع تصديرها النفط، وانخفاض قيمة العملة، وأيضا بواقع الضربات الإسرائيلية التي توجه لها في سوريا، من دون أن تقوم بأي رد عليها.

وفي أية حال فإن تورط إيران في المشرق العربي أضحى من العمق بحيث بات يصعب عليها الخروج منه، ومن التداخل بحيث بات يصعب انفكاكها عنه بالوسائل الناعمة، أو بالوسائل العادية، سيما إذا كانت هي لا تدرك عمق المأزق الذي باتت غارقة فيها، وبخاصة إذا كان ثمة طبقة سياسية فيها، تتمركز حول "الولي الفقيه"، أو المرشد، وحول ميليشيات الحرس الثوري الإيراني.

وقصارى القول، فإن السياسات الإيرانية أخفقت في عدة مجالات، أولها، في تعزيز مكانتها، إذ أنها جعلت نفسها في دائرة التهديد، أكثر من أي مرة منذ قيام الجمهورية الإسلامية (أواخر السبعينيات). وثانيها، أنها عوض إضعاف إسرائيل فإنها أسهمت بتقويتها وشرعنة وجودها في المنطقة. وثالثها، أنها لم تستطع بناء نفوذ لها في العالم العربي، ولا في المشرق العربي، إذ أنها انكشفت تماما في ادعاءاتها بمقاومة إسرائيل وبمناهضة الولايات المتحدة، بعد كل ما فعلته في تلك المنطقة.



لا يوجد مخرج من هذا الوضع الذي يسير نحو التدهور ما لم يدرك قادة إيران المعطيات الصعبة والمعقدة التي باتت تحيط بدولتهم، والتي جعلتها في دائرة التهديدات والمخاطر، على نحو ما نشهد هذه الأيام، ولا أحد يعرف إن كانت تلك القيادات ستفهم ذلك بالطريقة السهلة أم بالطريقة الصعبة، أو إن كان ذلك سيحصل في أوانه أم بعد فوات الأوان، إذ أن كل المعطيات تفيد بأنه لم يعد من المقبول، دوليا وعربيا، استمرار نفوذ إيران على النحو الذي هو عليه، وأنه لم يعد مسموحا لها بتجاوز الحدود، والسؤال بات يتعلق بكسر النفوذ الإيراني في المشرق العربي، أم مجرد تحجيمه فقط؟



التوتر الأمريكي الإيراني ضغوط متصاعدة وحرب مستبعدة

شريف شعبان مبروك

باحث في الشؤون الإقليمية، والدولية - مصر

أجواء التوتر التي تظل منطقة الخليج برعاية إيرانية - أمريكية لم نشهد لها مثيلاً منذ سنوات، فحدث الاعتداء والتخريب الغامض ضد الإمارات في منطقة الفجيرة، وتعرض أربع سفن لمحاولة تخريب بينهم ناقلتا بترول سعوديتان، تبعه استهداف مليشيا الحوثي منشأتين نفطيتين سعوديتين بطائرة من دون طيار، وقرار أمريكي بتحريك قطع عسكرية ضخمة بشكل غير معتاد مصحوبا بتحذيرات واضحة وتهديدات مباشرة من الرئيس الأمريكي دونالد ترامب ووزير الخارجية الأمريكية ضد إيران، وهي التصريحات والتهديدات التي وجدت رد فعل فوراً من قبل إيران التي خرجت منها أصوات تتحدث عن الرد الفوري وأصوات أخرى تتحدث عن حرب مفتوحة لن تتجو منها مصالح أمريكا في المنطقة.

هذا التصعيد الأمريكي الإيراني المتبادل لم ينحصر في البرنامج النووي فقط، وإنما يمتد أيضاً إلى الملفات الخلافية الأخرى، على غرار برنامج الصواريخ الباليستية والأدوار التي تقوم بها إيران في المنطقة، وبدت مؤشرات ذلك جلية في اهتمام واشنطن بالعمليات التخريبية التي تعرضت لها السفن التجارية الأربعة في الإمارات، والتي لم توجه فيها اتهامات مباشرة لأي طرف حتى الآن بانتظار ما ستسفر عنه التحقيقات التي تجريها السلطات الإماراتية في الوقت الحالي، وبالتالي أصبحت السيناريوهات مفتوحة ما بين حرب كبرى تهدف لطحن إيران والإجهاد عليها، أو ضربات محدودة للتأديب أو حصار



يهدف إلى تحقيق مكاسب على طاولة التفاوض والحوار، أو مناوشات معتادة بلا طائل ولكل سيناريو أسبابه، والتوتر يتضاعف مع مرور الوقت وله مبرراته.

أولاً: التصعيدات والتهديدات الأمريكية – الإيرانية

مرت العلاقات الأمريكية الإيرانية منذ اندلاع الثورة الإسلامية عام 1979 بمنعطفات حادة، كادت تصل بالدولتين إلى حافة الصدام المباشر، غير أن الطابع الصراعى لهذه العلاقة لم يحل دون إقدام الدولتين على إبرام صفقات تعاون اضطراري، أملتة عقلية براغماتية تجلت في حالات كثيرة: صفقة سلاح سرية كشفت عنها "فضيحة إيران كوندرا"، تسريب معلومات عسكرية لكل من إيران والعراق بهدف إطالة أمد الحرب المشتعلة بينهما، تسهيلات إيرانية عسكرية ودبلوماسية للتخلص من نظامي صدام حسين في العراق، وطالبان في أفغانستان، ولم يكن غريباً في سياق كهذا أن تصل العلاقة بين الطرفين تدريجياً إلى نقطة توازن جسدتها "حالة اللاسلم واللاحرب"، التي استقرت بينهما وصمدت في أحلك الأوقات، فالاتفاق النووي الذي تمكن أوباما من إبرامه إبان فترة ولايته الثانية، عكس نقطة التوازن هذه بوضوح تام، وبالتالي سوف تظهر الفترة القادمة ما إذا كان بمقدور ترامب كسر هذه المعادلة، عقب قراره الخروج من الاتفاق النووي، ثم حشد القطع البحرية في مياه الخليج لإجبار إيران على إبرام اتفاق إذعان جديد.

وترجع أسباب الوصول لحافة الصدام المباشر وتضاعف التهديدات الحالية بين الولايات المتحدة الأمريكية وإيران والمسيطرة الآن على أجواء منطقة الخليج، منذ إعلان الولايات المتحدة الأمريكية في 8 مايو 2018 انسحابها من الاتفاق النووي المبرم عام 2015، والذي يهدف إلى تحجيم أنشطة طهران النووية، واتهمت إيران بأنها تتحدث عن استخدام سلمي للطاقة النووية، بينما تشير الممارسات إلى سعي طهران لامتلاك قنابل نووية واعتبرت أن الأنشطة الإيرانية مثيرة للقلق، هذا الانسحاب الأمريكي من الاتفاق النووي والذي لم يكن مفاجئاً، رغم تحفظ مستشاري الرئيس ترامب وضغوط حلفائه



الأوروبيين، كان شرارة لاشتعال نار التوتر وعودة تصريحات التهديد والحصار والعقوبات بين إيران وأمريكا.

فقد بدأت واشنطن بحملة عقوبات جديدة ضد إيران، مما حمل نُذر التصعيد المتبادل بين الطرفين، ودخلت الحزمة الأولى من العقوبات ضد إيران حيز العمل، وركزت على القطاعات المالية والتجارية والصناعية، ومن ثم دخلت الحزمة الثانية من العقوبات، وشملت قطاع الطاقة وفرض عقوبات على البنك المركزي الإيراني وتعاملاته المالية، ثم اتجهت الولايات المتحدة إلى مسار أكثر تصعيداً حينما وضعت الحرس الثوري الإيراني على قائمة التنظيمات الإرهابية، ثم ألغت الإعفاءات التي كانت منحها للدول المستوردة للنفط الإيراني، في محاولة لتصفير هذه الصادرات التي تشكل العمود الفقري للاقتصاد الإيراني، كما فرضت عقوبات أخرى على قطاعات الحديد والصلب والألمنيوم والنحاس الإيراني، التي يمكن أن تمول برنامج الأسلحة النووية الإيراني، على نحو قد ينتج تداعيات اقتصادية سلبية، منها حرمان طهران من أهم مصادر عائدات صادراتها غير النفطية، وإبطاء برنامجها التوسعي للقطاع، فضلاً عن قطع إمدادات المنتجات المعدنية عن القطاعات المدنية والعسكرية، وهو ما قد يؤدي في نهاية المطاف إلى زيادة الضغوط الاقتصادية على إيران من أجل دفعها إلى القبول بخيار التفاوض مع الولايات المتحدة.

وبالنسبة لإيران، يُعد فقدان عائدات النفط خياراً سيئاً بما فيه الكفاية حتى في أكثر الأوقات استقراراً، لكن المشكلة الحقيقية أنه يأتي هذه المرة في ظل ظروف عاصفة غير مسبوقة، وضغوط بالغة على النظام الذي يعاني من محدودية الموازنة الحكومية والآثار المتزايدة للافئاق على التدخلات الإيرانية الإقليمية، تزامناً مع احتجاجات شعبية متتالية من قبل الجمهور الإيراني لأسباب اقتصادية، وتراجع حاد للعملة المحلية، ما أضرَّ بالتجارة الخارجية ورفع معدل التضخم السنوي، وذلك في ضوء اعتماد إيران على مداخل النفط كمصدر رئيسي للعملة الصعبة التي تحتاجها لاستيراد احتياجاتها من



الأسواق الخارجية، وينذر تراجع تصدير النفط الإيراني بأزمة اقتصادية يشير إليها صندوق النقد الدولي أنها أدت إلى ارتفاع معدل التضخم إلى ما يقرب من 40%، وانكمش الناتج المحلي الإيراني، حسب تقديرات الصندوق الذي توقع أن ينكمش الاقتصاد الإيراني أيضا بنسبة 6% في عام 2019.

وقد توازت مع العقوبات المتتالية التي فرضتها الولايات المتحدة الأمريكية على إيران مع الحشد العسكري، فشهدت المنطقة تصعيدا خطيرا في تلك المواجهة الأمريكية - الإيرانية، حيث رفعت الولايات المتحدة الأمريكية مستوى وجودها العسكري في منطقة الشرق الأوسط عبر نقل حاملة الطائرات "أبراهام لنكولن" وسفينة "يو إس إس أرلينغتون" إلى جانب قاذفات "تي 52" ومنظومة صواريخ باتريوت، ورغم أنها بررت ذلك بالاستعداد لاحتمال تحرك إيران لاستهداف مصالحها في المنطقة إما مباشرة أو عبر الإيعاز للميليشيات الموالية لها للقيام بهذه المهمة.

هذا إلى جانب التصعيد المتبادل بين الطرفين حول البرنامج النووي الإيراني، بعد الإجراءات "العقابية" المتبادلة التي اتخذتها كل من واشنطن وطهران في الفترة الأخيرة، حيث فرضت الأولى عقوبات متتالية لتجفيف مصادر التمويل الإيرانية، وخفضت الثانية مستوى التزاماتها بالاتفاق النووي، خاصة ما يتعلق بالامتناع عن بيع الفائض من اليورانيوم المخصب بنسبة 3,67% والمياه الثقيلة في الأسواق الدولية، حيث أشار الرئيس حسن روحاني إلى أن إيران سوف تحتفظ بهذا الفائض، لكن الإجراءات الأكثر خطورة يتمثل في احتمال رفع مستوى تخصيب اليورانيوم إلى أكثر من 3,67% وربما إلى 20% على غرار ما كان قائما قبل الوصول للاتفاق النووي، وقد هددت إيران بالفعل باتخاذ تلك الخطوة في غضون شهرين في حالة إذا لم تبدأ القوى الدولية في رفع مستوى التعاملات التجارية والمصرفية معها وتجاوز العقوبات التي تحول دون ذلك في الوقت الحالي.



لذلك، صعدت واشنطن ضغوطاتها على إيران بالتدرج وأرادت أن تكون رسالتها إلى طهران واضحة، رسالة تؤكد بأن مخططات الاحتكاك غير المباشر عبر الوكلاء فقدت جدواها، ويعزز ذلك تصريحات مساعد وزير الدفاع الأمريكي الأسبق الجنرال مارك كيميت من أن الولايات المتحدة الأمريكية ليست بصدد إعلان حرب ضد إيران، والهدف هو الردع، والرد على أي تهور إيراني، خاصة أن الجمهورية الإسلامية الإيرانية تمتلك قوة عسكرية كبيرة وجيشا يقدر تعدادة بحوالي 550 ألف جندي، وترسانة صاروخية ضخمة، وعشرات السفن الصغيرة، التي تمثل واحدة من أكبر التهديدات العسكرية للقوات الأمريكية في الخليج، بخلاف مسارات النفوذ الإيرانية التي تمتد من بغداد إلى دمشق واليمن وبيروت.

ويمكن القول إن ثمة أربعة أهداف رئيسية سعت الإدارة الأمريكية إلى تحقيقها عبر الحشد العسكري الذي تقوم به في المنطقة خلال المرحلة الحالية، وتتمثل في:

أولاً: وضع النظام الإيراني أمام خيارات ضيقة وتقليص مساحة الحركة وهامش المناورة المتاح أمامه، عبر توجيه رسالة مباشرة له بأنها إلى جانب فرض عقوبات على الصادرات النفطية والتعاملات التجارية مع الخارج، فإن الولايات المتحدة لن تتوانى عن رفع مستوى وجودها العسكري بالقرب من حدود إيران، وربما استخدام القوة العسكرية في حال ما إذا تطلب الأمر ذلك، حيث إن اقتراب الآلة العسكرية الأمريكية من الحدود الإيرانية، يمكن أن يكون له تأثير كبير على صانع القرار الإيراني، وتفيد خبرة التعامل مع إيران على مدى العقود الأربعة الماضية أنها دائماً ما تقوم بإجراء تغييرات في سياستها في حالة ما إذا كان هناك تصور عام داخل دوائر صنع القرار بأن ثمة خطراً يقترب من حدود إيران.

ثانياً: لم تعد تستبعد الإدارة الأمريكية اتجاه إيران إلى محاولة رفع كلفة الإجراءات العقابية التي تواصل واشنطن فرضها ضدها، ورغم أن التهديدات الإيرانية باستهداف المصالح والقواعد الأمريكية في المنطقة ليست جديدة، حيث غالباً ما تستند إليها



طهران في حالة تصاعد حدة التوتر مع واشنطن، فإن الأخيرة لا يبدو أنها تتحرك من فراغ، حيث أشارت تقارير عديدة إلى أن إيران قد تقدم على الاستناد إلى هذا الخيار، وخاصة بعد أن صرح مسئول من هيئة الأركان المشتركة الأمريكية بمسئولية إيران عن العمليات التخريبية التي تعرضت لها بعض السفن التجارية في المياه الاقتصادية الإماراتية، لذلك فإن ردود الفعل الأمريكية تجاه هذا الحادث لم تكن بعيدة عن التوتر والتصعيد مع إيران.

ثالثاً: أرادت السياسة الأمريكية دفع طهران للانسحاب من خطة العمل الشاملة المشتركة وإجبارها على القبول باتفاقية جديدة، للوصول إلى صفقة تستوعب كل مكان الخلافات الحالية بين الطرفين، غير أن انسحاب إيران من هذه الخطة لا يتحقق سوى في ظروف خاصة، مثل أن يؤدي خرق مادي للاتفاق إلى إلغاء قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة المعني بتعليق العقوبات الدولية، وبالتالي يُعاد فرض عقوبات الأمم المتحدة فيما تخسر طهران دعم الشركاء المتبقين لها في الاتفاقية (الاتحاد الأوروبي وروسيا والصين)، وهو ما أدركته إيران وحذرت منه عبر الرئيس الإيراني حسن روحاني، بقوله "هناك - رد صارم - إذا أحيل الملف النووي مرة أخرى إلى مجلس الأمن الدولي".

رابعاً: يوفر تصنيف الحرس الثوري الإيراني كمنظمة إرهابية غطاء قانونياً للإدارة الأمريكية لاستهداف قطاعات الحرس الثوري ومن يساندها بضربات عسكرية خصوصاً قوات وقيادات الحرس الثوري المتمركزة خارج حدود إيران (في العراق وسوريا واليمن ولبنان وأفغانستان)، ورغم أن هذا الهدف غير مرجح في المرحلة الحالية، لكنه يبقى خياراً متاحاً في حال قررت واشنطن استخدامه، والسيناريو المتوقع لهذه المرحلة هو أن توظف كل الأدوات القانونية والاقتصادية والدبلوماسية لعزل الحرس الثوري الإيراني عن أذرعته المسلحة خارج إيران من أجل تخفيف حدة الحروب التي تقودها الميليشيات في الشرق الأوسط، أو ما يصطلح عليه بالجيوش



البديلة، خاصة بعد أن بدأت العقوبات الاقتصادية الأمريكية تأتي بنتائج ناجحة لجهة تمويل تلك الأذرع الإيرانية.

لكن في المجمل يمكن القول - من ناحية أخرى - إن تحقيق هذه الأهداف الأمريكية لا يبدو أنه سيكون مهمة سهلة، فقد اعتادت إيران على مدى العقود الأربعة الماضية التعرض لعقوبات أمريكية ودولية، وامتلكت خبرة لا يُستهان بها في التعامل معها واحتواء تداعياتها، لدرجة أنها نجحت في تحقيق قفزات كبيرة في برنامجها النووي خلال تلك الفترة، على نحو عزز قدرتها على الحصول على مكاسب مهمة في الاتفاق النووي الذي توصلت إليه مع مجموعة "1+5"، كما يبقى القول إن التوقعات المتفائلة للرئيس ترامب باقتراب موعد الاتصال مع الإيرانيين لا تتناسب مع المعطيات الموجودة على الأرض، التي تشير إلى أن إيران لن تقبل بسهولة بهذا الخيار، وأنها ستحاول تبني سياسة كسب الوقت إما انتظاراً لموعد الانتخابات الرئاسية الأمريكية القادمة على أمل أن تسفر عن وصول رئيس أمريكي جديد إلى البيت الأبيض، أو لتعزيز موقعها التفاوضي قبل أن تقرر بالفعل أن الوقت قد حان للعودة إلى طاولة المفاوضات مع "الشيطان الأكبر".

ثانياً: رسائل الردع والتهديدات الأمريكية - الإيرانية

مع تصاعد العمليات التخريبية في المياه الإقليمية الإماراتية واستهداف المنشآت النفطية السعودية، يثار التساؤل حول طبيعة الدور الإيراني في الوقت الراهن، وما يخطط له بالفعل لهدد الاستقرار بأكمله في الإقليم، خاصة أن ممارسات النظام الراهنة والسابقة في عدة دول عربية يشير وبعمق إلى تورطه في الكثير من الأحداث التي استهدفت حكومات ودولا وأنظمة في المنطقة وخارجها، ومن الطريف أن يصف المتحدث باسم وزارة الخارجية الإيرانية الحوادث التي تعرضت لها سفن قرب ساحل إمارة الفجيرة بدولة الإمارات بأنها مقلقة ومؤسفة، ومطالبته بتحقيق لكشف ملابساتها، ومطالباً دول المنطقة بتوخي الحذر من مؤامرات لزعة الاستقرار، فيما اعتبر رئيس لجنة الأمن القومي



والسياسة الخارجية في مجلس الشورى عملية التخريب بالقرب من الفجيرة تظهر أن الأمن في جنوب الخليج هش.

تاريخيا، فإن الحروب التي تختلط فيها دوافع سياسية واستراتيجية كبرى واعتبارات دينية، لا تستند دائما إلى تحركات عقلانية وحسابات دقيقة، فما جرى من استهداف للسفن التجارية ولل منشآت النفطية، تشكل بالفعل فعلاً خطيراً، ضد أهدافا مدنية في الإمارات والسعودية، وفي هذا رسالة بأن مصالح هاتين الدولتين باتتا مهددتين بشكل أو بآخر، كذلك مصالح العديد من الدول التي تعتمد على نفط الدول الخليجية، وأن ما حدث هو مجرد رسالة تحذير، وإذا ما ثبت أن جهة ما مرتبطة بإيران هي المسؤولة عن هذا الفعل التخريبي فسُعد تطورا نوعيا خطيرا، ويمثل قفزة نحو أوضاع أكثر خطورة في القريب العاجل، وفي هذه الحالة سيعطي مبررا قويا ومصادقية للحشد العسكري الأمريكي الكبير في الخليج، كما سيبرر أيضا أي ضربة عقابية أيا كان حجمها لأهداف مختارة في العمق الإيراني.

وبالتالي فقد أعدت إيران استراتيجية تصعيد بديلة تنتسبب في زعزعة استقرار كل من سوق النفط العالمي والوضع الأمني في المنطقة، ولكن من دون القدرة على تحميلها المسؤولية المباشرة عن ذلك، وبالتالي فإن الهجمات الأخيرة قرب ميناء الفجيرة وعلى منشآت النفط السعودية تأتي في سياق هذه الاستراتيجية، بحيث إن إيران لم تتحفظ في ترك العملية بلا توقيع، كما ظهر في بعض الوقائع وكذلك في التحليلات الأولية:

1- حرصت طهران على أن يُعلن النبأ أولاً عبر أداة إعلامية تابعة لها ثم أوعزت

إلى أدواتها الأخرى بفتح تغطية خاصة للحدث.

2- على رغم أن الهدف كان سفنا تجارية في موقع يُفترض أنه آمن "دوليا" إلا أن

التعليق الإيراني الأول حدّد الرسالة من الاعتداء وهي أن "أمن جنوب الخليج

أشبه بالزجاج".



3- أما الرسالة الثانية فهي أن إغلاق مضيق هرمز ممكن لكن ثمة بدائل موقنة عنه لتهديد سلامة الملاحة الدولية.

4- أن عنصر المفاجأة في عملية التخريب هذه يرمي إلى تدشين نمط مواجهة مرشح لأن يتكرر في هذه المنطقة الحساسة.

5- أن إيران لن تبادر إلى استفزاز أمريكا أو مهاجمة أسطولها الضخم مباشرة، بل بأسلوب القرصنة وحرب العصابات ولن تلجأ إلى الميليشيات التابعة لها إلا في مرحلة تالية.

وبناء على ذلك، يمكن اعتبار عملية التخريب هذه إيذاناً بأن المواجهة بدأت (بالنسبة إلى إيران) واختباراً أولاً لجعل منطقة الخليج مسرحاً لهذه المواجهة، وفي هذا السياق، يمكن الإشارة إلى أوراق الضغط التي تمتلكها إيران على أرض الواقع، والتي قد تستند إليها في مواجهة الضغوط الأمريكية، ومن بين أبرز هذه الأوراق:

1- القيام بعملية منتظمة من المضايقات للسفن التي تمر عبر المضيق، الأمر الذي قد يُسفر عن تجدد سيناريو مشابه لـ "حرب الناقلات" التي وقعت أثناء حرب الخليج الأولى، أو بالطريقة التي تمت بها عمليتي الإمارات والسعودية، مما يؤدي إلى تراجع عدد السفن المارة، وزيادة أسعار البترول.

2- شن هجمات سيبرانية متكررة على المؤسسات النفطية بدول الخليج العربي.

3- دعم وتمويل هجمات إرهابية في الدول الحليفة للولايات المتحدة في المنطقة.

4- استخدام وكلائها في شن هجمات والدفع بهم لزعة استقرار المنطقة (الصواريخ الباليستية، الطائرات بدون طيار).

وهذا ما يشير إلى أن إيران لن تتراجع عن توجهاتها بسهولة، ولن تقدم على خطوات فيها تنازل إلا من خلال ضغوط أمريكية حقيقية، وليس فقط القيام بحشود عسكرية، خاصة أن الجانب الأمريكي صعد نظرياً في مواجهة الجانب الإيراني، فضلاً عن إعلان الرئيس الأمريكي إرسال تعزيزات أمريكية للمنطقة لردع التهديدات الإيرانية.



ورغم رؤية البعض بأن ما تقوم به الإدارة الأمريكية من حشد عسكري يأتي في إطار الحرب النفسية، وأن الخيار العسكري مستبعد، لأن الرئيس ترامب غير ساع للقيام بأي مغامرات عسكرية بعد الخبرات الأمريكية السابقة في العراق وأفغانستان، ورهاناته بأن حلفاءه الإقليميين لن يتحركوا عسكريا بدون مشاركة أمريكية مباشرة، والأهم من ذلك وجود أطراف أوروبية وصينية وروسية في خلفية الأحداث، لكن على الرغم من هذا التصور المطروح، إلا أن تطورات الأوضاع في منطقة الخليج العربي واستمرار التهديدات الإيرانية وتكرار حوادث مشابهة قد يدفع بتصور آخر يدفع الجانب الأمريكي للتحرك، وهو ما يريده الصقور المسيطرون على إدارة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب في الوقت الراهن، رغم محاولات لكبح جماح المطالبين بالتصعيد.

ثالثاً: أمريكا وإيران: بين الضغوط العسكرية واحتمالات التفاوض

سياسة حافة الهاوية التي تنتهجها الولايات المتحدة الأمريكية وكذلك إيران، قوامها ببساطة مزيج من التهديدات القوية والاستعدادات العملية التي توحى بقرار حرب أو مواجهة عسكرية ذات شأن، بما يضع ضغوطاً هائلة على الطرف الآخر المُستهدف بتلك الإجراءات، ومن ثم يحدث التراجع التدريجي عن قرار الحرب والدخول في مفاوضات أو تهدئة تمهد لاحقاً لتسويات سياسية للمشكلات التي تباعد بين الطرفين المعنيين.

فبالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية فقد عززت حضورها العسكري في المنطقة، ومسئولوها العسكريون والسياسيون يتحدثون كثيراً عن التهديدات الإيرانية للمصالح الأمريكية في المنطقة ولمصالح الحلفاء أيضاً، لكنهم يربطون تلك التعزيزات بأنها لمنع التهديدات الإيرانية التي تجمعت معلومات موثقة عنها وفقاً لتقديراتهم، وبالتالي فهي لمنع الحرب وليست لخوضها، وفي الآن نفسه يؤكدون أن كل ما تفعله الولايات المتحدة من عقوبات وحصار خانق على إيران هو بهدف تعديل سلوكها السياسي وليس إسقاط النظام، ومحصلة كل هذه المواقف تصب شكلاً في التمهيد إلى مفاوضات تكون فيها إيران في أضعف حالاتها، وبالتالي تقبل بالشروط الأمريكية.



أما بالنسبة إلى إيران فإن موقفها بدوره معروف، وفيه عدة اتجاهات، أهمها:

أولاً: أن طهران لن تقدم على مفاوضات مع الولايات المتحدة في ظل هذه الظروف، وقد تقبل بها إذا ما تراجعت العقوبات الأمريكية وهو ما ألمح إليه وزير خارجية إيران، ولا يعني ذلك تجاهل احتمال أن تكون هناك اتصالات غير مباشرة عبر الأوربيين تمهد لمفاوضات حول القضايا الخلافية وتؤدي إلى اتفاق جديد ترضى به الولايات المتحدة وإيران، وثمة تقارير تتحدث عن اتصالات من خلال سويسرا، ولكن بدون أية تفاصيل.

ثانياً: أنهم لا يريدون الحرب ولن يبدؤوا بها، ولكنهم سيردون حال وقع هجوم عليهم وهو الأمر الذي يعكسه تصريح أحد قادة البحرية الإيرانية أن الوجود العسكري الأمريكي كان تهديداً والآن أصبح فرصة هي أوضح تعبير على أن إيران سوف تستهدف بقوة القطع البحرية الأمريكية في الخليج ومواقع تمركزها البرية لاسيما في العراق إذا فُرضت عليها الحرب، ويضيف الإيرانيون أيضاً إسرائيل كهدف في أي حرب مقبلة من خلال صواريخهم بعيدة المدى، وعبر أطراف إقليمية ذات صلات قوية مع طهران.

ثالثاً: إنهم (الإيرانيون) لن يتراجعوا عن مطالبة الاتحاد الأوروبي وكل الدول الأخرى الداعمة للاتفاق النووي لتأمين المصالح الإيرانية حسب الاتفاق والالتفاف على العقوبات الأمريكية.

وفي حقيقة الأمر، إن التصعيد الإيراني سواء على مستوى الخطاب السياسي أو على مستوى التحركات والتهديدات العسكرية، تعكس المأزق الكبير الذي يعانيه النظام الإيراني والخيارات المحدودة أمامه، فهذا النظام يئن تحت مطرقة الضغوط الداخلية وتزايد حدة التدهور الاقتصادي ودخول العقوبات الأمريكية مرحلة التأثير المباشر بعد إنهاء إعفاءات تصدير النفط، وتراجع قيمة العملة الإيرانية وهروب غالبية الاستثمارات الأجنبية خاصة الأوروبية، وهو ما يعني زيادة حدة الغليان الداخلي التي برزت مع الانتفاضات



المتكررة خلال العام الماضي، وقام النظام بقمعها عبر الحرس الثوري وقوات الباسيج، كما أن النظام الإيراني مع تزايد حدة العقوبات وفشل الأطراف الأخرى خاصة الأوروبيين في تعويض تلك العقوبات وتعثر الآليات التي حاولوا تطويرها مثل آلية المقايضة للتحويل على العقوبات الأمريكية، فقد الميزة الأساسية للاتفاق النووي وهي الميزة الاقتصادية وتصدير النفط ورفع العقوبات وجذب الاستثمارات، ولذلك اتجه إلى تعليق بعض بنود الاتفاق، واستئناف التخصيب كمحاولة للهروب إلى الأمام والضغط على الأوروبيين.

لكن هذا التوجه الإيراني سيؤدي إلى تداعيات سلبية في المقابل، أهمها فقد تعاطف الجانب الأوروبي معه ودفاعه عن الاتفاق النووي، ومن ثم التقارب نحو الموقف الأمريكي، فضلاً عن أن استئناف إيران للتخصيب يعني عملياً انهيار الاتفاق النووي، وبالتالي عودة العقوبات الدولية التي فرضت من قبل مجلس الأمن، بل وربما وفرض عقوبات جديدة.

رابعاً: مجابهة تحديات التهديدات الدائمة في الخليج العربي وحوله

عاشت منطقة الخليج العربي على وقع توتر متصاعد مع إيران، في ظل تهديدات متبادلة بين طهران وواشنطن، ومع تزايد التوتر والتحذير من نشوب حرب دعت السعودية لقمتين طارئتين عربية وخليجية في 30 مايو 2019، وغداة القمتين عقدت الدورة الـ14 للجنة الإسلامية العادية لمنظمة التعاون الإسلامي في مكة 31 مايو 2019، حيث سعت السعودية إلى حشد الدعم "السياسي" الخليجي والعربي والإسلامي في مواجهة التهديدات الإيرانية وتشديد الضغوط على إيران في محاولة لإبعاد الأخطار الإيرانية المحتملة بعد الهجمات التي استهدفت الإمارات والسعودية، حيث اتهمت السعودية إيران بإصدار أوامر لجماعة أنصار الله (الحوثي) لتوجيه ضربات بالطائرات المسييرة التي أعلنت الجماعة رسمياً المسؤولية عنها.



وفي المقابل، كثفت طهران مساعيها الدبلوماسية قبل انعقاد القمم الثلاث لفتح ثغرة في الجدار الخليجي، عبر تمرير رسائل إيجابية بعدة اتجاهات، لعلها تساعدنا أولاً: على التخفيف من حدة الضغوط الأمريكية، وثانياً: في تجنب قرارات تدينها تصدر من خلال تلك القمم الثلاث، تخشى إيران أن تزيد من عزلتها الخليجية والعربية والإسلامية، حيث بادر وزير الخارجية الإيراني جواد ظريف خلال زيارته للعراق إلى الإعلان "أن بلاده عرضت توقيع اتفاق عدم اعتداء مع جيرانها في منطقة الخليج"، والتي تزامنت مع إعلان طهران عن جولة خليجية لنائب وزير الخارجية الإيراني عباس عراقجي لثلاث دول خليجية وهي سلطنة عُمان والكويت وقطر.

وبالتالي، كان هدف التصريحات والزيارات الإيرانية قبل انعقاد تلك القمم واضحاً، فمن جهة تنشيط الدبلوماسية الإيرانية على جبهات متعددة لبناء شبكة علاقات دولية تساهم في تبريد التوتر مع الولايات المتحدة، ومن جهة أخرى يسعى النظام الإيراني لإحداث أكبر قدر من التصدع والانقسام بين الدول العربية خلال تلك القمم الثلاث، ومنع الوصول لأي توافق عربي وخليجي وإسلامي ضد النظام الإيراني.

ومع ذلك، فقد أكدت بيانات القمم الثلاث رفضهم للتهديدات التي تتعرض لها الدول العربية، وإدانتهم للتدخلات في شئونهم الداخلية، إلا أنه بات من الواضح أهمية تخلي الدول العربية عن سياسات رد الفعل التي تبلور المواقف تبعاً لتحركات الآخرين، واتباع سياسات جديدة، استباقية، لا تنتظر أفعال طرف، أو رد طرف آخر بل تحدد رؤى استراتيجية عربية لإنهاء الصراع في المنطقة، ورسم سياسات تمزج بين الصلابة والمرونة، بعيداً عن التشنج والعاطفية والرفض المطلق. سياسة توحيد الصف، وترك العدو، وتظهر العرب بصورة إيجابية أمام المجتمع الدولي.

باختصار إن ما يصنع الفارق في هذه القمم الثلاث ويجعلها تخلق مرحلة مختلفة عما قبلها، ليس فقط قوة المواقف والقرارات التي تتخذها هذه الدول، وإنما أيضاً مدى متابعتها وتطبيقها على أرض الواقع من طرف الدول المجتمعة، وعبر المنظمات المعنية



الثلاث. هذا فضلا عن تفعيل آليات التعاون العربي المشترك في مجال مكافحة الإرهاب، وإعادة النظر في آليات الدفاع العربي المشترك.

خاتمة

وإذا كانت الدلائل والمعطيات تشير بأن التصعيد الأمريكي من خلال سياسة العصا الغليظة يستهدف إجبار النظام الإيراني على الدخول في حوار مع الولايات المتحدة يتم وفق شروطها الاثني عشر، وتوضح - من ناحية أخرى - أن إيران تستند بدورها على استبعاد خيار المواجهة الشاملة، وفق ترجيحها إحجام الرئيس الأمريكي عن شن حرب ضدها، واعتبار أن الحشد العسكري الأمريكي هو لمجرد الردع، فضلا عن استبعادها خيار الحوار بالشروط الأمريكية لتفادي التضحية بمكتسباتها الإقليمية وبرنامجها الصاروخي، فإن الشاهد أن حالة اللاسلم ستظل سائدة بين الجانبين مع استمرار الضغوط الأمريكية، والغالب أن النظام الإيراني لن يتجه إلى الحوار مع أمريكا إلا عندما يشعر أنه على وشك الانهيار بفعل العقوبات الأمريكية والضغوط الداخلية.



وضع الأكراد بعد الانتصار على "داعش" بين التهميش والإدارة الذاتية

د. نادية سعد الدين

كاتبة وباحثة في العلوم السياسية- الأردن

يُعلق الأكراد آمالاً عريضة على مرحلة ما بعد هزيمة تنظيم الدولة الإسلامية "داعش"، نظير مشاركتهم بشراسة في بلوغها عقب دحره "جغرافيا" من آخر معاقله الإرهابية في بلدة الباغوز السورية، سبيلاً مُمهّداً لتثبيت دعائم حكمهم الذاتي، ضمن المنطقة الشمالية - الشرقية من سورية، ما لم يصبه الوهن حدّ الانتكاسة المفتوحة الاحتمالات أمام تحديات مضادة تنتظرهم في الفترة القادمة، بما قد يبعدهم عن "حلم" إقامة دولتهم المستقلة المنشودة.

وإذا كان مسعى أكراد سورية "لنمذجة" تجربة إقليم كردستان العراق، خلا محاولته الفاشلة للانفصال عن الكيان "الأم" وتقلص مساحته الجغرافية، تماشياً مع تطلع أكراد تركيا لمحاكاة نظرائهم عبر الفضاءات المجاورة، يجد تأصيله القويّ في أوراق ضغط معتبرة مدعومة بعوامل خارجية وبدافع الاستماتة لمُهااة نفاذ "الحلم"، فإن ثمة تحديات محلية وإقليمية ودولية متداخلة قد تبدّد ركائز الإدارة الذاتية الكردية حدّ التهميش، مما ينذر بفتح جبهة قتال جديدة داخل المشهد السوريّ المعقّد.

وأمام ضيق الخيارات المتاحة أمام الأكراد؛ فإن مصيرهم، كما مستقبل إدارتهم الذاتية، المرشح لشغل الملف النقاشي الأساسي خلال مرحلة ما بعد "داعش"، يبقى مفتوح الاحتمالات، فيما يضحى العنصر البشريّ الحلقة الأضعف في مداميك المعارك اللامتناهية ضمن الساحة السورية، بدون أن يلوح أفق قريب للحل، لإنهاء معاناة الشعب السوريّ.



الإدارة الذاتية الكردية في مرحلة ما بعد "داعش"

لم تخل مراسم احتفالية "النصر" التي أعلنت "قوات سورية الديمقراطية" (قسد)، المتشكلة عام 2015، من خلالها، في 23 مارس 2019، عن استعادة بلدة الباغوز، آخر الجيوب الإرهابية "لداعش" في شرق نهر الفرات بمحافظة دير الزور السورية، من آمال حصد الأكراد لمكاسب "الفوز" نظير دورهم العتيد، بدعم أمريكي، في القضاء على التنظيم، عبر الاعتراف الرسمي السوري والدولي بكيانهم الوليد، الذي تم بفرض الأمر الواقع، تحت مسمى "الفيدرالية الديمقراطية لشمال سورية"، أو "روج آفا"، والممتد بين شمال وشمال شرق سورية ضمن حوالي 30% من مساحة البلاد، سبيلاً منتظراً لتنشيط دعائم حكمهم الذاتي المستقل.

بيد أن "بهجة" النصر لم تكن مكتملة عند الأكراد، حيث جاءت على وقع قرار الرئيس الأمريكي، دونالد ترامب، الذي أعلنه في 19 ديسمبر 2018، بالانسحاب من سورية، رغم استدراكه اللاحق بترك عدد محدود من القوات، حوالي 400 جندي، في البلاد حالياً، مثلما تزامنت مع تهديد تركيّ بشنّ هجوم عسكري ساحق ضدّ "وحدات حماية الشعب" الكردية السورية (YPG)، المكون الرئيسي لقوات "قسد"، والتي تصنفها أنقرة "منظمة إرهابية"، كحزب الاتحاد الديمقراطي الكردي في شمال سورية، وفرعا سوريا لحزب العمال الكردستاني التركي (PKK)، المحظور والمصنف تركيا وأمريكا "كمنظمة إرهابية"، والذي يخوض حرباً انفصالية ضدّ تركيا منذ العام 1984، مما يثير تساؤلات مقلقة حول مصير أكراد سورية، المقدّرين وفق إحصاءات غير رسمية بنحو مليونيّ نسمة بنسبة زهاء 7% من إجمالي عدد السكان، وسط مؤشرات غير محمودّة تشي بفتح ملفهم الخلافيّ الشائك في مرحلة ما بعد الانتصار على "داعش".

فيما بات مستقبل الإدارة الذاتية الكردية على المحك؛ إزاء ثقل التحديات المضادة لها مقارنة بأوراق ضغط، جغرافية واقتصادية وخارجية، وازنة ولكنها قابلة للتغيير، والتي قد تصيب، أيضاً، منظومتها الأمنية العسكرية التي أسستها "قسد"، المدعومة ماليا وعسكريا ولوجستيا من قبل الولايات المتحدة الأمريكية، وحليفها الرئيس في الحرب على



"داعش" بسورية، مما مكنها من خوض معارك طاحنة ضده، كان أبرزها تحرير مدينتيّ عين العرب "كوباني"، عام 2015، ومنبج، عام 2016، من عناصره المتطرفة قبيل طرده من مدينة الرقة، عام 2017، والتي اتخذها التنظيم عاصمة لما سماها حينها "دولة الخلافة"، وعفرين، شمال سورية، التي خرجت من يدها عام 2018 أمام هجوم شنته تركيا وفصائل سورية معارضة، تمهيدا للقضاء عليه وضّم الأراضي التي خرجت من يده إلى مناطق سيطرتها، فقد تنتظر هي الأخرى مصيرا غير محمود إما عبر المفاوضات مع النظام السوريّ، أو من خلال المواجهة العسكرية التركية التي تتوعد أنقرة بشنّها.

أكراد سورية وتحديات المصير

أدى قرار الرئيس ترامب بالانسحاب الوشيك من سورية، رغم أنه لم يُطبّق بشكل كامل بعد، إلى خلط الأوراق الشائكة، مثلما أوحى بتخلي واشنطن عن حليفها الكرديّ غداة انتهاء مهمته بهزيمة "داعش"، تمهيدا متوقعا لانحسار مرافد التغذية العسكرية والمالية الأمريكية عن "قسد"، مما وضع الأكراد بين كماشتيّ النظام السوريّ، الذي يلوح بالقوة العسكرية سبيلا لاستعادة مناطق سيطرتهم عند فشل المصالحة الوطنية، والتوعد التركيّ بشن هجوم عسكريّ ساحق ضدّ "الوحدات" الكرديّة، والتي تعتبرها أنقرة مصدر تهديد مباشر لأمنها القوميّ.

وإزاء التنامي المرشح لنفوذ روسيا وإيران، الداعمين الرئيسيين للرئيس بشار الأسد، في سورية، عند نفاذ قرار ترامب، فإن أوراق القوة التي اعتقد الأكراد بامتلاكها عقب هزيمة "داعش" قد تتساقط من يدهم، مما قد ينذر بتآكل المكاسب الميدانية والسياسية التي حققوها، طيلة سنوات الأزمة، ويجعلهم أمام خيارات صعبة.

أولاً: مسار المفاوضات الشائك

أرخت التحديات المحدقة بالأكراد سبل انخراطهم في مسار المفاوضات المباشرة والبطيئة مع النظام السوريّ، منذ منتصف عام 2018، بواسطة روسيّة، للقطع على



تهديدات تركيا، إلا أنها لم تفض إلى نتائج ملموسة حتى الآن، نظير تثبيت دمشق باستعادة مناطق شرق الفرات، بما تضمه من ثروات نفطية ومائية غنية وأراضٍ زراعية خصبة، إما عبر المحادثات أو بالحسم العسكري، ورفضها مطلب الحكم الذاتي الكردي، لما يعنيه تقسيما لوحدة أراضي سورية، مقابل إعادة هيكلة قوات "قسد" لجهة الاندماج ضمن الجيش السوري، من دون الحفاظ على مواقعها الراهنة، وهو ما يشكل عمليا تفكيكا للإدارة الذاتية الكردية، بما يؤشر إلى مرحلة مفاوضات عسيرة ومتشعبة بفعل الأطراف المتداخلة فيها.

وبعي النظام السوري، الذي بات موقفه التفاوضي أكثر قوة من ذي قبل، محدودية الخيارات المتاحة أمام الأكراد، بعدما أفقدهم قرار الانسحاب الوشيك للقوات الأمريكية من سورية ورقة حيوية ضاغطة على دمشق وأضعف قدرتهم على مواجهة التهديدات التركية بمفردهم، وجردهم من الدعم السخي الذي كان يمدّهم بسبل الاستمرارية، ما لم يجدوا التعويض الكافي عند أطراف إقليمية بديلة مناهضة للدورين التركي والإيراني في سورية والمنطقة، بما لا ينفعهم توظيف الملف الاقتصادي في خانة رفع سقف مطالبهم تحسباً من نتيجته المعاكسة إزاء رفض دمشق تقاسم ثروات المنطقة الخاضعة تحت سيطرتهم، أسوة بخطأ المراهنة على حساسية وضع النظام السوري المثقل بضائقة اقتصادية وإنهاك عسكريّ شديدين، وسط مؤشرات بانحسار دعم حليفه الإيراني الغارق في أتون أزمته الداخلية وتبعات العقوبات الاقتصادية الأمريكية المفروضة عليه، بينما لم تسمح حالة الانفتاح الدبلوماسي من جانب دول عربية تجاه دمشق لأن تؤتي ثمارها بعد، ذلك لأن طهران غير معنية بإحداث مساومة أو تقارب ما مع الأكراد لأجل صدّ تطلعات تركيا في شمال سورية، ومحاولتها "إحياء العثمانية الجديدة" في المنطقة، والتي تشكل مساساً خطيراً للنفوذ الإيراني، سواء في سورية أو العراق أو الإقليم ككل، نظرا لما يشكله الأكراد من خصم لدود بالنسبة إليها بعد جهودها، في عام 1946 أو ما بعد الثورة الإسلامية الإيرانية عام 1979، في "قصص" أجنحتهم وإحباط تطلّعاتهم نحو الكيان المستقل، بالقوة



العسكرية، وبالتالي فإنها قد لا تستطيع المجازفة بورقة تقليص الدعم للنظام السوري أو غضّ النظر عن حيثيات المسار التفاوضي، تحسباً من مآلاتهما غير المحمودة.

ويستقيم ذلك مع الدور الروسيّ النافذ في الساحة السورية؛ والذي يدفع تجاه إعادة دمج المنطقة الشمالية - الشرقية السورية ضمن سيطرة الرئيس الأسد، لمنع تركيا من الاستيلاء عليها وتجنب شنّ حملة عسكرية أخرى مكلفة، ومن هنا سعت موسكو إلى التوصل لاتفاق، عن طريق المفاوضات، بين الأكراد والنظام السوري وفق ما ورد في الاقتراح الروسي لعقد مؤتمر للحوار الوطني السوري في سوتشي، وذلك بعدما عقدت اتفاقها الخاص مع الأكراد، والذي أنشأت بموجبه قاعدة عسكرية في منطقة عفرين، في مارس 2017، مقابل تأمين الحماية للأكراد في مواجهة تركيا. بينما يأتي التحول في موقف موسكو عقب فشل جهودها لإقناع الأكراد بالتخلي عن السيطرة على أمنهم وحدودهم إلى النظام السوري مع الإبقاء على صلاحيات إدارية واسعة، لمساهمتها في تعزيز السيادة السورية، فيما كان هدفها الأبعد الضغط عليهم ودفعهم نحو "أحضان نظام الأسد"، وبالتالي وضع حد، في الظاهر، لتبعية الولايات المتحدة، باعتبارها ورقة لتقديم تنازلات في ملفات متعلقة بتحريك النظام السوري في بعض المناطق السورية.

وإذا كان هذا ما تم فعلاً بالنسبة لروسيا، عند توجّه الأكراد نحو زخم جولات المفاوضات مع دمشق، فإنهم لجؤوا، مؤخراً، أيضاً، إلى خط وساطة مصرية للتوصل إلى تسوية سياسية مع النظام السوري لما تحظى به القاهرة من قبول عند كافة الأطراف المعنية بالملف السوري، فيما يراهنون، حالياً، على بقاء القوات الأمريكية في الساحة السورية فترة أطول، رغم أن حيثيات قرار ترامب بالانسحاب منها، والذي اتخذه قبل تسهيل عملية التوصل إلى تسوية سياسية، قد تشي بعدم اكتماله كثيراً بالمسعى الكردي لتقرير المصير بقدر حرصه على سلامة قواته ومصالحه الاستراتيجية هناك بعيداً عن الصراع مع تركيا أو روسيا، في ظل تحرك أمريكي للبحث عن صيغة مشتركة مع تركيا لتفادي تصادم جيشها مع القوات الكردية، تدور حول تمركز الأخيرة في مناطق سيطرتها قبل عام 2014، مثل عين العرب والقامشلي وأجزاء من مدينة رأس العين، مقابل دخول



أنقرة المناطق الأخرى، شريطة عدم عقد اتفاق بدخول موسكو أو دمشق إلى مناطق سيطرتها اللاحقة. إلا أن هذا المقترح قد لا يجد قبولاً مرضياً عند الأكراد لأنه يقلص نطاق مساحتهم الجغرافية ويدفعهم إلى المواجهة المباشرة مع تركيا، كما يجعلهم عالقين بين مطلب حليفهم الأمريكي واشتراط النظام السوري، خلال المفاوضات، لنشر قواته في مناطق شرق نهر الفرات باستلامه دفعة الأمور، الأمنية والعسكرية والمحلية، واستعادته السيطرة على الموارد النفطية في المنطقة، إذ كلا الأمرين يقودان الأكراد نحو مصير مجهول.

وأمام ضيق الحلقات الراهنة حول الأكراد؛ فإن مخرجات التسوية السياسية قد لا تكون في صالحهم، إذا وضعتهم أمام خيارات قاسية يضطرون فيها؛ إما إلى تسليم السلاح للنظام السوري بضغط تركي، أو لجهات دولية، ومغادرة الأراضي التي سيطروا عليها في شمال شرق سورية، عقب عام 2012، غداة انسحاب الجيش السوري منها للتركيز على قتال قوات المعارضة السورية المسلحة في مناطق أخرى، ومنعها من التمدد ضمنها، واستخدام ورقة الاتحاد الديمقراطي الكردي كمصدر إزعاج لتركيا، مع القبول بانضمام "الوحدات" في صفوف الجيش السوري، إلا أن ذلك يعني إنهاء وجودها عسكرياً، وإما منح الأكراد صلاحيات إدارية واسعة لتصبح منطقة شرق الفرات أشبه "بكانتون" إداري، شريطة بقاء السيادة والأمن بيد النظام السوري، رغم أن فرصة هذا المنحى ضئيلة، إزاء رفض دمشق الفيدرالية أو الإدارة المشتركة اللامركزية وتقاسم الثروات النفطية، مقابل مسعى الأكراد للاعتراف بكيانهم السياسي والإداري وبخصوصية قواتهم، بما قد يدفعهم لتقديم مقترح وسطيّ بسيطرة النظام على الحدود السورية التركية مقابل الحكم الذاتي، والذي ترفضه دمشق تحت طائلة التلويح العسكري.

بيد أن اصطدام المفاوضات بحائط مسدود قد يفتح مساراً سياسياً موازياً عبر ترحيل بحث مستقبل مناطق الأكراد إلى مباحثات "أستانا"، تحت رعاية روسيا وإيران وتركيا، فيما قد يدفع فشل الأكراد في صون أيّ من مكتسباتهم نحو احتمال المواجهة



المسلحة مع النظام السوريّ عند إصراره على استعادة شرق الفرات بالقوة العسكرية، ما لم يحدّ الوجود الأمريكي في تلك المنطقة من اندفاعته.

ثانياً: التحدي التركي :

يواجه الأكراد توعداً تركيا بشن حملة عسكرية واسعة ضدّ عديد قواتهم، قد تطيح، في حال نفاذها، بركائز كيانهم الوليد، بوصفه هدف أنقرة الأشمل لمنع قيام حكم ذاتي أو دولة كردية، أو حتى "فيدرالية"، في شمال سورية، إزاء ما تعتبره تهديداً مباشراً لأمنها القوميّ وتقويضاً لدورها المنشود في الساحة السورية ومكانتها "الطموحة" في المشهد الإقليمي، وإضعافاً لجهودها في مقارعة حزب العمال الكردستاني الكردي.

وأمام التعزيزات العسكرية التركية الكثيفة عند حدودها الجنوبية مع سورية وتغلغل قواتها قرب خطوط التماس مع "قسد" بانتظار شارة الحسم؛ قد يجد الأكراد أنفسهم لقمة سائغة بيد أنقرة، ما لم يحصلوا على الدعم الأمريكي المنشود والإسناد الدمشقيّ المنتظر والمكلف حال قبوله، مما قد يقلب المعادلة إزاء ما تتمتع به القوات الكردية، المقدّرة بنحو عشرة آلاف مقاتل حسب تقديرات المراقبين، من مقدرات قتالية فذة مدفوعة باستماتة نفاذ مشروعها "الحلم"، حيث يتطلب دحرها حرباً جوية وبرزية طويلة المدى ستثقل كاهل تركيا راهناً، إذ رغم ترسانتها العسكرية الثقيلة وعدادها كثاني أكبر جيش في حلف "الناتو"، إلا أن الجيش التركي يعاني من الإضعاف بسبب زجّ عدد كبير من ضباطه في السجون إبان المحاولة الانقلابية الفاشلة ضدّ الرئيس طيب رجب أردوغان، في العام 2016، فضلاً عن موجة النزوح المتوقعة من تلك المنطقة والتي ستجابه برفض دولي، في ظلّ تلويح "قسد" بإطلاق سراح المعتقلين لديها من مقاتلي "داعش" وأسره، والمقربين بالآلاف، عند تنفيذ تركيا لوعيدها، بما يشكل ذلك من قبلة موقوتة ستمتد آثارها في ثنايا المشهد السوري المأزوم.

ويستقيم ذلك مع محددات أخرى "العملية التركية"؛ فعدا عن كونها قد تدفع بالأكراد إلى الصّف السوري - الروسي - الإيراني، وهو أمر تخشاه أنقرة وواشنطن، فمن غير المرجح أن تتم بدون نيل الضوء الأخضر من موسكو، كما حدث في "غصن الزيتون"،



فيما ستلقي بوزرها الثقيل على العلاقات المتوترة أصلاً مع الولايات المتحدة، وتصيب عقر منطقة نفوذها الرئيسية وبؤرة نطاق عملياتها وتمركز قواتها، ما لم تنفذها تركيا بعد الانسحاب الأمريكي. ومع تشديد واشنطن على عدم السماح بتدمير القوات الكردية على يد الجيش التركي، مقابل تشبث أنقرة بالمضي قدماً في عملياتها العسكرية حتى تحقيق أهدافها، فسببى التوتر سيّد الموقف بين العضوين في حلف "الناتو"، والذي حاولت واشنطن احتواءه بدعم مطلب تركيا إقامة "المنطقة الآمنة" في الشمال السوري، بعمق 20-30 كم، وتحت إدارتها، لتفادي الصدام، أيضاً، مع "الوحدات"، فيما يجري النقاش الثنائي حول حدود "العمق"، إلا أن الأكراد شجبوا الفكرة التي تشكل، بحسبهم، خطوة لتسليم هذا القسم من سورية إلى الأتراك، مما يجعلهم تحت سيطرتهم المباشرة، وطالبوا بنشر قوة دولية ضمنها، كما رفضتها روسيا انطلاقاً من مناهضة اقتطاع جزء من أراضي سورية خارج يد الرئيس الأسد، بما يشي بتناقض الأجندات الروسية التركية في الساحة السورية.

فيما قد يمتد التصعيد على خط العلاقات التركية - الإيرانية مع استبعاد المواجهة العسكرية الشاملة المحكومة هنا إلى توافق روسي أمريكي في ساحة نفوذهما السورية، إذ لن تلتزم طهران جانب الصمت، كما فعلت مع عملية عفرين، خاصة إذا نجحت أنقرة في فتح جبهة أخرى جديدة في منبج، أو حتى على الضفة الشرقية من نهر الفرات، نظراً لتعرض مصالحها للخطر، حيث يمكن أن تشكل تهديداً للمعازل الساحلية الشمالية للنظام السوري، وتعيق التقدم الإيراني الجامح نحو البحر الأبيض المتوسط، وتحفز الجيش الحر على تنفيذ عمليات عسكرية جديدة لاستعادة مدينة حلب، مما يشي بتمايز الرؤيتين حيال طبيعة الأزمة السورية، بعيداً عن حالة التقارب الثنائي التي برزت مؤخراً، ومستوى المحادثات السياسية في سوتشي، وانتقادهما للسياسة الأمريكية في سورية، في ظل الخشية الإيرانية من الوجود التركي في سورية، بوصفه تهديداً طويل الأمد لمستقبل الرئيس الأسد، وحجم التحديات الكبيرة التي تواجهها في الساحة السورية؛ متمثلة في "داعش" والوجود الأمريكي والجيش الحر والعمليات العسكرية التركية والعامل الإسرائيلي،



والتي من شأنها، مجتمعة، إما أن تقصّيتها من أية استحقاقات مستقبلية في سورية، أو تقوّض نفوذها هناك، وبالتالي ستعمل بكل ما في وسعها لحفظ تواجدتها السياسي والعسكري، فالصراع في سورية بالنسبة ل طهران مصيري، والهزيمة فيه ستكون تاريخية للمشروع الإيراني بالمنطقة.

ثالثاً: الحكم الذاتي الكردي

تقف جملة عقبات صلبة أمام "حلم" الأكراد بتثبيت حكمهم الذاتي في المنطقة الشمالية - الشرقية السورية، سبيلاً مأمولاً لإقامة دولتهم المنشودة لاحقاً، والتي قد يتصدرها حال الأكراد أنفسهم وعدم اصطفاقيهم الجمعي على ذات الهدف، وتتنقل مطالبهم ما بين "الحكم الذاتي" و"الفيدرالية" و"الدولة المستقلة"، وضيق هامش تحركهم إزاء ندرة المؤيدين لمشروعهم، وعجزهم، طيلة سنوات الأزمة، عن نسج علاقات سياسية تعادل منطقة النفوذ المسجلة باسمهم وحجم الخدمات المقدمة منهم، إزاء رهانهم على العنصر الأمريكي المتحرك، وسط خشيتهم من إدارة ظهره لهم عند اشتداد أزماتهم.

ولن تنفع المسوغات الكردية التاريخية والحقوقية بالحكم الذاتي في ثني النظام السوري عن موقفه المناهض لإقامة الكيان الكردي المستقل، أسوة بتركيا، مما يفسّر زخم نشاط أنقرة عند حدودها الجنوبية وسلسلة هجماتها المتوالية، تماشياً مع معارضتها الشديدة لإعلان دولة "كردستان العراق" الاستقلال، غير الناجز حتى الآن، إعمالاً من خشيتها بانسحاب التجربة إلى داخل عقراها، في ظل نزعة حزب العمال الكردستاني الانفصالية، بما يشكل جبهة ممتدة من شمال سورية حتى الإقليم الكردي العراقي، قد تؤول دولة حيوية ذات منفذ مطل على البحر الأبيض المتوسط، ستقف حاجزاً أمام اعتماد "كردستان العراق" على خطوط الأنابيب التي تمر في تركيا فتعرض اقتصاد أنقرة للخطر.

أما إيران؛ فرغم تشاركتها ضمنياً مع تركيا في الخشية من إقامة الدولة الكردية في سورية، تحسباً من قلق محاكاة التجربة داخل أراضيها، التي تضم من الأكراد حوالي 8-10 ملايين نسمة، يشكلون ما بين 10-12% من سكان إيران، يعيش معظمهم في



غرب وشمال غرب البلاد، إلا أن المؤسسة الإيرانية تعاملت منذ زمن بعيد بقبضة حديدية معهم.

وفيما تتجه البوصلة الروسية نحو تثبيت دعائم سيطرة الرئيس الأسد على كامل الأراضي السورية، فإن سلطات الاحتلال الإسرائيلي تقف على النقيض تماماً، بدعمها المطلق لكيان كردي مستقل لإحباط النفوذ الإيراني والتركي في الساحة السورية، أسوة بموقفها من إقليم كردستان العراق، حيث كانت من أوائل المدافعين عنه، لجهة تحقيق هدف التغلغل الرحب في الجسم العراقي، وربطه استراتيجياً بها سبيلاً لتحقيق أهدافها في المنطقة.

الخاتمة

إن مصير الأكراد، كما مستقبل إدارتهم الذاتية، مرتبط بتفاهات دولية ومعطيات محلية وإقليمية لم تغب يوماً عن مشهد الأزمة السورية، الممتدة منذ العام 2011، في ظل خياراتهم التفاوضية المحدودة ومواجهتهم العسكرية المحتملة مع تركيا أو دمشق، بيد أن مجريات الأحداث وتصادم مصالح الأطراف المتصارعة في سورية كفيلة بإبقاء السيناريوهات مفتوحة على مصراعها، فيما التصعيد من جانب أي طرف سيخلط الأوراق في المشهد السوري المعقد ويبقي منطقة شرق الفرات على صفيح ساخن، ويهدد وجود الأكراد فيها، كما سيفتح المجال أمام إمكانية انفجار حرب أخرى داخل الحرب السورية نفسها، وسط مواجهة أمريكية - روسية مقبلة لتقاسم النفوذ في سورية.

إعتراف أمريكا بسيادة إسرائيل على الجولان



- فرض السيادة على الجولان، وإعادة تشكيل المستقبل
السوري والتوازن الإقليمي
- اعتراف أمريكا بسيادة إسرائيل على الجولان.. المعني
والتداعيات والنتائج



فرض السيادة على الجولان من وجهة نظر الحركة الصهيونية

د. رضا شحاته

مساعد وزير الخارجية المصري الأسبق - مصر

الخلفية التاريخية

من قُدر له أن يقرأ قراءة مدققة مراحل تطور الحركة الصهيونية حتى قبيل اليوم الأول لإعلانها في مدينة بازل السويسرية عام 1897 بسنوات عديدة يدرك أن التفكير وربما التخطيط الصهيوني وزعامته حرصوا على توثيق (التأكيد بالوثائق) العلاقات التاريخية بين اليهود والجولان والحوار كما وردتا في أسفار التوراة، وما دار حولها من حروب ومعارك طاحنة كما وردت في الرواية اليهودية.

وحتى إذا ما بدأنا قبل الحركة الصهيونية دون حاجة إلى العودة لأسفار التوراة (سفر أشعيا) لرأينا أن الرواية الصهيونية تقول بأنه قد عثر على حفريات أثرية في مرتفعات الجولان وأنه قد وجد 25 معبدا يهوديا في الفترة التي يطلق عليها "حركة التمرد اليهودية" خلال القرن الأول الميلادي وعصر الفتح الإسلامي منتصف القرن السابع الميلادي.

ولما ظهرت الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر، اعتبرت الجولان جزءاً من الأرض التاريخية للشعب اليهودي، وبدأ تأسيس الطوائف اليهودية عام 1891 في منطقة الجولان وحوارن شمال مدينة القنيطرة وجنوب نهر اليرموك وشرقي جبل الدروز وغرب هضبة الجولان .



استغلال المال بعد استغلال الدين

وفى عام 1895 بعد أن اشترى البارون اليهودي "دي روتشيلد" مساحة 150 مائة وخمسين كيلو متر مربعا، من الأرض، وكان اليهود الأوائل قد شرعوا في تأسيس الطوائف اليهودية في منطقة الجولان، فواجهت في البداية عدة هجمات من العرب ومن السلطات العثمانية، وعزلة عن باقي الطوائف اليهودية، وإذ بخطر الموقف الذي تتعرض له الطوائف اليهودية في الجولان قد بلغ ذروته.

الجولان مع بداية الحركة الصهيونية ونقطة التحول التاريخية.

كانت نقطة التحول التاريخية كما أصبح معروفا فيما بعد هي مؤتمر 1897، وذلك حين حدد "أبو الحركة الصهيونية" أهدافها الأولى بإنشاء وطن قومي لليهود والاستيطان فيما سماه "أرض إسرائيل" وبرغم رحيل كثير من اليهود بسبب أحداث الحرب العالمية الأولى، ظلت أرض الحوران المملوكة للبارون دي روتشيلد وجمعيته استعمار اليهود لفلسطين PICA مستمرة بموجب عقود استئجار بمعرفة السكان المحليين العرب، وكانت الضرائب تدفع لسلطات الانتداب الفرنسي.

الجولان والحرب العالمية الأولى

قبل نهاية الحرب العالمية الأولى، بدأت الحركة الصهيونية تعلن مطلبها عاما وهو أن تضم الدولة اليهودية التي سوف تنشأ في أرض إسرائيل في وادي البقاع بين جبل لبنان وجبل الهرمون، ومرتفعات الجولان، ووادي اليرموك، أما اقتراح ضم الجولان داخل أراضي إسرائيل فقد كان مستوحى أو مستمدا من المطالب والاحتياجات الزراعية، ولضمان توفير مصادر المياه داخل حدود إسرائيل، ومن نهر الأردن والقطاع الأردني، ونهر الليطاني ونهر اليرموك وجبل الهرمون، ونهر الزرقا.



ومن الواضح أن الحاجة الشديدة للمياه في الدولة التي يجري الإعداد لها (إسرائيل) هي أحد الأسباب الرئيسية وراء مطلب الحركة الصهيونية "إعلان بلفور" عام 1917.

وفي عام 1917 امتدادا للخطوات التصاعدية عاما بعد آخر للسيطرة الكاملة على مرتفعات الجولان ضمن سيادتها داخل حدود (إن كانت هناك حدود) لإسرائيل استنادا لإعلان بلفور (كما يسمى "بوعد بلفور") لإنشاء وطن قومي لليهود، تكررت المطالب الصهيونية منذ 1897 بالسيطرة على مرتفعات الجولان، وإذا نظرنا بنظرة مستقبلية من خلال تلك الرؤية اليهودية، لمسنا إصرارا غريبا، ورأينا تحالفات متقلبة طبقا لتغير موازين القوى الدولية، شرعت الحركة الصهيونية منذ هذا التاريخ المبكر تروج لحدود إسرائيل القادمة في كتاب بعنوان أرض إسرائيل نشر عام 1918.

وكان "بن جوريون"، وإسحق بن زفي، الرئيس الثاني لإسرائيل قد طرحا تصورهما لتلك الحدود القادمة، وأكدوا الأسباب الاستراتيجية والاقتصادية لضمان قيام دولة قوية حديثة وقد استمرت جهود الحركة الصهيونية وأنشطتها في زيادة عدد السكان اليهود في مرتفعات الجولان وحواران بل وجعلت تلك الزيادة خاصة بعد الحرب العالمية الأولى إحدى أولوياتها، وظلت وحدات ما يسمى "بلواء العمل" وأعضاء الدفاع المسماة منظمة الحراسة تدرس وتبحث وتتجول في المنطقة المسماة بأرض إسرائيل من أجل تقييم مدى الحاجة إليها، وفي نفس الوقت، ظل زعيم المنظمات الصهيونية العالمية "حاييم وايزمان" يحث ويدعو لدعم إسرائيل لبلوغ هذا الهدف من خلال اتصالاته الدبلوماسية.

الجولان في مؤتمر فرساي للسلام في أعقاب الحرب العالمية الأولى

في عام 1919 عندما عقد مؤتمر فرساي للسلام في باريس قدمت الحركة الصهيونية مذكرة عن حدود الدولة المرتقبة الموعودة تضمنت أن الحدود الشمالية للدولة اليهودية تشمل مرتفعات الجولان، وإن كانت الحدود الشمالية التي اقترحتها المنظمات اليهودية في الشمال تختلف قليلاً إذ كانت تتجه جنوباً نحو مدينة صيدا ثم باتجاه الشرق



الذي يتحول جنوباً مرة ثانية على امتداد خط يفصل سفوح المنحدرات الشرقية عن المنحدرات الغربية بجبل الهرمون ثم تستمر خطوط تلك المنطقة بالتوازي مع سكة حديد الحجاز (أي تشمل كل سوريا الحالية تقريباً وفلسطين باتجاه الحجاز).

ومن أجل هذا الهدف . الحدود المطلوبة للدولة اليهودية الموعودة عملت الحركة الصهيونية بعد الحرب العالمية الأولى ومنذ مؤتمر فرساي 1919 في معظم المنابر والأروقة الدبلوماسية المناهضة ضد فرنسا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة من أجل الاعتراف بحدودها الجديدة المقترحة.

الموقف الأمريكي من الدعوة لضم الجولان لليهود

أما الولايات المتحدة، فهي . كما تبين الوثائق . ومنذ مائة عام فقد اعترفت بالحدود التي طالبت بها الحركة الصهيونية في مذكرتها تلك ، كما أيدت أيضاً الحاجة إلى دعوة اليهود إلى أرض إسرائيل داخل الحدود التي يمكن أن تضمن للدولة اليهودية المرتقبة السيطرة على موارد المياه فوق جبل الهرمون.

ولابد في هذا السياق وأن نتوقف قليلاً لنبين كيف أن الموقف الأمريكي اليوم، وبعد مائة عام (1919. 2019) أعاد تأكيد نفس هذا الموقف بقرارين تاريخيين، الأول عام 1947 بعد أقل من خمسين عاماً من قرار تقسيم فلسطين رقم 181 لعام 1947 وإن لم يحدث مطلقاً أن استخدمت الوثائق الإسرائيلية اسم أرض فلسطين، بدلاً من أرض إسرائيل، أما المرة الثانية أو القرار الثاني الأحادي الأحدث فهو قرار الرئيس ترامب في 20 مارس 2019 (بعد مائة عام تماماً) بالاعتراف بسيادة إسرائيل على الجولان ضمن حدود إسرائيل، وفي تقديري أن الولايات المتحدة لم تفعل في خطوتها الدبلوماسية غير المسبوقة بالاعتراف بسيادة دولة محتلة على أرض الجولان السورية العربية المحتلة في حرب 1967 أكثر من أنها كانت تنفض التراب عن تلك المذكرة القديمة للحركة الصهيونية والمطلب القديم لها، وعن الموقف الأمريكي منذ مؤتمر فرساي (وان لم يكن



قد تم تفعيله في ذلك لانسحاب الولايات المتحدة من المؤتمر عندئذ) لكنها أي واشنطن قد وافقت بالتأكيد على ما تراه الحركة الصهيونية من أن قدرة الدولة الحديثة . إسرائيل على البقاء والاستمرار مرهون بتوافر التنمية الزراعية التي هي مشروطة أيضا بتوافر المياه.

أما موقف الحركة الصهيونية الذي يعتبر الجولان جزءًا من الدولة اليهودية فقد ظل ثابتًا لم يتزعزع حتى بعد اتفاقيات فرنسا وبريطانيا خلال عشرينات القرن الماضي، وبعد أن استبعدت أراضي الجولان من السيطرة البريطانية (ظلت سوريا بما فيها الجولان تحت الانتداب الفرنسي)

لكن الحركة الصهيونية لجأت إلى أسلوب آخر هو طريق المال، أي شراء الأراضي منذ عام 1924 بمعنى أنها إن لم تستطع الاستيلاء على الأرض باستيطان اليهود بشراء الأراضي للطوائف اليهودية داخل منطقة حوران، لكن مثل هذا الأسلوب في السيطرة على الأراضي واجه الفشل حين تبين للعرب أن الحركة الصهيونية هي التي تقف وراء الاندفاع لشراء الأراضي، وإن كان ذلك يدل على شيء، فهو يدل على أن منهج الحركة الصهيونية . في تقديري . وحتى قرار الرئيس ترامب بالاعتراف بسيادة إسرائيل على الجولان لم يتغير منه شيء.

الجولان والحرب العالمية الثانية

قبيل الحرب العالمية الثانية، اتجه الساسة الإسرائيليون عام 1938 إلى طريق جديد هو محاولة التقسيم للأراضي في المناطق الشمالية في بحيرة طبرية إلا أن الوكالة اليهودية لعبت دورًا يماثل دور الحركة الصهيونية في اتجاهاتها فقدمت مذكرة تؤكد فيها أهمية الجولان كجزء من أرض إسرائيل ذلك أن تلك المذكرة التي قدمتها الوكالة تسجل أن المنطقة بين الحدود الشمالية لأرض إسرائيل ونهر الليطاني وبين أرض الجولان يحدها جنوبا اليرموك وغربا نهر الأردن وظلت تعتقد أن تلك الأراضي جزء من أرض إسرائيل التاريخية"



ومع اقتراب نهاية الحرب العالمية الثانية 1944 وانتهاء الانتداب الفرنسي على سوريا، تم تسليم الجولان لسيطرة سوريا المستقلة.

وتمضي الوثائق اليهودية التي تبدأ من حفريات وآثار بالغة القدم قبل الميلاد تتبع مراحل التاريخ اليهودي وأحداثه لتؤكد العلاقات الوثيقة بأرض الميعاد في الأرض التاريخية حتى يوم الاعتراف الأميركي بسيادة إسرائيل على الجولان، فتزى بكل صلافة . أن حقوق إسرائيل في الملكية اليهودية لأراضي الجولان ذات حجية تاريخية، وأن هذه الحقوق تم وضعها بشكلها القانوني والشرعي (في جمعية الاستعمار اليهودي لفلسطين)

وقد بادرت سوريا إلى مصادرة هذه الأراضي ثم تأميمها برغم ادعاء إسرائيل أن هذه أراض مقدسة أو أراض وقف ورفض السكان فيما سمي بأرض إسرائيل تأميم هذه الأراضي في منطقة حوران، وحاولت الجماعات اليهودية الدفاع عن ملكية اليهود لتلك الأراض عبثاً أمام المحاكم السورية .

قرار تقسيم فلسطين عام 1947

في عام 1947 أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، طرأ تحول أو حدث مفصلي هو مناقشة المجتمع الدولي للمسألة الفلسطينية ونذر الحرب على أرضها بين الفلسطينيين واليهود، وفي قرار تاريخي عرف باسم قرار تقسيم فلسطين رقم (181) بين دولة عربية ودولة يهودية أي دولة فلسطينية) عشية إنشاء دولة إسرائيل في مايو 1948 لم يتغير رأي "بن جوريون" بشأن السيطرة على الأراضي التي تدعي إسرائيل ملكيتها التاريخية ومنها الجولان والتي كانت قد انتزعت (هكذا قال) من أرض إسرائيل، ذلك أن إسرائيل عملت طوال تاريخها الممتد من قبل التأسيس عام 1948 مروراً بالحروب العربية الإسرائيلية خاصة حرب يونيو 1967 بتخطيط ودأب وإصرار حتى آخر حكوماتها اليوم برئاسة بنجامين ناتانياهو والإدارة الأمريكية برئاسة ترامب لاعتراف واشنطن بسيادة إسرائيل تحقيقاً لما كان قد تنبأ به بن جوريون (الحزب العمل . الماباي) لأرض إسرائيل



في إحدى خطبه في مدينة تل أبيب في أغسطس 1947 بل وأكثر إثارة وأشد غرابة أن يكون أبو الحركة الصهيونية "تيودور هرتزل" قد تنبأ بذلك في نص كلماته التي يجب على كل باحث وقارئ عربي اليوم أن يتذكر كل حرف من حروفها والتي تقول نصا :

"إن خطوط السكك الحديدية لإسرائيل الناهضة سوف تمتد من لبنان إلى البحر الميت، ومن الشريط الساحلي للبحر المتوسط إلى الجولان وإلى حوران وكأنه نهر متدفق من البشر "1902"

لكن السيطرة على الجولان ظلت حلبة للصراع منذ أكثر من مائة عام بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى مما أتاح الفرصة لكل من بريطانيا وفرنسا للاتفاق بين البريطاني "سايكس" والفرنسي "بيكو" 1916 لتقسيم الأراضي التي كانت تخضع للأراضي العثمانية من قبل لتدخل ضمن أراضي إسرائيل بما فيها الأراضي شمال الأردن، (المملكة الأردنية اليوم) والعراق تحت السيطرة البريطانية والمنطقة التي يطلق عليها سوريا اليوم تحت الانتداب الفرنسي.

الجولان وتحليل القرارات الدولية في سياق الجدل القانوني والسياسي الإسرائيلي

المعروف تاريخيا أنه في مؤتمر يعرف باسم مؤتمر سان ريمو 1920 أقر المؤتمر "إعلان بلفور" أن أرض إسرائيل في نهاية الانتداب البريطاني ستكون لإنشاء وطن قومي يهودي وكما هو واضح لم يكن لإرادة الشعب السوري أو الشعب الفلسطيني أي يد أو دخل أو تأثير في صدور تلك القرارات وكانت أراضي الدولة العثمانية المهزومة بمثابة غنائم حرب وزعت على المنتصرين، ويرى المنطق الإسرائيلي اليوم بعد حربين عالميتين الأولى والثانية وبعد استقلال سوريا أن الحدود والجغرافيا الحالية لا تعكس الواقع على الأرض ذلك أن سياسة فرنسا ذاتها كانت قد قسمت سوريا إلى ستة أقسام خاضعة للسيطرة، وتم تقطيع إطار الاتصال المصطنع فيما بينها وهو ما يوصف اليوم بالأقليات



(لبنان . دمشق . حلب . الدولة العلوية (طائفة العلويين) سنجق الإسكندرونة (الأكراد) ثم جبل الدروز .

يمكن القول إن نقطة البداية والانطلاق الأولى في تحديد موقع الجولان في السياسة الإسرائيلية هو أن تحديد حدودها ينبع من حدود أرض إسرائيل التوراتية هذه الحدود التوراتية تمتد من مدينة دان (توصف في بعض المذاهب الدينية بالنبي دانيال ابن النبي يعقوب) ذات الأهمية التاريخية للوطن القومي لليهود في منطقة الجولان، ومن ثم تحولت منطقة الجولان إلى نقطة مرجعية أو لنقل تحولت إلى رمز تاريخي وسياسي فضلاً عن أحد الرموز الدينية الهامة .

الجولان وحرب يونيو 1967

السياسة الإسرائيلية تجاه المحيط العربي المحيط بها تحاول دون ملل تقسيم المقسم وتفتيت المفتت إلى شظايا حتى طائفة الدروز العريقة قسمتها من منظورها إلى أربع مجموعات شمال الجولان فيما يطلق عليه اسم مسعدة أو الماسادة، ثم مجدل شمس ثم بوقاظة ثم عين قونية وقد سيطرت إسرائيل على تلك الأجزاء كلها تماماً بعد عام 1967 وبالطبع دون إشارة بحرف واحد لقرار حظر الاستيلاء على الأرض بالقوة (قرار مجلس الأمن رقم 242 لعام 1967) وادعت تطبيق القانون الإسرائيلي على الدروز لمنحهم حقوقاً متساوية وبطاقات هوية إسرائيلية في محاولة مكشوفة وفاشلة لاستيعاب وتذويب صارخة لا علاقة لها ولا تعترف باتفاقيات جنيف الرابعة للسكان المدنيين في الأراضي المحتلة، ثم وهو الأهم رفض ومقاومة السكان الدروز في هذه المنطقة السورية المحتلة وتأكيدهم الصريح لانتمائهم للمواطنة السورية كما أكد كثير من تقارير الرصد لمنظمات حقوق الإنسان وبرغم ذلك تفاخر إسرائيل بأنها استثمرت كثيراً في تطوير البنية التحتية في الجولان وإنشاء المؤسسات التعليمية والمصانع، والتوريبينات الضخمة ذات الضجيج العالي .



يوصف ذلك كله بذرائع ومبررات للتمهيد للضم الكامل بعد بضعة عقود 2019 بدعم أمريكي مباشر لسيادتها على المنطقة بما يخالف كافة قرارات الأمم المتحدة ومبادئ القانون الدولي، بل وتجاهل قرار مجلس الأمن الصريح لعام 1981 رقم 497 برفض إعلان إسرائيل قرار ضم الجولان واعتباره باطلاً ولاغياً، بل وصلت حملات التضليل الإعلامي الممنهج إلى الادعاء على غير أساس من الحقيقة بأن المواطنين السوريين بالجولان كانوا يخشون من انسحاب إسرائيل لا من بقائها تحسباً من انتقام السلطات السورية الحاكمة والانتقام من ذويهم داخل سوريا.

الجولان والحرب الأهلية في سوريا (2011 - 2019)

السنوات الأخيرة الزاخرة بالفوضى والقتال والصراع المسلح والعنف الطائفي والمذهبي والصراعات الإقليمية والدولية على الأرض السورية قد خلقت تياراً جديداً تدعي حملات التضليل ظاهرة الصعود الواضح في اتجاه زيادة عدد السكان الدروز للحصول على المواطنة الإسرائيلية، ولعل أخطر ما في هذه المزاعم التضليلية أنه يشعل حريقاً عنصرياً داخل الطائفة الواحدة وبين الطائفة الدرزية والطوائف الأخرى، وقد يكون أشد خطورة خلق أرضية التحالف بين بعض شرائح تلك الطوائف التي تدعي إسرائيل بقبولهم التعايش والسلام مع الاحتلال (الضم والسيادة!) الإسرائيلي (وهو ما كان يسميه بن جوريون تحالف الأقليات في الشرق الأوسط)

تأثير فرض السيادة الإسرائيلية على الجولان على الكيان القومي لسوريا

انطلاقاً من هذا الخطر الدعائي المبرمج مستوحياً مبادئ الصهيونية وأسسها وقائماً على إحصائيات وبيانات وأرقام سكانية. ليس للأسف ما يوجد في مقابلها مصادر عربية موثقة ومنشورة حتى الآن، ما يوحي بانطباع أو يرسم صورة لا تبشر بخير بالنسبة للمستقبل السوري ككل ليس على المستوى الداخلي بل على المستوى دون الإقليمي



والإقليمي معا بعد فرض السيادة الإسرائيلية المدعومة أمريكيا وذلك من خلال وصول الاستراتيجية الإسرائيلية إلى مرحلة طرح مشروع يكاد يشبه كامل (نلمسه في الوثائق الإسرائيلية والأمريكية على حد سواء) وهي استراتيجية مخططة لتفتيت سوريا أو شردمة سوريا بوصف إسرائيل لهذا النموذج أو المشروع بأنه يكفل لها في المقام الأول مصلحة أمنية بامتياز واستراتيجية تحافظ على كيانها اليهودي، وتقديرى أن تحليل كل عناصر هذه الاستراتيجية يكشف عن أنها هي الباطل بعينه بل هي باطل الأباطيل التاريخية والقانونية لأنها مؤسسة على ادعاء وإتهامات هو أن سوريا الحالية ليست إلا انعكاسا لخليط عرقي ومذهبي، وربما استطاع أي محلل أو قارئ عام أن يتصور خرائط الدول القومية مثل سوريا التي نعرفها عبر عصور التاريخ ماذا يحدث لو قسمت على أساس عرقي أو مذهبي بين مختلف فصائلها وعناصرها المكونة لها، ماذا سوف يكون مصيرها؟

ويطرح المزيد من الحجج شبه الأكاديمية أو التي تدعي أنها أكاديمية موثقة تستخلص إسرائيل أخطر نتائج الحرب الأهلية في سوريا اليوم بأنها هي اللحظة التاريخية لإعادة سوريا إلى حالتها الطبيعية كما كانت عليها قبل الحرب العالمية الأولى وأنه على القوى الدولية (الولايات المتحدة وروسيا التدخل لتحقيق هذه المعادلة والتصحيح التاريخي) ذلك أن سوريا الحديثة منذ الاستقلال عام 1946 لم تكن إلا مجرد خليط من الشعوب يمارسون الحياة في فضاء مؤسس على توازن هش مصطنع مكنه من الاستمرار فترة طويلة لكنه انفجر بعد ذلك (الحرب الأهلية)

محاولة لتفسير المنهج الإسرائيلي في الجدل

ويظل السؤال الملح الذي يطرحه المجتمع الدولي من ذا الذي أعطى إسرائيل أو غيرها الحق الحصري في حرية تقرير مصير سوريا أو مستقبل شعبها لتكون متوافقة ومتناغمة مع تركيباتها العرقية والمذهبية؟



فإذا تناقضت معها لابد من تعديلها ، وأن تكون في مصلحة الأمن الإسرائيلي أولاً وكما سبق القول ترى أن الوثائق الإسرائيلية نموذج الدولة الموحدة في سوريا كما حدث بعد الحرب العالمية الثانية سوف يؤدي إلى إراقة الدماء بين الطوائف المختلفة بل وتستشهد في هذا السياق برسالة مكتوبة ومنسوبة لجد الرئيس الحالي بشار الأسد وهو جده زعيم طائفة العلويين سليمان الأسد وهي رسالة ربما لا ترقى لمستوى اليقين ولكنها فيما يبدو منقولة عن مصادر إسرائيلية فرنسية يعلم فيها رئيس الوزراء الفرنسي ليون بلوم وكان يهودياً أيضاً ومؤيداً للمشروع اليهودي في يونيو 1936 يحذر فيه من الآثار الخطيرة من انتهاء نظام الانتداب الفرنسي بل ويعقد مقارنة بين مأساة الأقليات ومأساة اليهود وما لاقوه من اضطهاد في سوريا.

وفي هذا السياق يتعمد الجدل الإسرائيلي الملتوي، الزج بالجانب العربي في مناظرات تاريخية، وقانونية وأرشفية عقيمة تبتعد عن جريمة الضم وجريمة فرض السيطرة، وفرض السيادة والاحتلال ذاته كجرائم حرب تنتهك قرارات مجلس الأمن، والقانون الدولي، والقانون الدولي الإنساني، وإدخال الجانب العربي في دوائر جهنمية مفرغة تضيق فيها الحقائق والحقوق إلى ما شاء الله.

وتصل الوثائق شبه الأكاديمية أو ما تسمى بالوثائق الأكاديمية الإسرائيلية للذروة لرفع درجة التعاطف الفرنسي اليهودي الصهيوني لمشروع تفتيت سوريا بالقول أن سليمان الأسد جد الرئيس الحالي بشار الأسد صدقاً أو كذباً كتب يقول بأن مستقبلاً أسود ينتظر اليهود لو انتهى الانتداب الفرنسي واتحدت سوريا المسلمة وفلسطين المسلمة ضد اتحاد المنبوذين (فصائل سوريا المنقسمة)

مضمون ودلالات الطرح الإسرائيلي تجاه الجولان السورية المحتلة

تختزل إسرائيل رؤيتها التاريخية والتوراتية الصهيونية للمستقبل السوري بعد تقسيم سوريا إلى ما تسميه كيانات قديمة جديدة مستقلة تعكس واقعا إثنيا أو حقائق عرقية



و دينية على الساحة السورية بحيث تكفل خلق توازن جديد للقوى يؤدي إلى تغيير جذري في الميزان الجيوستراتيجي الكلي وهو هدف إسرائيل الحقيقي على حدودها الشمالية ثم تحاول إسرائيل إضفاء شكل من أشكال نظم الحكم الحديث على مشروعها الأخطر في المستقبل المنظور لسوريا أي وهو نظام اللامركزية وتكرر أن هذا سوف يكون في مصلحة الاستقرار السوري كما لو كانت إسرائيل هي الراعي والوصي على سوريا) وفي نفس الوقت المصالح الأمنية لإسرائيل ذلك أن من شأنه تفتيت الجبهة السورية الموحدة ضد إسرائيل بشكل مدروس بعناية على حدودها الشمالية يخدم مصالحها على المدى الأبعد وعلى المستوى الإقليمي كله كما أنه يبعد الخطر الإيراني .

والمثير للاندعاش فعلاً أنه لا يفوت الجدل الإسرائيلي أن يلتفت أو يستعين ولو قليلاً بالقانون الدولي فيقول بكل صراحة أن القانون الدولي من المرجح أن يولي اعتباراً خاصاً وهاماً للفترة الزمنية للسيطرة الإسرائيلية على المنطقة السورية المحتلة حيث يستعرض حالة السيطرة على الجولان بقوة حق التقادم فيقول . كما لو كانت أرض الجولان السورية أرضاً لا صاحب ولا مالك لها بدليل أن سيطرة سوريا على الجولان حديثاً، لم تتجاوز واحداً وعشرين عاماً، أما سيطرة إسرائيل على الجولان فقد امتدت لنصف قرن من الزمان دون أن تكون لسوريا إلا المعارضة لمرة واحدة ولأيام بل وساعات محدودة خلال حرب عيد الغفران (حرب أكتوبر 1973) ذلك أن امتلاك السيادة بموجب حق التقادم تحكمه قاعدة معينة يعترف بها في القانون الدولي وأنه يمكن أن يكون بمثابة الحجة أو الدليل القوي، وهو ما ينطبق على المطالب الإسرائيلية، خاصة وأن سوريا لم تسع لاكتساب حق ملكية الجولان بقوة التقادم لابتعادها عن أي جهود لاستئناف المفاوضات، ورفض سوريا كل نموذج للانسحاب الإسرائيلي جزئياً أو كلياً طبقاً لحق اكتساب الملكية بالتقادم واستمرار الادعاء بكافة الحقوق في الجولان.

كما أن تطبيق القانون الإسرائيلي لمدة زمنية (50 عاماً) على كافة السكان يخلق واقعا أو أمراً واقعاً لا ينطبق عليه حق المشروعية فقط بل ولا ينطبق عليه الواقع



الاجتماعي والثقافي وهو ما يخلق اتفاقا غير مكتوب في الجدل الإسرائيلي بين المواطن والدولة لأن ترفض أي سيناريو يغير من الوضع القائم على الأرض تغييرا جذريا.

استخلاصات

في ضوء هذا الطرح أو الجدل الإسرائيلي متعدد الجوانب التاريخية والسياسية والقانونية بعض الدلالات بالنسبة للوضع الجيو سياسي في العالم العربي وفي سوريا ذلك أن الموقف الراهن في المشرق العربي والشرق الأوسط كله يتطلب في الرؤية الإسرائيلية النظر إلى الأمام لا إلى الخلف بمعنى أنه ليس المقصود البحث عن مستقبل مختلف لسوريا فقط بل مستقبل مختلف للمشرق العربي كله بعد وبسبب أحداث الربيع العربي ثم بسبب أحداث الحرب الأهلية في سوريا التي خلقت واقعا إقليميا ودوليا جديدا.

هذا الواقع الإقليمي الجديد مرده إلى (أن النظام الإقليمي الراهن الموروث منذ مائة عام، منذ اتفاق سايكس - بيكو قد انهار وعفا عليه الزمن وبكفى دليلاً على ذلك ما حدث في العراق وسوريا وليبيا وأن الحدود المعترف بها بين الدول من قبل قد طمست واختفت وتقوم مقامها اليوم مناطق تقوم على أساس الهوية العرقية والدينية وهو ولا بد أن يفرض إعادة تشكيل فضاء الحياة الديموغرافية والسياسية والاجتماعية في المنطقة، وبكفى في هذا حجة ودليلاً الاستشهاد بأحد تقارير مجلس العموم البريطاني عن الاتجاهات القادمة في الشرق الأوسط في سنوات وعقود المستقبل بالقول إن مفهوم "الدولة" يفقد دلالاته في منطقة الشرق الأوسط ويبدو أن التغيرات العميقة أو ما يسمى في علم الجيولوجيا بالحركات التكتونية أو الهزات الزلزالية قد انفجرت في أعماق الأرض وبدأت تحدد مسارا بشريا واجتماعيا مختلفا في المشهد الجيو سياسي، ولذلك فقدت الحدود بعد الحرب العالمية الأولى كل معنى لها أما الدولة القومية فقد ولى عهدها وانتهى زمانها).

وبالنسبة لأحداث الربيع العربي والأحداث في سوريا، فضلت إسرائيل خيار عدم التورط أو عدم الانخراط فيها وتجنب آثارها السلبية لكن بعض الآراء تميل إلى أن هذه



السياسة السلبية الاختيارية ساعدت كلاً من القوتين الإقليميتين إيران وتركيا على التحرك بفاعلية دفاعاً عن مصالحهما في الساحة السورية.

فالنسبة لإيران، أتاحت لها سياسة إسرائيل التحرك جنوب سوريا وفي الجولان، والقنيطرة، أما بالنسبة لتركيا التحرك شمال وشرق، والجزء الغربي الشمالي من سوريا (ضد الأكراد) في عفرين وإدلب ومانيبيج. بيد أنه في عام 2018 أتاحت تلك السياسة السلبية لإسرائيل لإيران تنفيذ خططها لتوسيع الوجود في الجنوب، وبناء جسر شيعي إيراني على حدودها في مرتفعات الجولان ثم التعلل بعد ذلك بالوجود الإيراني والسيطرة على الجولان بالكامل وفرض السيادة عليها، ومع خطورة أي انخراط إسرائيلي في الحرب الأهلية الدائرة في سوريا واحتمالات المواجهة المباشرة مع إيران وفصائل الميليشيات على الحدود الإسرائيلية شمال إسرائيل جنوب سوريا أصبحت اليوم بحاجة إلى إعادة النظر الجاد أو بشكل جدي لمستقبل التوازن الجيوسياسي الجديد في المنطقة.

ربما كان التفكير ثم الإعلان . الذي بدا مفاجئاً لم يكن كذلك . لفرض السيادة الإسرائيلية على الجولان السورية المحتلة وبدعم أميركي علني رسمت له وخططت في برامج عمل ومؤتمرات صهيونية متتالية عند نهاية القرن التاسع عشر، حتى العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين وشاركت فيه الحركة الصهيونية والمنظمات اليهودية، والوكالة اليهودية وزعماء الحركة الصهيونية من تيودور هرتزل إلى حاييم وايزمان، إلى البارون دي روتشيلد إلى بن جوريون ثم اللوبي الصهيوني الطاغوي في دوائر صنع القرار الأمريكي، وصولاً إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي الليكودي الحالي ثم صك عقد الملكية الباطل بقرار الرئيس الأمريكي الحالي دونالد ترامب في مارس 2019 ولم يزل الجولان العربي السوري المحتل حلبة للصراع بين سوريا وإسرائيل أو بين العرب والحركة الصهيونية العالمية.



الاعتراف الأميركي بسيادة إسرائيل على الجولان المعنى والتداعيات والنتائج

د. محمد خالد الأزعر

كاتب وأكاديمي فلسطيني- القاهرة

في 20/3/2019 كتب الرئيس الأميركي دونالد ترامب على موقع تويتر أنه "حان الوقت للاعتراف بالسيادة الإسرائيلية على هضبة الجولان ؛ التي لها أهمية حيوية لدولة إسرائيل والاستقرار الإقليمي". مؤدى هذه "التغريدة" أن تصور الرئيس ترامب لمصير الهضبة السورية المحتلة منذ عام 1967 ؛ الذي تحول إلى قرار أميركي منفرد، ملأ الدنيا وشغل الناس، كان يراوده منذ وقت سابق، وأنه وبطانته السياسية كانوا بصدد اختيار الوقت المناسب لتفعيله. وتتأكد صحة هذا التفسير عند تحري بعض الوقائع الموصولة بالسياق التاريخي للقرار ؛ التي انتهت بقناعة ترامب بأنه "حان الوقت" للخروج به على الخلق.

بدأت هذه المرادة في الأيام التالية مباشرة لتسلم ترامب مقاليد البيت الأبيض (20/ يناير 2017). ففي أول لقاء له مع بنيامين نتنياهو رئيس وزراء إسرائيل (15 /فبراير 2017)، طالبه الأخير بالإقدام على خطوة الاعتراف، مستغلا حديثه عن انحيازه المطلق للرؤى الصهيونية التاريخية والروحية التي تلتقي مع القيم الأميركية، وقناعته بأن أمن إسرائيل له الأولوية على ما عداه من اعتبارات مهما كان شأنها ، وأن حل الدولتين ليس هو الطريق الوحيد للتسوية الفلسطينية ؛ وأن الأمم المتحدة عاملت إسرائيل بقسوة ؛ وأنه ينوي الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل السفارة الأميركية إليها. ويبدو أن نتنياهو حصل على تطمينات أولية من الرئيس الأميركي، شجعتة لاحقا على عقد اجتماع لحكومته في الجولان (2018/4/17)، وهي سابقة تحدث للمرة الأولى ..



ويومها، أعلن رئيس الوزراء الإسرائيلي من هناك أن دولته ستبقى في تلك المنطقة ولن تتخلى عنها إلى الأبد.

وقبيل أيام معدودات من إعلان ترامب المشؤوم، اضطلع نتنياهو بمهمة الدليل السياحي لوفد من الكونجرس الأمريكي كان في زيارة للجولان .. وهناك راح يشرح لهم الأهمية الاستراتيجية للهضبة بالنسبة لأمن إسرائيل ؛ ويردد المزاعم الصهيونية بأنها جزء من أرض إسرائيل التاريخية بدليل " العثور على قطع أثرية يهودية هناك " . وقد علق البعض ساخرا من سخافة هذه الذريعة، بأنها لو طبقت عالميا لأعيد نصف القارات القديمة الثلاث إلى سيادة روما. ومع ذلك، فإنه حين عاد الوفد إلى واشنطن، قام بأداء المطلوب وهو حث الرئيس ترامب على الاستجابة لرغبة نتنياهو. وبالتزامن مع هذه النذر، تجنبت الدبلوماسية الأمريكية في حديثها عن الجولان استخدام تعبير " الاحتلال "، واستبدلته بمفهوم " السيطرة " الإسرائيلية بكل ما ينطوي عليه هذا التغير من مضامين مضمرة تخالف الواقع القانوني والسياسي.

القصد، أن مؤشرات كثيرة كانت توحى بما يعتمل في ذهن الرئيس الأمريكي وإدارته الجمهورية، وأن إعلان القرار في الوقت الذي أعلن فيه وفي حضور رئيس الوزراء الإسرائيلي، جاء عن حسابات بأن اللحظة مواتية لغير سبب، منها بلا حصر :

- دعم فرص نتنياهو، صديق ترامب الصدوق وشريكه في نمطي التفكير والسلوك والقناعات الأيديولوجية والسياسية، إلى درجة أن كليهما يواجه داخليا تهما بالفساد السياسي والأخلاقي والغش والتوسل بالرشوة، بين يدي الحملة الانتخابية للكنيست الحادي والعشرين ؛ التي جرت بالفعل بعد أسبوعين من القرار (9 إبريل 2019). والحق أن قرار ترامب الخاص بالجولان كان أثنى هدية يقدمها رئيس أمريكي لمسؤول إسرائيلي في مقام نتنياهو وفريقه الحاكم ؛



الموصوفين جميعهم بـ " التطرف " اليميني الديني والعلماني. وعلى هذا الصعيد، حقق القرار غرضه إلى حد بعيد، وكان بمثابة صك غفران لرئيس الوزراء الإسرائيلي أمام جمهور الناخبين في إسرائيل.

- تعزيز صورة ترامب وموقعه السياسي في الداخل الأميركي، وذلك عبر التوسل بجماعات الضغط الصهيونية بشقيها اليهودي والمسيحي. ولاسيما قطاعات الإنجيليين ؛ التي ترى في وجود إسرائيل وازدهارها تعجيلا للحظة الخلاص بكل حملاتها ومرتكزاتها الدينية. ويذكر أن ترامب يطمع في مساهمة هذه القطاعات في دفع الأضرار المتأتية من التحقيقات القضائية التي يواجهها، على خلفية أكثر من اتهام ؛ أبرزها السماح لروسيا بالتدخل لتعويمه في الانتخابات الرئاسية، ويطمع أيضا في إعادة انتخابه لولاية ثانية.
- توجيه رسالة إلى النظام السوري ؛ فحواها أن تحالفه مع روسيا وإيران وحزب الله اللبناني ربما أدى إلى إنقاذه في دمشق ؛ لكنه لن يكون قادرا على إنقاذ الجولان واستعادة السيادة السورية عليها.
- إشعار موسكو؛ التي رسخت نفوذها في سوريا، بأن الولايات المتحدة مازالت تستطيع التأثير هناك .. وهذا بالتوازي مع إشعار الإسرائيليين، بأن توجه حليفهم الأميركي إلى تخفيف وجوده في الميدان السوري، لا يعني تخليه عنهم في مواجهة إيران وحزب الله ، وذلك في ضوء تقدم الجيش السوري وتمكنه من دحر قوات المعارضين في الطرف الآخر من الجولان .
- استغلال معطيات عربية عامة وسورية خاصة مشجعة إسرائيليا وأميركيا للانقضاض على الجولان. ومما يقال في ذلك أن الجولان لم يحظ بالاهتمام العربي ذاته ؛ الذي ناله مصير الضفة وغزة .. وألمح بعض المعلقين إلى أن " قلة عدد سكان الهضبة المحتلة، وضعف التعبئة السياسية بينهم، جعلها تخرج إلى حد ملموس من الاهتمامات العربية". وعلى الصعيد السوري، أدت الحرب



الأهلية إلى بعثرة المجتمع السوري وانتشار الأحقاد السياسية وغير السياسية بين جماعاته وإنهاكه وانشغاله بأحواله الدامية .

من ثوابت قوانين العلاقات الدولية وأعرافها وتقاليدها السارية، عدم جواز ضم الأراضي بالقوة. هذه الثوابت، المبنية في متون القانون الدولي العام والقانون الدولي الإنساني ومعاهدات جنيف ولاهاي وميثاق الأمم المتحدة و قراراتها العامة ذات الصلة، كفيلة وحدها باعتبار قرار الرئيس الأميركي بحق الجولان خطوة خارج مألوف التعامل بين الأمم المتحضرة، وهي التي تفسر عدم إقرار أي دولة بضم إسرائيل لأي أرض استولت عليها جراء حرب العام 1967 .. لكن هذا الخرق يبدو أكثر جرأة وتبجحا، عندما نتذكر أن الجولان مشمول بذاته بقرارات الشرعية الدولية الخاصة بكيفية تسوية نتائج تلك الحرب، وفي طليعتها قرارات مجلس الأمن أرقام 242 لعام 1967 و 338 لعام 1973 و 497 لعام 1980. وموجزها عموما " عدم جواز القبول بالاستيلاء على أراض بواسطة الحرب، ودعوة إسرائيل إلى الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة، مقابل سلام يؤدي إلى الاعتراف بحق الجميع بالعيش في حدود آمنة ومعترف بها. وبطلان قرارات إسرائيل بضم الجولان واعتبارها بلا مفعول قانوني على الإطلاق..".

قبل عهد ترامب، لم يسبق للسياسة الأميركية أن حلفت بعيدا عن هذا الإجماع، وذلك على الرغم من انحيازها ودعمها اللامقنوع واللامنوع لإسرائيل .وعليه، يعد موقف هذا العهد انتهاكا لبعض موروث هذه السياسة تجاه الصراع الصهيوني العربي ؛ الذي ظل يعتبر الجولان أرضا محتلة تحل قضيتها بالمفاوضات، وكانت واشنطن بعينها أكثر الأطراف الدولية انغماسا في الوساطة وممارسة لدور الطرف الراعي لهذه المفاوضات. ومن جهة أخرى، يصح الاعتقاد بأن موقف إدارة ترامب المبتدع من الجولان يعبر عن استخفاف بالميراث الحقوقي المنظم للعلاقات الدولية في أوقات الحرب ؛ الذي طالما جهرت السياسة الخارجية الأميركية بالتزامها به .. حدث هذا في سياق تبرير معارضتها لكل من الغزو السوفيتي لأفغانستان عام 1979 والغزو العراقي للكويت عام 1990



وسيطرة روسيا على شبه جزيرة القرم عام 2014 .. والحال كذلك فإن إدارة ترامب تبدو وكأنها تؤسس لمبدأ مستحدث من عندياتها ؛ قوامه أن القوانين والقرارات الدولية ليست هي صاحبة الكلمة النهائية في تعيين العلاقات والحدود الجغرافية بين الدول.. وأن الغلبة بالقوة المسلحة يمكنها ممارسة دور فارق ومحدد في هذا الإطار.

هذا يعني، بكلام آخر، أن قرار ترامب بصدد الجولان، وكذا بشأن الاعتراف بالسيادة الإسرائيلية على مدينة القدس ومحاولة شطب حق العودة الفلسطيني، وتقويض وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (أونروا)، يؤسس للانتكاس بعالمنا إلى غياهب شرعة الغاب وما قبل استقرار القوانين والتنظيمات الدولية. وقد التقط بعض الإسرائيليين طرف هذا التحول غير الطبيعي، وراحوا ينسجون عليه، محاولين إسباغ مسوح قانونية ومنطقية عليه.. إذ اعتبر هؤلاء أن الدول العربية هي التي بادرت بالاستعداد للعدوان عام 1967، وأنه لا يحق للمعتدي الذي فقد في الحرب شيئاً المطالبة به. مثل هذا التصور، يعني أن ثمة في إسرائيل من يجتهد لإعادة صياغة قصة عدوان 1967، بهدف تبرير استقطاع بعض الأراضي العربية التي احتلت في سياقها، على قاعدة أن ذلك مثل خسارة للعرب لصالح إسرائيل التي كانت في "حرب دفاعية".

خبراء الدعاية والإعلام وسواهم من القانونيين والحقوقيين والدبلوماسيين الصهاينة غير العدول، ومشايعهم داخل إسرائيل وخارجها، ربما يسعون إلى مزيد من الترويج لهذه البدعة وما يتصل بها من فتنة حقوقية. ومع أن الإطاحة بمنطقهم ومحاججاتهم وسفسطاتهم ليست بالأمر العسير، في ضوء حقائق الرصيد القانوني والسياسي الموصول بسيرة الاحتلال الإسرائيلي لتلك الأراضي، ومن ضمنها أضيابير ومحاضر التفاوض الإسرائيلي مع الطرف السوري، إلا أن مجرد الخوض في مثل هذه الغمار يشكل سابقة سلبية مثيرة .. فالأصل أن المجتمع الدولي، ناهيك عن المجموعة العربية، بصدد قرار يتعمد التشكيك في مبادئ وقوانين وقرارات، نتجت واستقرت عن خبرات متراكمة، ومنها عدم المساس بالحدود وتغييرها بالقوة. ويصح تماماً في هذا الإطار ما جاء على لسان



أمين عام جامعة الدول العربية السيد أحمد أبو الغيط " إذا كان الاحتلال جريمة، فإن إضفاء الشرعية عليه جريمة لا تقل خطورة " .

في كل حال، فإنه باستثناء الترحيب الإسرائيلي، وهو الموقف المقدر سلفاً، تلقى القرار الأميركي ردود أفعال عربية وإقليمية ودولية مستنكرة وغاضبة.. فالاتحاد الأوروبي رفض الخطوة الأميركية بلا موارد. وأصدرت الدول الأوروبية الخمس الأعضاء في مجلس الأمن بياناً، أكد على مخالفة القرار للقانون الدولي الذي يحظر ضم الأراضي بالقوة، وأن القرار مرفوض لأنه تغيير أحادي الجانب. وسخرت موسكو من القرار مؤكدة أن " الجولان أرض محتلة طبقاً لقرار مجلس الأمن رقم 497، ولو كان لدى واشنطن أحقية في موقفها، فلماذا لا تعترف بسيادة روسيا على القرم طبقاً لمنطقها مع الجولان ؟ ". وأعلنت القمة العربية، التي انعقدت بعد بضعة أيام من صدور القرار الرفض المطلق لخطوة واشنطن " وحذرت أي دولة تحذو حذو الولايات المتحدة في مثل هذه السياسة الشاذة عن الإجماع الدولي ". ومن جانبهم، أجمع أعضاء مجلس الأمن الدولي في الجلسة التي انعقدت بطلب من سوريا (2015/3/27)، عدا الصوت الأميركي بالطبع، على رفض القرار واعتباره إجراءً أحادياً لاغياً ولا يرتب أي جديد بالنسبة لوضع الجولان السوري كأرض محتلة " يتحدد موقف الأمم المتحدة منها، وفقاً لقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة بهذا الخصوص " .

عندما صدر قرار الرئيس ترامب بالاعتراف بالقدس عاصمة موحدة لإسرائيل (2017/12/6)، وتم نقل السفارة الأميركية إليها بالفعل (2018/6/14)، واقترن ذلك بسلسلة من القرارات الأميركية المعادية لحقوق الفلسطينيين، والمعاكسة لحل الدولتين ؛ الذي يعد في أصله مبادرة أيدتها واشنطن وسعت إلى رعاية التفاوض الإسرائيلي الفلسطيني حولها من قبل، عندما حدث ذلك ونحوه ، فقد الفلسطينيون ما تبقى لديهم من آمال محدودة في إنصاف الولايات المتحدة بين يدي حديث السلام والتسوية مع إسرائيل.. حتى أنهم أعلنوا نبذهم لانفرادها برعاية عملية التسوية ومقاطعتهم كلياً للتعامل مع إدارة



ترامب، ورفضهم القاطع لما عرف بـ " صفقة القرن "، تلك الخطة التي راحت هذه الإدارة تعد بإطلاقها لوضع حد نهائي للقضية الفلسطينية. وبينما كان التناظر على أشده لدى كل المعنيين بالتسوية الفلسطينية، بشأن مضامين الحل الجاري تصنيعه أميركيا تحت عنوان الصفقة، كانت الدبلوماسية الفلسطينية أكثر الأطراف قناعة بأن هذه الخطة العتيدة ؛ التي تأجل كشف النقاب عن تفاصيلها غير مرة، لا تتذر بغير سوء لحقوقهم التاريخية والقانونية ولمصيرهم، وبأنها تتطوي على مساوئ وعيوب جوهريّة تتعلق بتصنيف خريطة الجوار العربي لفلسطين التاريخية على النحو الذي تريده إسرائيل. وهنا بالضبط جاء القرار الخاص بالجولان كي يؤكد مصداقية هذا التصور، ويهمل الكثير من التراب على دور الوساطة الأميركية، ليس فقط على صعيد التسوية الفلسطينية، وإنما أيضا على بقية مفردات عملية السلام بين العرب وإسرائيل، وضمنها بالضرورة المسار السوري الإسرائيلي.

لامجال والحال كذلك لأي وعود مشرقة يمكن أن تأتي بها الصفقة الأميركية، ولامجال لمعقولية أو مقبولية الاعتقاد بأن منهجية إدارة ترامب، تسمح بتقعيد تسويات للقضايا العالقة بين أطراف الصراع الإسرائيلي العربي. تقع هذه النتيجة على رأس التوابع السياسية لقرار الجولان الأميركي .

رب مجادل هنا بأن العرب عموما، دون استثناء الفلسطينيين، كانوا دوما على دراية بالعلاقة الأميركية الإسرائيلية الخاصة، ومع ذلك ارتضوا بوساطتها بحكم كونها الفاعل الدولي الأكثر قدرة على لي ذراع إسرائيل والتأثير على سياساتها. هذا صحيح، لكن الجديد الفارق الذي أتت به إدارة ترامب هو قطعها لشعرة معاوية مع مفهوم الوساطة بشيء من اللياقة والاعتدال، بمجاهرتها للعداء مع ثوابت الحقوق العربية المكفولة بالشرعيتين التاريخية والقانونية، وقبل ذلك وبعده، اتجاهها إلى تفسير القوانين الدولية وقرارات التنظيمات الدولية وفقا للرؤى الصهيونية الإسرائيلية.



لنا أن نلاحظ مثلاً، كيف بررت هذه الإدارة قرارها بشأن الجولان باحتياجات الأمن الإسرائيلي. هذا التبرير ليس مبتكراً ولا يمثل اكتشافاً، فلطالما دفعت به إسرائيل ولم يؤمن به أي طرف دولي، ولا انصاعت له أي إدارة أميركية بالكيفية التي أقدمت عليها إدارة ترامب، على مدار اثنين وخمسين عاماً من احتلال الجولان. ومن نافلة التوقعات أن التوسل بذريعة الأمن الإسرائيلي، يعد سابقة من شأنها إيذاء المحيط الإقليمي العربي عموماً، وتشجيع نخب الحكم والسياسة الإسرائيلية على مزيد من التتمر والسعي لقمع الأرض الفلسطينية، لاسيما في الضفة المحتلة.

والواقع أن هذه النخب لم تتأخر كثيراً في استخدام المنظور الأميركي المستحدث في مقارنة مصير الأرض الفلسطينية المحتلة، وأعلنت على لسان زعيمها الأكبر نتنياهو "أننا في الطريق إلى ضم الكتل الاستيطانية الكبيرة، وسوف نحفظ حتى بالبور الاستيطانية العشوائية ولن ننقلها إلى السيادة الفلسطينية".

بصيغة أخرى، ألقى قرار ترامب بظلال كئيبة على صورة السياسة الأميركية لدى الشعوب العربية، وحجب النزر اليسير من الثقة في احتمال اعتداله.. ترسخت هذه الصورة المشينة إلى الدرك الذي راح عنده البعض، يستحضر سيرة وعد أو تصريح بلفور الشهير قبل مئة عام، فقيل إن العرب إزاء نموذج آخر هو وعد ترامب، وكلاهما أعطى ما لا يملك لمن لا يستحق. وبالتداعي، فإنه كلما ورد حديث صفقة القرن تم استحضار سيرة اتفاقية سايكس بيكو المنكودة، ولم تعد هناك حاجة عربية أو إقليمية أو دولية لمزيد من التكهن والتخمين حول محتوياتها، باعتبار أن ما أمسى معلوماً عنها يكفي وزيادة لمعرفة ما بقي مخبوءاً منها أو قيد الإعداد.

لا غبار على عقد المحاكاة بين وعدي بلفور البريطاني وترامب الأميركي، فكلاهما يتصل بإيمان الرجلين بالخطاب الصهيوني القح.. غير أن تصرف ترامب يبدو أكثر فجاجة واستدعاء للقيم العنصرية تجاه عوالم الآخرين طراً، علاوة على استخفافه بحقوق العرب. وإذا ما أخذنا في الحسبان بقية مواقف الرئيس الأميركي من القدس والاستيطان



الصهيوني وحق العودة الفلسطيني .. جاز الاعتقاد بامتداد هذه الاستهانة إلى كل من الفلسطينيين والعرب والمسلمين وإرثهم الحضاري الإنساني الحاضن لبعض المقدسات المسيحية على حد سواء. ثم إن هذه المواقف الشاذة، صدرت في سياق تاريخي حقوقي دولي أكثر تطوراً و تنظيماً وعناية بأصول العلاقات الدولية .. سياق فارق إلى حد مذهل زمن ولاية القوى الاستعمارية الغربية على بقية خلق الله من الشعوب والدول .. هذا على حين كان بلفور قريب العهد من صناعة السياسة الدولية عملاً بتلك الولاية الموهومة، ناهيك عما كان شائعاً في ذلك الوقت من مزاعم سخيفة عن " رسالة الرجل الأبيض وتفوقه الطبيعي إزاء الآخرين ". ونحسب أن الرفض الدولي الحازم لوعده ترامب وبقية سياساته "الشرق أوسطية " ؛ والسخرية من خطابه الأيديولوجي الذي يمثل انتكاسة لأصول التعامل الحضاري بين الأمم، مقابل تبني قوى دولية متنفذة لصيغة بلفور، يجسد هذا الفارق بين زمنين وحقتين وعالمين.

مؤدى هذه الخواطر، أن سياسة إدارة ترامب تجاه نتائج حرب 1967، وضمنها الموقف من مصير الجولان، أزالته قناعات وأنتجت قناعات وأهاجت عواطف وأحانين وذكريات طال الظن بخمودها أو أفولها في الرحاب العربية والإقليمية والدولية، وأحدثت زلزلة ذات مردودات وتوابع عاجلة وأجلة .. منها علاوة على ما أشرنا إليه :

إثارة صعوبات جمة أمام قضية تطبيع الدول العربية غير ذات العلاقة الرسمية مع إسرائيل، وقد يستطرد هذا التعقيد إلى الدول المعاهدة لها. وبذلك ربما خاب ظن الكثيرين بأن النظام العربي يوشك أن يتخلى عن أولوية التسوية السياسية، لصالح الاستهلال بهذا التطبيع وذلك بالمخالفة لمبادرة السلام الاستراتيجية العربية ؛ المعروضة على الملأ منذ العام 2002.

سبق لدمشق أن فاوضت إسرائيل على الرغم من قرار الأخيرة بضم الجولان عام 1981. وكان ذلك عن قناعة بالوساطة الأميركية المنطلقة من رفض خطوة إسرائيل الأحادية، والالتزام بالقوانين والقرارات ذات الصلة. لكن هذا التصور يبدو بعيد التكرار في



ضوء مستجدات الموقف الأميركي، وميل النخب الصهيونية الحاكمة في إسرائيل للتأسيس على هذا الموقف، وصعوبة تجاوز الدور الأميركي من لدن الفواعل الدوليين المعنيين بعملية التسوية. وجماع ذلك كله دخول عملية السلام برمتها في دائرة محكمة الإغلاق .. فلا العرب بقادرين على تخطي سلبات الانحياز الأميركي المطبق لصالح إسرائيل، ولا المجتمع الدولي بقادر على ممارسة الدور الأميركي أو استبداله، ولا الولايات المتحدة، لاسيما في عهد ترامب وجماعة الجمهوريين، بوارد العودة إلى جادة القانون والشرعية الدولية الخاصة بالتسوية. ولا يبقى كمبرج من هذه الدائرة اللعينة، سوى احتمال تراجع القطب الأميركي عن غيه.. ومع أن حدوث هذه الأوبة يبدو صعبا إلا أنه ليس مستحيلا ؛ فإدارة ترامب سبق أن سحبت شراكتها في الاتفاق النووي الإيراني ؛ الذي أقرته إدارة باراك أوباما الديمقراطية. جرى التراجع هنا رغم أن هذا الاتفاق لا يمثل خطوة أحادية كالقرار الأميركي المنفرد بشأن الجولان والقدس وغيرهما من الحقوق العربية .

على الرغم من استبشار المتطرفين الصهاينة بالخطوة الأميركية، وطمعهم في اعتراف أميركي مماثل بسياسات ضم أراض فلسطينية، وبخاصة في غور الأردن والمناطق غير المأهولة نسبيا في الضفة، إلا أن إسرائيليين آخرين يحذرون من انزلاق دولتهم بعيدا عن حل الدولتين باتجاه حل الدولة الواحدة ؛ سواء تم ذلك بصيغة الدولة ثنائية القومية أو دولة كل مواطنيها. وفي ظل إقرار ما يعرف بـ "قانون القومية اليهودية"، سوف تصبح إسرائيل على تماس مباشر مع صيغة الأبارتيد الممقوتة والمدانة في جهات الدنيا الأربع .

دق القرار الأميركي مسمارا كبيرا في نعش عملية السلام العربية الإسرائيلية، ويكاد يشكل عاملا أساسيا في ديمومة وضعية الحرب على واحدة من أخطر الجبهات. ولا مبالغة في الاعتقاد بأن مواقف كل من سوريا وحزب الله اللبناني وحركة حماس الفلسطينية، وسواهم ممن يوصفون جدلا بمحور الممانعة، قد تتال مصداقية أكبر في الرحاب الإقليمية. وربما تمكنت طهران من إقناع دمشق في الحصول على موطن قدم



لقواتها في سوريا، أو حتى بشن الحرب لتحرير الجولان. وبوجه عام أكسب القرار خطاب الصراع والمقاومة المسلحة طاقة قوية في البيئة الإقليمية، مقابل إضعاف خطاب السلام والتسوية الذي ساد خلال أكثر من ربع قرن. يتصل بهذه الملاحظة، إصابة أنصار التسوية والاعتدال العرب بشيء كثير من الإحباط إزاء الشريك الأميركي ؛ الذي يمارس دور العراب الآثم لصالح إسرائيل، و يبارك استيلاءها على أرض عربية احتلتها بالقوة العارية .. الأمر الذي لا يمكن تبريره بالمطلق.

سوف يشجع القرار أنصار الاستيطان وقطعان المستوطنين في إسرائيل، على توسيع أنشطتهم في الهضبة السورية وسواها من الأرض المحتلة في الضفة الفلسطينية.. إذ سيقنع هؤلاء أكثر فأكثر من اقتراب حلمهم بالاستقرار " الأبدى " في هذه المساحات. هذا مع العلم بأن خمسين عاما وزيادة من احتلال الجولان لم تؤد إلى تدفق المستوطنين إلى هناك، رغم توفر المنطقة على طبيعة خلابة وموقع استراتيجي متميز وفرص اقتصادية مغرية ودعم حكومي دائم .. حتى أن عددهم هناك لا يزيد عن 18 ألف نسمة ينتشرون في 32 مستوطنة.

تطورات الأزمة الليبية



سامح راشد
عصام عاشور

- مآلات الأزمة الليبية بين الحرب والسياسة
- ليبيا ... ملف مفتوح



مآلات الأزمة الليبية بين الحرب والسياسة

سامح راشد

باحث بمؤسسة الأهرام - مصر

تمر ليبيا بمرحلة هي الأكثر أهمية وخطورة منذ تفجر الأوضاع هناك قبل تسعة أعوام. على خلفية العملية العسكرية التي بدأتها قوات "الجيش الوطني الليبي" بقيادة خليفة حفتر في 4 أبريل 2019، بهدف دخول مدينة طرابلس وإنهاء سيطرة حكومة الوفاق على المدينة ومجمل مناطق الغرب الليبي.

وهو ما يتطلب التعرف على ملامح الوضع الراهن بمساريه (السياسي والعسكري)، وتحليل مواقف وحسابات الأطراف المعنية بالملف الليبي. ومن ثم، استخلاص النتائج المباشرة، والمآلات المنتظرة للأزمة الليبية، على وقع السباق بين الحرب والسياسة..

أولاً: تطورات الأزمة الليبية:

منذ سقوط القذافي، لا سلطة مركزية تملك السيادة على الأراضي الليبية، وتعاني الدولة حالة انقسام رأسي وأفقي. رأسياً بوجود أكثر من كيان مؤسسي، خصوصاً البرلمان في الشرق والحكومة في الغرب. حيث يتنازعان الشرعية وتمثيل الشعب الليبي⁽¹⁾، ويتنافسان على استجلاب دعم الأطراف الخارجية، خصوصاً القوى الكبرى في العالم.

(1) ليبيا: بين صراع "الشرعيات" ومخاوف الجوار، دوتش فيلا "موقع الإذاعة والتلفزة الألمانية"، 25 أغسطس

<https://p.dw.com/p/1D10r> .2014



أفقيًا، يسيطر كل من تلك الكيانات والقوى السياسية والاجتماعية على مساحة جغرافية معينة. مع وجود مساحات خارجة عن السيطرة كليًا وخاضعة لسطوة جماعات قبلية⁽²⁾ أو ميليشيات متفرقة⁽³⁾.

في ظل هذا الوضع المعلق، جرت محاولات متتالية للتوصل إلى تسوية سياسية وتوافق على نظام سياسي يعبر عن خصائص ومكونات الشعب الليبي. وكان لمبعوثي الأمم المتحدة النصيب الأكبر في تلك المحاولات. كما بُذلت جهود إقليمية موازية لنفس الغرض. غير أن تلك المحاولات تعثرت لعدة أسباب، أهمها التحركات السلبية لأطراف خارجية، استغلت ضعف وتشتت القوى الداخلية.

ويمكن إيجاز هذا الوضع الليبي المستمر منذ عدة أعوام، بأنه مشهد "فراغ القوة وازدواج السلطة". إذ لا توجد سلطة سياسية واحدة متفق عليها تحظى بشرعية طوعية كاملة، ولا قوة قاهرة تملك بسطوتها إجبار القوى الأخرى على الانصياع لها. ثم جاءت حملة خليفة حفتر على طرابلس، لتغير ملامح المشهد وتغير مسار الأزمة برمتها.

1 - الوضع الميداني:

ازدادت أهمية الوضع الميداني في ليبيا خلال السنوات الأخيرة، تحديدًا بعد انقسام مؤسسات السلطة السياسية بين البرلمان في الشرق (طبرق) والحكومة في الغرب

(2) رصد الخريطة الكاملة لقبائل ليبيا ومواقفها من معركة طرابلس، وكالة "سبوتنيك" الروسية للأنباء، 9 مايو 2019.

<https://sptnkne.ws/mwQk>

(3) حول طبيعة خارطة السيطرة الميدانية ومناطق النفوذ بين الجماعات المسلحة والقوى العسكرية بعد عامين من سقوط القذافي، انظر:

خارطة القوى المتصارعة في ليبيا، بوابة إفريقيا الإخبارية، 17 يوليو 2014.
<https://www.afrigatenews.net/a/22078>



(طرابلس). وتبلور أوزان نسبية واضحة للقوى الداخلية واتجاهات محددة للأطراف الخارجية الداعمة لكل منها. وهو ما أفسح مجاًلاً أوسع للقوة المسلحة في التأثير على المعادلة الليبية ككل⁽⁴⁾.

أ- قبل عملية حفتر:

من النتائج المهمة التي ترتبت على الانقسام السياسي وفراغ القوة الحاصل في ليبيا منذ 2011، أن السلطة السياسية التي تحظى بشرعية دولية، وهي حكومة الوفاق الوطني في طرابلس، ظلت سلطة سياسية بلا ذراع عسكري. حيث افتقدت ليبيا وجود جيش نظامي موحد وموَالٍ للسلطة السياسية المعترف بها ويخضع لها بشكل كامل. بينما تعددت الميليشيات المسلحة والقوى الأمنية الجهوية، من الشرق في طبرق وبنغازي، إلى الغرب في طرابلس والزاوية مروراً بمصراتة والزناتان. فضلاً عن سبها وإقليم فزان ككل في الجنوب. وهكذا صارت ليبيا ممزقة بين عدة قوى وجماعات مسلحة، ولم يعد الوضع الميداني يقتصر على فراغ القوة بالمعنى المركزي للقوة المسلحة النظامية، بل صارت ليبيا تعاني تعدداً في مراكز القوة، وتشتتاً عسكرياً يتنافى مع مفهوم ومقومات الدولة الموحدة ذات السيادة. وهو ما سمح بثغرات نفذت من خلالها عناصر تتبنى العنف والإرهاب تحت شعار "الجهاد" تارة، أو إقامة "خلافة الدولة الإسلامية" تارة أخرى⁽⁵⁾.

وكرد فعل على تلك الحالة، ظهر فاعل ميداني جديد، هو اللواء العسكري المتقاعد خليفة حفتر⁽⁶⁾. الذي برز في المشهد بقوة عام 2014، وقام بتجميع أعداد من

(4) حول الخارطة الحالية القوى المسلحة المتصارعة في ليبيا، انظر: أبرز القوى المسلحة المتصارعة على النفوذ في المشهد الليبي، دوتش فيلا "موقع الإذاعة والتلفزة الألمانية"، 5 أبريل 2019.

(5) الحل السياسي يحتضر في ليبيا مع تمدد "داعش" وصعود حفتر، 27 فبراير 2015.

(6) خليفة حفتر سيرة ذاتية ومهنية مثيرة للاهتمام، كان قريباً من القذافي وقائداً للقوات الليبية في تشاد. وبعد أسره هناك عام 1987 تخلى القذافي عنه فأعلن انشقاقه وأخرجته مروحيات أمريكية من تشاد إلى الولايات المتحدة



العسكريين السابقين، كوّن بهم قوة عسكرية جديدة أضيفت إلى مراكز القوة التي تنتازع السيطرة الميدانية على الأرض. وفي العامين الأخيرين (2017 - 2019) تنامي الوزن النسبي لقوة حفتر، وفرضت وجودها على الساحة الليبية كرقم أساسي في المعادلة العسكرية، ومن ثم السياسية. خصوصا بعد أن تبنى برلمان طبرق هذه القوة الجديدة واعتبرها الذراع العسكري الرسمي (الجيش النظامي) للدولة الليبية. ووجدت هذه القوة ترحيبا ودعما إقليميا وخارجيا بأشكال متعددة. مما ساعد قوات حفتر على تحقيق انتصارات عسكرية متتالية، كان أهمها السيطرة على مدينة بنغازي.

وهكذا، اتسمت الخارطة الميدانية لليبيا قبل 4 أبريل الماضي، باقتسام واضح وصريح للنفوذ ومناطق السيطرة. حيث يسيطر خليفة حفتر على الشرق. بينما تنتشر عدة ميليشيات مسلحة على امتداد المناطق المحاذية لساحل المتوسط من الوسط وحتى الحدود الليبية التونسية. تخضع بعض تلك الميليشيات لإمرة السلطة السياسية في طرابلس، فيما يحتفظ بعضها الآخر باستقلالية في التنظيم والحركة. وتتنوع أسس تشكيل ونشأة تلك الميليشيات، وأحيانا تتداخل، بين المقومات الاجتماعية (القبلية) والأيدولوجية (الإسلامية).

ب- بعد هجوم حفتر:

وبقي عشرين عاما، قبل أن يعود إلى ليبيا عام 2011. له كتاب واحد صدر عام 1995 بعنوان: "رؤية سياسية لمسار التغيير بالقوة".

لمزيد من التفاصيل: خليفة حفتر: القائد العسكري القوي في ليبيا، بي بي سي، 6 أبريل 2019.

<http://www.bbc.com/arabic/middleeast-40520755>

ولبعض المعلومات غير المتداولة عن حفتر، انظر: 10 حقائق قد لا تعرفها عن المشير حفتر، أصوات مغاربية، 4 أبريل 2019.

<https://www.maghrebvoices.com/a/ten-facts-about-haftar/354016.html>



تغيرت الأوضاع الجيوستراتيجية، وبالتالي موازين القوة، بعد أسابيع قليلة من بدء العملية الهجومية التي قام بها "الجيش الوطني الليبي" على طرابلس ومدن الغرب. حيث وصلت قوات خليفة حفتر إلى طرابلس، بعد أن سيطرت في طريقها على عدة مدن ونقاط استراتيجية محيطة بها. فضلاً عن مدن ومناطق الشريط الساحلي الموازي للبحر المتوسط الممتد من الشرق إلى الغرب بطول حوالي 1000 كيلومتر. ورغم أن قوات حكومة الوفاق والمليشيات التي هبت إلى دعمها من مصراتة والزواية وغيرها، نجحت في استرداد مدن ومحاور استراتيجية مهمة، إلا أن الموقف العسكري في محاور القتال لم يترد إلى ما كان عليه قبل بداية العملية في 4 أبريل الماضي⁽⁷⁾.

2- المسار السياسي:

حتى الرابع من أبريل الماضي، كان المسار السياسي في ليبيا يتسم بدرجة عالية من الوضوح. كانت هناك خارطة طريق تشمل استحقاقات سياسية محددة مثل إجراء انتخابات وتشكيل مؤسسات سياسية جديدة وفق أسس وقواعد تضمنها اتفاق "الصخيرات". الذي شاركت في بلورته معظم القوى والأطراف الداخلية في ليبيا.

وكما اتسم هذا المسار السياسي بالوضوح، اقترن أيضاً بالنسبية. فقد حظي بقبول ومشاركة "معظم" وليس "كل" القوى الليبية. فارتعن تفعيل الاتفاق وتنفيذ بنوده بميزان القوة القائم بين أطرافه، والقوى الأخرى المتحفظة عليه. وقبل أسبوعين فقط من بدء الهجوم على طرابلس، التقى خليفة حفتر وفائز السراج رئيس حكومة الوفاق في العاصمة الإماراتية أبو ظبي، وبدأت بعد اللقاء إشارات إيجابية لجهة التوصل إلى أرضية مشتركة حول أسس العملية السياسية، وإيجاد تفاهات لتجسير الفجوة بين الطرفين.

(7) حول التسلسل الزمني للعملية وتطوراتها حتى نهاية مايو، انظر:

<https://www.babnet.net/festivaldetail-181698.asp>



في خط موازٍ، كانت البعثة الأممية تستعد لعقد مؤتمر يضم الغالبية العظمى من القوى الليبية، بما فيها بعض القوى التي لم تكن طرفاً في اتفاق الصخيرات. وكان يفترض أن ينعقد المؤتمر تحت عنوان "الملتقى الوطني الجامع" في منتصف أبريل الماضي. غير أن العمليات العسكرية التي بدأت في 4 أبريل (قبل موعد انعقاده بأيام) حالت دون عقد المؤتمر، وفرضت واقعا جديدا.

من جانبها، أعلنت حكومة طرابلس وقف كل أشكال التواصل والحوار مع خليفة حفتر. وبعد أربعة أسابيع من استمرار العمليات الهجومية على طرابلس، طالب فائز السراج المكونات الاجتماعية في شرق ليبيا، بترشيح ممثلين سياسيين آخرين، بدلاً من خليفة حفتر.

ومع استمرار العمليات العسكرية لأكثر من شهرين، دون أفق واضح للحسم في أي اتجاه. بدأ الطرفان حركة دبلوماسية نشطة في اتجاه الأطراف الخارجية القادرة على التدخل وتغيير مسار الأزمة. ففي أسبوعين متتاليين، قام كل من فائز السراج وخليفة حفتر بجولة خارجية شملت عواصم إقليمية وعالمية. وبدا واضحا أن الهدف من الجولتين وتتابعهما زمنيا، هو محاولة كلا الطرفين الاستقواء بالحلفاء واستمالة الخصوم أو تحييدهم. لتأمين مواقف وتحركات سياسية داعمة. سواء لحفتر، بمباركة الهجوم على طرابلس ومنحه غطاء سياسيا. أو للسراج، بإدانة عملية حفتر العسكرية ودفعه إلى التراجع والعودة إلى مرحلة ما قبل 4 أبريل.

وكانت نتيجة الجولتين، شبه إجماع بين مختلف الدول التي استقبلت الرجلين، على ضرورة وقف القتال والدخول في حوار وتفاوض سياسي⁽⁸⁾. أي استجابة منقوصة لمطالب الجانبين، استنادا إلى الوضع الجديد على الأرض.

(8) هل فشلت الجولة الأوروبية لفائز السراج؟، موقع "أخبار ليبيا"، 9 مايو 2019.

<https://www.akhbarlibya.net/arabic-news/1516341.html>



ثانياً: مواقف وتحالفات الأطراف:

شأن كل أزمة أو مشكلة في منطقة الشرق الأوسط، تتداخل مصالح وأهداف وسياسات أطرافها بين المستويات الثلاث (الداخلي، الإقليمي، العالمي)، على النحو التالي:

1- مجموعة غرب ليبيا (طرابلس وحلفاؤها):

مركزها طرابلس، وتضم من الداخل الليبي كيانات مؤسسية معترف بها داخليا وخارجيا. تبدأ بالمؤتمر الوطني، ومجلس رئاسة الدولة، وحكومة الوفاق الوطني التي يترأسها حاليا فائز السراج. كما تضم مجموعات مسلحة وميليشيات بعضها تابع مباشرة لتلك السلطة السياسية، وبعضها الآخر موالٍ لها، وإن لم يكن جزءا من التشكيلات المسلحة الرسمية التابعة لها. وفضلاً عن الشرعية التي تحظى بها الحكومة، تتمتع أيضا بعلاقات قوية ومميزة تصل إلى حد الدعم المباشر من جانب بعض الدول الإقليمية⁽⁹⁾. وقد أعلنت تركيا دعم السلطة السياسية في طرابلس بشتى الوسائل في مواجهة هجوم حفتر⁽¹⁰⁾. وخارج الإقليم، سارعت إيطاليا إلى رفض عملية حفتر العسكرية بعد أيام قليلة من بدايتها. ولم تقف روما عند إعلان رفضها العملية ذاتها، بل وجهت انتقادات علنية لدول أوروبية دعمت تلك العملية، في إشارة إلى فرنسا خصوصا.

(9) يوجه حفتر اتهامات لقطر وتركيا، بتقديم الدعم بأشكال متعددة ليس فقط لحكومة طرابلس، لكن أيضا لجماعات وميليشيات مسلحة في غرب ليبيا. ومن أحدث التقارير في هذا الخصوص، انظر: <https://bit.ly/2EbgoZx>

(10) تركيا ودعم حكومة الوفاق.. هل تتغير موازين القوى في ليبيا؟، دوتش فيلا "موقع الإذاعة والتلفزة الألمانية"، 30 أبريل 2019.

<https://p.dw.com/p/3HhZi>



غير أن الموقف الإيطالي المبدئي، لم يحل دون استقبال حفتر رسمياً ولقائه برئيس الوزراء الإيطالي. كما لم تغلق روما الباب أمام وجود حفتر طرفاً في المسار السياسي مستقبلاً، بل والتنسيق مع باريس في استعادة هذا المسار والعمل على إنهاء عسكرة الملف الليبي⁽¹¹⁾.

2- مجموعة شرق ليبيا (طبرق):

تضم من الداخل البرلمان الليبي، وهو المؤسسة السياسية. كما أن لها ذراعاً عسكرياً يتمثل في القوة المسلحة التي يقودها خليفة حفتر وتحمل اسم "الجيش الوطني الليبي". والذي يسيطر فعلياً على معظم مناطق الشرق الليبي، واستطاع في الأشهر الأولى من عام 2019 مد نفوذه إلى بعض مناطق الجنوب، بتفاهات وتوافقات قبلية أحياناً⁽¹²⁾، وبمواجهات مسلحة أحياناً أخرى⁽¹³⁾. وبعد أن بزغ نجم حفتر على الساحة الليبية عام 2014 كقائد عسكري لقوة مسلحة متماسكة ومنظمة، تحول خلال السنوات الست الماضية إلى رقم أساسي وصعب في حسابات الأزمة الليبية. وانعكست القوة العسكرية التي يتمتع بها في دور سياسي يتجاوز المؤسسة السياسية التي نشأ تحت مظلتها وهي البرلمان. ويتمتع حفتر بدعم وتأييد بعض الدول الإقليمية، مثل مصر

(11) روما تعود من باب "الدبلوماسية" لكسب ود حفتر، ميدل إيست أونلاين، 16 مايو 2019.
<https://bit.ly/30zUTv6>

11 <https://www.al-monitor.com/pulse/originals/2019/03/libya-hifter-lna-south-operation-elections-sarraj.html>

(12) <https://www.al-monitor.com/pulse/originals/2019/03/libya-hifter-lna-south-operation-elections-sarraj.html>

(13) حفتر يطلق حملة عسكرية لـ"تطهير" الجنوب الليبي من الإرهابيين، جريدة "الاتحاد" الإماراتية، 17 يناير 2019.

<https://bit.ly/2WcbF3S>



والإمارات والسعودية، إذ تعتبر أنه يقوم بمحاربة "الإرهاب"، وترى في القوة المسلحة التابعة له تجسيدا لجيش ليبي وطني.. ومن نفس المنظور، يحظى حفتر بقبول وتأيد دول كبرى، وصل إلى حد دعم بعضها لحملته العسكرية على طرابلس. فبعد أيام من بدء زحف قوات حفتر نحو غرب ليبيا، جمعته مكالمة هاتفية بالرئيس الأمريكي دونالد ترامب، أيد الأخير خلالها ما وصفه بجهود حفتر في "محاربة الإرهاب". جاءت الخطوة الأمريكية مناقضة لمواقف رسمية سابقة، حيث كانت الإدارة الأمريكية تؤيد سلطة طرابلس وتعتبرها شريكا في محاربة الإرهاب ومواجهة تنظيم الدولة الإسلامية "داعش". دول أخرى، مثل فرنسا وبريطانيا، تراوحت مواقفها بين الحياد الغامض والتأييد الصريح لأحد الأطراف. خصوصا بالنسبة لباريس، حيث واجهت اتهامات مباشرة من جانب طرابلس، بدعم حملة حفتر العسكرية. ما دفع الحكومة الفرنسية إلى محاولة تبرير موقفها ونفي الانحياز لأي جانب. غير أن باريس قررت لاحقا الكشف رسميا عن دعمها لحفتر. فقد وصف جان إيف لودريان، وزير الخارجية الفرنسي، خليفة حفتر بأنه مقاتل ضد الإرهاب، وهو ما يصبّ "في مصلحة باريس وجيران ليبيا، وبلدان الساحل". واعتبر لودريان أن انخراط بلاده في الملف الليبي يدخل في إطار مكافحة الإرهاب، والحرص على تجنب "انتقال العدوى" إلى الدول المجاورة⁽¹⁴⁾. غير أن الخطوة الأهم من جانب باريس، تجسدت في استقبال الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون لحفتر، قبل نهاية شهر مايو الماضي. بعد أسبوع واحد من لقاء مماثل جمع ماكرون بفائز السراج رئيس حكومة الوفاق الليبية. وبذلك، فإن باريس توازن بين الاعتراف بحكومة الوفاق في طرابلس بصفتها السلطة السياسية المعترف بها، ودعم خليفة حفتر كقائد عسكري لجيش شبه نظامي، تراهن عليه باريس في ضبط الوضع الأمني ومواجهة مخاطر تواجد جماعات إسلامية مسلحة في ليبيا.

(14) باريس: نتحمل جزءا من المسؤولية في أزمة ليبيا ولا ننحاز لحفتر، موقع "روسيا اليوم"، 3 مايو 2019.



3- أطراف شبه محايدة:

تتمثل هذه المجموعة بشكل أساسي في معظم مكونات وقبائل الجنوب داخل ليبيا. ومن خارج ليبيا مثل الجزائر وتونس في الجوار المباشر، وبعض الدول الأوروبية مثل ألمانيا⁽¹⁵⁾، إضافة إلى المنظمات الإقليمية والدولية. ويتلخص موقف تلك المجموعة في الحرص على عدم انزلاق ليبيا إلى حالة الفوضى الشاملة، أو الخضوع إلى سيطرة بعض القوى والمكونات السياسية والمجتمعية وإقصاء أخرى. لذا، تحتفظ تلك المجموعة من الدول بعلاقات متوازنة مع كل أطراف الملف الليبي، سواء المتحاربة حالياً داخل ليبيا، أو الدول الخارجية متعارضة المصالح. أما موقف المنظمات الدولية والإقليمية، فأكثر وضوحاً ومباشرة في تغليب هدف الاستقرار في ليبيا على أي مصالح أو حسابات ضيقة سواء الخاصة بدول معينة، أو بأطراف ليبية داخلية. فكان موقف الاتحاد الأوروبي واضحاً في إدانة العملية العسكرية التي قام بها خليفة حفتر. وإن اكتفى البيان بالدعوة إلى وقف إطلاق النار، دون المطالبة بعودة قوات حفتر إلى مواقعها السابقة كما كانت تطالب حكومة طرابلس. وفي الأمم المتحدة، اجتمع مجلس الأمن الدولي بعد أسبوعين من بدء عملية حفتر، لكن منعت روسيا والولايات المتحدة صدور قرار يدعو إلى هدنة⁽¹⁶⁾.

بتحليل تلك المواقف وتركيبية التحالفات المعنية بالملف الليبي، يمكن استخلاص أن أول الدوافع والمحركات الحاكمة لها، يتمثل في الهاجس الأمني لدى بعض دول الجوار ومعظم القوى الخارجية. تحديداً، الخشية من تواجد التنظيمات الإسلامية (سواء السياسية

(15) ليبيا . مثال آخر على تذبذب السياسة الخارجية الألمانية، دوتش فيلا "موقع الإذاعة والتلفزة الألمانية"، 26 أبريل 2019.

<https://p.dw.com/p/3HVAX>

[https://ara.reuters.com/article/topNews/idARAKCN1RV01R\(16\)](https://ara.reuters.com/article/topNews/idARAKCN1RV01R(16))



أو المسلحة) في ليبيا، فضلاً عما يشكله وجود نظام حكم إسلامي من تهديد مباشر لها. وضمن الهاجس الأمني أيضاً، تأتي المخاوف من حدوث فوضى شاملة أو حرب أهلية، ستعكس بدورها في زيادة معدلات الهجرة غير الشرعية عبر المتوسط شمالاً إلى أوروبا.

المحرك الثاني اقتصادي بامتياز، حيث تمثل موارد ليبيا النفطية مطمعا لدول إقليمية وخارجية. فالاختلاف الفرنسي الإيطالي، هو في أحد جوانبه، تنافس بين شركتي النفط "توتال" الفرنسية و"إيني" الإيطالية⁽¹⁷⁾. وينعكس هذا السباق الاقتصادي على النفط، في تنازع على النفوذ السياسي والتأثير في المسارين السياسي والميداني داخل ليبيا، مباشرة أو عبر وكلاء⁽¹⁸⁾. وهذا التنازع قائم منذ سقوط القذافي.

داخل ليبيا، تنقسم الدوافع بين أيديولوجية ونفسية. تتمثل الأولى في المرجعية الدينية لدى الجماعات الإسلامية سواء السياسية أو الحركية. وتتجلى الثانية في الطموح الشخصي لخليفة حفتر، الذي يتجاوز سقف قيادة جيش ليبيا، ربما إلى اعتلاء قمة الحكم في ليبيا.

ثالثاً: نتائج ومآلات:

أحدثت التطورات الجديدة على الساحة الليبية تحولاً مهماً في معادلات الأزمة وتفاعلاتها. يمكن إيجاز أبرز ملامحه فيما يلي:

- ليس جديداً أن المسار السياسي الذي كان يُفترض استمراره خلال العام الجاري (2019) لم يكن مقبولاً من جانب بعض الأطراف، تحديداً المجموعة الأولى

(17) سبيلين جريزي، تضارب المصالح النفطية بين فرنسا وإيطاليا في ليبيا، الميادين نت، 29 أبريل 2019.

<https://bit.ly/30BOX4r>

(18) لماذا تهتم فرنسا وإيطاليا بليبيا؟، عربي بوست، 27 أبريل 2019.

<https://bit.ly/2wlyy6F>



المكونة من خليفة حفتر والمعسكر الداعم له داخل وخارج ليبيا. الجديد الذي حملته مستجدات الأزمة الليبية خلال الأشهر القليلة الماضية، أنها كشفت عن انتقال ذلك الرفض من مربع المواقف السياسية والتعاطي الدبلوماسي المرن، إلى نطاق الخطوات العملية في أقوى صورها، التحرك العسكري. فلو لم يشن حفتر حملته العسكرية، لانعقد "الملتقى الوطني الجامع" الذي كان يُعتقد أنه مدخل لتلافي ثغرات اتفاق الصخيرات، والشروع في تسوية سياسية محل إجماع أو على الأقل توافق من معظم القوى والمكونات الاجتماعية الليبية، في مناطق الغرب والجنوب الليبي، وربما بعض مكونات الشرق.

وسواء نجح حفتر في دخول طرابلس والقضاء على السلطة السياسية القائمة فيها، أو ظلت طرابلس محاصرة دون نصر أو هزيمة لأي طرف، فقد تم بالفعل تعليق المسار السياسي وتأجيل الاستحقاقات المرتبطة به. وبعد أن كانت الجهود الأممية تتركز في محاولة تأمين توافق بين مختلف القوى الداخلية وتلافي بعض التحفظات على اتفاق الصخيرات، والانتقال إلى مرحلة إجراء انتخابات وتشكيل مؤسسات سياسية وأجهزة للسلطة تحظى بإجماع أو على الأقل توافق عام، انعكس هذا المسار السياسي ولم يعد عمليا التفكير في أي استحقاقات مستقبلية في ظل حرب جارية وأوضاع ميدانية غير مرشحة للثبات في المدى القريب.

- بعد أن كانت الحلول والتسويات، سواء التي بدأ تطبيقها بالفعل أو المقترحة، مثار تحفظ وانتقاد بعض الأطراف الداخلية والخارجية⁽¹⁹⁾. فإن توقف المسار

(19) حول تطور المسار السياسي منذ 2011 وتعثراته حتى ما بعد اتفاق الصخيرات، انظر:

د. أحمد موسى بدوي، مخاطر تفكيك الدولة: ليبيا بين إرهابات التحول الديمقراطي، المركز العربي للبحوث والدراسات، 14 يناير 2016.

<http://www.acrseg.org/39813>



السياسي وتغير المعادلات التي استندت إليها تلك الحلول، من شأنه أن يُنشئ موقفا سلبيا لدى الأطراف المتضررة من الوضع الجديد، أي السلطة السياسية القائمة في طرابلس والجماعات المسلحة التابعة لها أو الموالية، إضافة إلى الأطراف الإقليمية والدولية الداعمة لها من الخارج. وسيتربط على ذلك استمرار الرفض والتمنع إزاء الحلول السياسية، مع تبادل المواقع بين الأطراف. فبعد أن كان حفتر هو الذي يرفض الانضمام إلى المسار السياسي ولا يقبل الانضواء تحت مظلة السلطة السياسية في طرابلس. انتقل الرفض إلى طرابلس، وأعلن فائز السراج وكبار المسؤولين في حكومة طرابلس، أن العملية العسكرية التي قام بها حفتر واستهداف قواته مدينة طرابلس وضواحيها، قد قطعت الطريق على أي حوار معه.

وفي هكذا وضع، لا ضمانات بأن الأوضاع الميدانية ستظل قابلة للتحكم والاستدراك. إذ لا يوجد ما يمنع اتساع نطاق العمليات العسكرية وارتفاع حدة الصراع المسلح، إلى درجة تصعب معها العودة إلى الحل السياسي. وكان المبعوث الأممي غسان سلامة صريحا ومباشرا في ذلك، عندما حذر بعد شهرين من بدء عملية حفتر، من انزلاق ليبيا إلى حرب أهلية مدمرة قد تُقضي إلى تقسيمها⁽²⁰⁾.

- من المتوقع، أن تشهد المنظومة الداخلية للسلطة السياسية في طرابلس، تغييرات سلبية وربما انقسامات داخلها. فقد نجم عن الأزمة إضعاف دور ومكانة فائز السراج، لأسباب متعددة أهمها ضعف إدارة الأزمة من جانبه، سواء لبطء الاستجابة وعدم استباق هجوم حفتر خلال فترة التحضير للعملية ثم الزحف من الشرق إلى الغرب لمسافة طويلة. أو لافتقاده الحلول والتصورات والبدائل

(20) مبعوث الأمم المتحدة: يجب وقف الدول التي تغذي الصراع في ليبيا بالسلاح، رويترز، 21 مايو 2019.

<https://ara.reuters.com/article/topNews/idARAKCN1SR1ZV>



الممكنة والمطلوبة، عند طرح موقف طرابلس على القوى الكبرى التي تواصل معها السراج. فبدا ضعيفا كرجل دولة، ولا يملك حلولاً أو أفكاراً لتقديمها كقائد في حالة حرب⁽²¹⁾. وفي المقابل، تعاضم دور فتحي باشاغا وزير الداخلية الذي تولى أيضا وزارة الدفاع مع انطلاق عملية حفتر ضد طرابلس.

وأيا كان ما ستؤول إليه العمليات العسكرية على الأرض، فإن التركيبة السياسية والمؤسسية لحكومة الوفاق ستشهد تغيرات مهمة، هذا إن بقيت السلطة في طرابلس قائمة. وهو ما سينعكس بدوره على إمكانية استئناف الحوار وتفعيل المسار السياسي للملف الليبي مجددا، حيث سيخضع الأمر لتوجهات المجموعة التي ستهيمن على القرار في طرابلس لاحقا.

- من المرجح أن تعود الأطراف إلى مائدة التفاوض، لكن بفعل تغير موازين القوى على الأرض، ستتطلب أي عملية سياسية جديدة من أسس مختلفة وبشروط مغايرة تراعي اختلاف الأوزان النسبية للأطراف الليبية. وذلك سواء استمر وجود قوات حفتر على مشارف طرابلس، أو تمكنت قوات حكومة الوفاق من استعادة السيطرة الكاملة على طرابلس وضواحيها وأبعدت قوات حفتر عنها، سيبقى الملمح الأساس للمشهد أن نفوذ حفتر وتواجده العسكري قد امتد من المنطقة الشرقية إلى اختراق المنطقة الغربية حتى طرابلس، إضافة إلى بعض المناطق في الجنوب. بما يعني تغير ميزان القوة العسكرية على الأرض لصالحه، وبالتالي اكتسب حفتر بالفعل موقفا تفاوضيا أقوى يتيح له رفع سقف مطالبه السياسية. أو بالأحرى تعظيم "حصته" في أي صيغة مستقبلية للحكم.
- حال دخول حفتر إلى طرابلس، فلا مجال لأي حوار، حيث سينتهي دور بل وتواجد السلطة السياسية القائمة الممثلة في حكومة الوفاق. ويمكن الخطورة في

(21) طارق المجريسي، التأقلم مع ليبيا الجديدة، مؤسسة كارنيجي، 2 مايو 2019.

<https://carnegieendowment.org/sada/79049>



هذا الاحتمال، أن المآخذ الجوهري على المسار السياسي السابق، كان عدم استيعاب كل المكونات الليبية وتأمين قبول القوى الخارجية خصوصا الإقليمية. وهو الوضع ذاته الذي سينجم عن استيلاء حفتر على طرابلس واستنثاره بالسلطة، حيث سيعني ذلك إخضاع كل المكونات الليبية الأخرى لسلطة حفتر وحلفائه من شرق ليبيا، وربما إقصاء بعضها كلية. الأمر الذي سيعيد إنتاج الانقسام السياسي، وبالتبعية صراعات مسلحة تستنزف قوة وسيادة الدولة الليبية.

- ترتب أيضا على المستجدات الأخيرة، تبلور وانكشاف المواقف الخارجية، سواء الإقليمية أو العالمية. فحتى ما قبل عملية حفتر الهجومية ضد طرابلس، كانت بعض المواقف الإقليمية والدولية غير واضحة، وتجاري ولو ظاهريا، المساعي الرامية إلى تسوية وحلول سياسية. غير أن العمل العسكري على الأرض واستمرار العمليات لعدة أسابيع دون حسم سريع، جعل سلوك بعض الأطراف كاشفا لمواقفها الحقيقية. وبالتالي صارت تلك الأطراف تتحمل مسؤولية مواقفها ليس فقط أمام الليبيين، لكن أيضا أمام المجتمع الدولي والقوى الكبرى في العالم. خصوصا في ظل معاناة المدنيين من العمليات العسكرية، والأضرار المادية والبشرية الكبيرة المترتبة على استمرار العمليات العسكرية في مناطق آهلة بالسكان أو في تخومها. وتتضح أهمية هذا الانكشاف بالنظر إلى حالات محددة، منها فرنسا، التي تعرضت إلى اتهامات مباشرة وصريحة من حكومة الوفاق الليبية ومن دول أوروبية، بتقديم دعم مباشر وغطاء سياسي لخطوات حفتر العسكرية. وارتباك باريس بين تعديل موقفها خصوصا على مستوى الخطاب الرسمي، والتمسك بضرورة وجود حفتر وقواته كرقم مهم في المعادلة. وينطبق الأمر ذاته على الولايات المتحدة الأمريكية، وبدرجة أقل على بريطانيا. وعلى الجانب الآخر، فإن العمليات العسكرية ضد طرابلس دفعت أنقرة إلى التخلي عن الدبلوماسية في التعاطي مع الملف الليبي، وتأكيد موقفها المساند بمختلف الأشكال إلى مجموعة الغرب وحكومة طرابلس.



ورغم أن مواقف الدول الأجنبية لم تكن خافية بشكل كامل، وكذلك تدخلاتها بل ووجودها العسكري على الأراضي الليبية، إلا أن إعلان المواقف أو انكشافها، يفرض أعباءً وقيوداً على تلك الدول، خصوصاً الأوروبية منها. فمثلاً، تسبب الموقف الفرنسي في حرج بالغ لحكومة ماكرون على المستوى الأوروبي، واستغللتها أطراف أخرى مثل موسكو لتأجيج الانقسام الأوروبي حول ليبيا⁽²²⁾. خاصة أن الاتهامات بتأييد عملية حفتر لم تقتصر على سلطات طرابلس، بل صدرت أيضاً وبشكل شبه صريح من دول أوروبية في مقدمتها إيطاليا. كما أن انكشاف مواقف الدول المنحازة لأي من طرفي الصراع داخل ليبيا، سيحد كثيراً من قدرة تلك الدول في الملف الليبي على لعب دور سياسي في أي مسار تفاوضي لإنهاء الأزمة الليبية. وستعاني علاقات ليبيا الخارجية مع تلك الدول من أزمة ثقة، لفترة قد تطول.

(22) المصدر السابق



ليبيا - ملف مفتوح

عصام عاشور

كاتب وباحث مصري - مصر

أولاً: بداية الأزمة وخلفياتها

بدأت الأحداث الليبية في 17 فبراير 2011، وهي الأحداث التي عُرفت بما سمي بالربيع العربي والتي تطورت بسرعة إلى تصعيد عسكري ومواجهات مسلحة بين فصائل مختلفة، وكانت هذه الأحداث تتميز عن غيرها من الأحداث التي سبقتها في كل من جارتى ليبيا تونس ومصر، وذلك لاختلاف الطبيعة المؤسسية والبنوية للدولة الليبية، فلم تكن في ليبيا مؤسسات بالمعنى المعروف حتى أن المؤسسة العسكرية لم تعرفها ليبيا بالشكل المتعارف عليه في الدول، ناهيك عن عدم وجود تنظيمات سياسية ولا حتى منظمات مجتمع مدني، يضاف إلى ذلك عدم وجود تكتلات إثنية أو عرقية أو دينية، وهي التكتلات التي يمكن أن تمتد من أجل الصراع أثناء الأحداث - (لكن في مرحلة ما بعد الأحداث تم بناء مؤسسات على أسس جغرافية وسياسية) وهو ما خلق وضعاً شاذاً، حتى وصل الأمر إلى وجود حكومتين متصارعتين يمولهما مصرف مركزي واحد.

ثانياً: تطور الأحداث

إذاً فكانت الأحداث تتطور بشكل سريع ومعقد، وفي غضون أيام قليلة، أقل من أسبوع، تم استدعاء القوات المسلحة (كتائب القذافي) للتعامل مع المحتجين المدنيين.

هذه الكتائب تعاملت مع المحتجين بعنف مفرط، وقد رد المحتجون عليه بعنف مماثل، ثم توالى الاستقالات والانشقاقات من وعن النظام من داخل كوادره السياسية



والبيروقراطية والعسكرية والأمنية، ما أدى إلى تصدع الوحدة المؤسسية للنظام، ومكّن المحتجين من فرض سيطرتهم على رقعة جغرافية شاسعة في فترة وجيزة، كما لم يلجأ النظام الليبي لتقديم أي حلول سياسية للأزمة، ولم يشرع في تنفيذ أية أعمال إصلاحية تهدف إلى تهدئة الأوضاع، واحتواء الغليان في الشارع، فلم يتجاوز التعامل السياسي مع هذه الأحداث من قبل النظام، حيز التصريحات التي أدلى بها نجل الرئيس "سيف الإسلام" والتي تعهد فيها بالكثير من التعهدات التي لم تشهد أي تفعيل، وبسرعة كبيرة تطور المشهد الليبي تطوراً سياسياً ملفتاً للنظر، حيث ظهر كيان سياسي بديل للنظام القائم تحت مسمى "المجلس الوطني الانتقالي" في بنغازي ومن ثم توالى الاعترافات الدولية بهذا المجلس كممثل شرعي للشعب الليبي، وبالتالي تطورت الأحداث لكي تنتج كيانات سياسية بديلة، وقوى عسكرية موازية، مضافاً إلى سيطرة ميدانية للمحتجين على مناطق جغرافية واسعة حتى وصل تطور الأحداث إلى التدخل الدولي من قبل حلف الناتو، من خلال عملية "فجر أوديسا"، حيث قام الناتو بفرض حظر جوي فوق سماء ليبيا بالكامل، وما تلاه من استهداف الدفاعات الأرضية، مما جعل النظام في حالة شلل تام أمام هذه الأحداث، وعليه أصبحت الأحداث تشهد معدلات عالية من العنف والمواجهات المسلحة، ومع ازدياد تطور الأحداث تمكن المحتجون من قتل الرئيس الليبي معمر القذافي الذي تربع على عرش السلطة قرابة الـ 42 عاماً.

ثالثاً: النتائج المترتبة على الأحداث وتطورها

- ظهور نخب سياسية جديدة تسيطر على السلطة، هذه النخب لم تكن موجودة أصلاً في المشهد السياسي من قبل وهي تكونت من قوى المعارضة التي كانت بالمهجر، والتي عادت مع بداية الأحداث، أو من القوى التي انشقت عن النظام أو تلك القوى المهمشة أثناء فترة الحكم السابقة (حكم القذافي)، وبالتالي عرفت هذه القوى المهمشة التنظيم والعمل السياسي للمرة الأولى، ومن هنا حدث الانقسام السياسي الكبير، فظهرت أكثر من حكومة وكذلك حدث الانقسام



الجغرافي شرقا وغربا، إذًا فظهور هذه النخبة السياسية الجديدة التي سيطرت على السلطة كان أثرا مباشرا لسرعة تصاعد الأحداث وزيادة حدة العنف، وظهور قوى جديدة لم تكن مطروحة من قبل على الساحة الليبية.

- ظهور مليشيات عسكرية متعددة، في ضوء غياب مؤسسة عسكرية نظامية حرص القذافي على تغييبها لخوفه من أن تكون مصدر قوة وسلطة قد تشكل تهديدا للنظام، فقد كان سبق له في ثمانينات القرن الماضي أن حل الجيش الليبي بعد هزيمته في حرب تشاد، ومن ثم أعاد تشكيله على أسس الولاء الشخصي والقبلي والعشائري، فضلاً عن قيامه - القذافي - بخلق كيانات عسكرية موازية للقوات المسلحة النظامية، خاصة ما تعارف عليه "بكتائب القذافي" والتي اعتمد عليها في حماية نظامه، وكانت تحت قيادة نجله "خميس". لكل ذلك تمكن بعض المنشقين من إنشاء كيانات عسكرية بديلة مثل ما سمي بـ "جيش الثوار" الذي كان تحت لواء المجلس الوطني الانتقالي بقيادة "عبدالفتاح يونس" وزير داخلية القذافي المنشق عليه.

- تطور الموقف الإقليمي والدولي حيث اجتمع وزراء الخارجية العرب في الأول من مارس 2011 تحت مظلة جامعة الدول العربية ورفضوا مناشدة البعض الذين يطالبون بالتدخل الدولي بحجة حماية الشعب الليبي من بطش نظام القذافي، إلا أنه مع تطور الأحداث، تطورت مواقف الدول داخل الجامعة العربية حيث قرر وزراء الخارجية العرب دعوة مجلس الأمن الدولي لفرض حظر جوي على ليبيا، معتبرين أن نظام القذافي فقد شرعيته، كما قرر التعاون مع المجلس الوطني الانتقالي والاعتراف به كمثل شرعي للدولة الليبية، وبالتالي تمكن مجلس الأمن من استصدار القرار 1973 في 17 مارس بفرض حظر الطيران، ومن ثم بدأ حلف الناتو عملية "فجر أوديسا" بحجة حماية الشعب الليبي من معمر القذافي، وكان المحدد الرئيسي لتدخل المجتمع الدولي



في أحداث ليبيا، هي حجم المصالح المهددة، خاصة المصالح المتعلقة بالنفط وبالذات حينما هدد سيف الإسلام القذافي في خطابه الأول بإحراق آبار النفط.

- تفاعلات النخب السياسية وانقسامها إلى شق سياسي وشق عسكري، في ضوء حرص النظام الذي حكم ليبيا لأكثر من أربعين عاما على القضاء على أية نخب معارضة لضمان الولاء والانفراد بالحكم، وبالتالي فقد تم تفرغ المجتمع من النخب السياسية، فلم تكن هناك سوى بعض النخب السياسية المعارضة التي تعيش في المهجر، لذلك كان الدور القيادي منتظرا من النخب الموجودة من مسئولين سابقين منشقين من وعلى النظام، بالإضافة إلى شيوخ قبائل، أو قوى الإسلام السياسي وخاصة جماعة الإخوان المسلمين، وبالتالي فإنه مع تبلور نخبة من المنشقين من وعلى النظام، وعودة معارضة مهاجرة من الخارج، وبدء التيار الإسلامي في تنظيم عناصره، وظهور عدد من الكيانات السياسية غير المؤسسية، بدأت هذه النخب بتقسيم المشهد السياسي الليبي إلى تيارين رئيسيين منذ عام 2012، تيار سياسي وتيار آخر عسكري، فكان الأول "التيار السياسي" يتكون من المنشقين عن النظام ومعهم بعض المعارضين العائدين من الخارج، أما الثاني "التيار العسكري" فيتكون من تيار الإسلام السياسي بتتبعاته المختلفة.

انقسام النخب إلى تيارين بالشكل السابق ذكره، أدى إلى الاحتكام للمواجهات العسكرية كأحد أدوات الخلاف السياسي، وبالتالي كانت تفاعلات هذه النخب، أحد أهم أسباب إطالة أمد الصراع السياسي والعسكري.

بعد إسقاط القذافي وقتله أصبح بليبيا سلطة انتقالية، اعتمدت على معادلة "تشطي القوة" بأشكالها السياسية والمليشياوية والمناطقية، وأصبح هناك توزيع للسيادة الجغرافية بين الفواعل المسلحة، والمثال الحي لذلك كانت ميليشيات درع ليبيا التي خاضت عملية فجر ليبيا، فهذه الميليشيات كانت تملك علاقات وثيقة مع قوتين أساسيتين، هما الإخوان



المسلمين، وفصائل مصراتة، ويساندها الجماعات الجهادية خاصة جماعة أنصار الشريعة.

معادلة "تشطي القوى" التي اعتمدتها السلطة الانتقالية، نتج عنها الجماعات المسلحة والمليشيات الإرهابية، هذا وقد أصدر مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية في عام 2015 تقريراً يفيد أن هناك نحو 1700 مجموعة مسلحة نشطة في ليبيا ومن المعروف أن هذه المجموعات كانت قد تكونت أثناء الأزمة اعتباراً من أوائل عام 2011. والبعض الآخر قد تشكل في مراحل تالية، ونتيجة لزيادة الفوضى التي عمت البلاد، تهيأت الفرص لنمو جماعات أكثر تطرفاً وأكثر عنفاً مثل أنصار الشريعة، وفجر ليبيا، ومجموعات تابعة للقاعدة وأخرى تابعة لتنظيم الدولة الإسلامية "داعش"، وكان هذا التشطي في هذه المجموعات هو حجر العثرة في عدم التوصل إلى التوافق الوطني على رؤية مشتركة لكيفية إدارة وحكم البلاد وترتيبات تقسيم السلطة.

ويرجع السبب الرئيسي في سرعة وجود هذه المجموعات أيضاً إلى أن نظام القذافي لم يكن به نظام أمن رسمي متبلور، حيث كانت أجهزته الرسمية تضم هياكل مختلفة تعمل بكفاءة متباينة، في توقيات معينة وأماكن مختلفة فقد كانت السلطات والمهام تتحول بموجب توجيهات القذافي وجماعته -في بعض الأحيان- من كيان أمني إلى كيان آخر يتبع القوات المسلحة، أو اللجان الثورية والحرس الثوري.

لذلك فإنه نتيجة لكثرة الجماعات المسلحة والتنظيمات الإرهابية وجماعات الإسلام السياسي، ومع تشطي هذه الجماعات وعدم الاحتكام لقيادة واحدة تحولت ليبيا إلى "معبر ناقل للإرهاب العابر للدول".

فليبيا على سبيل المثال تعتبر أحد أهم المناطق الفاصلة بين مصر ونيجيريا، والتي يمكن من خلالها أن تمتد التأثيرات الإقليمية لتنظيم مثل "بوكو حرام"، وهو أحد أهم وأخطر التنظيمات الإرهابية في أفريقيا"، إلى الشمال الأفريقي بالكامل وخاصة مصر، فالمناطق الفاصلة بين مصر ونيجيريا مثلاً، خاصة ليبيا وتشاد تشهد حالة من ضعف



الدولة، والحدود الرخوة، بما يجعلها وسيطا "حاضنا وناقلا"، في آن واحد لتهديدات الجماعات الجهادية، فالمثلث الحدودي بين مصر والسودان وليبيا، يرتبط بحدود تشاد، والتي تمثل بدورها خاصرة أساسية للصراعات في شمال نيجيريا ومغربا في الوقت نفسه لأراضي ليبيا ودارفور غربي السودان اللتين تتماسان مع الأمن القومي المصري، وما ينطبق على مصر يمكن أن ينطبق على كل دول جوار ليبيا خاصة تونس والجزائر.

ومن هنا بدا أن مكن التأثير غير المباشر لأخطر الجماعات الإرهابية في أفريقيا على الشمال الأفريقي وخاصة مصر وتونس والجزائر يمر عبر البيئة الليبية المضطربة أصلاً والتي باتت مخزناً للسلاح وموئلاً لوجستيا وتدريبيا للجماعات الإرهابية، علاوة على ما أحدثه الصراع الليبي على السلطة والثروة في هذا البلد من آثار متداعية على الإقليم ككل.

من هنا بدأت أهمية الجنوب الليبي كمصب للجماعات الإرهابية في الساحل والصحراء، وكملاذ للإرهابيين الفارين من ضغوطات السلطات في المنطقة، هذا الجنوب الذي يمكن أن يسهل الانتقال إلى الشمال الليبي شرقا وغربا ومنها إلى دول الجوار، فقد ثبت اختراق جماعات إرهابية إفريقية لليبيا ودعمها للجماعات الإرهابية بها.

مما سبق كانت أهمية أن يكون للدولة الليبية جيش وطني موحد، لذا فقد تم تكوين ائتلاف عسكري بقيادة المشير خليفة حفتر، يضم تشكيلات من الجيش الليبي السابق سواء برية أو جوية أو بحرية، بالإضافة إلى مقاتلين من جماعات قبلية معادية للجماعات الإسلامية المسلحة مثل قبائل الزنتان. ويستمد الجيش الوطني الليبي شرعيته من ولائه للمجلس النيابي برئاسة المستشار عقيلة صالح، وكان الهدف الرئيسي لهذا الجيش هو توحيد البلاد وإعادة إقامة سلطة مركزية قوية تحفظ الأمن والنظام، مع توحيد الأجهزة العسكرية والأمنية، وقد بدأ الجيش الوطني الليبي بعملية عسكرية كبرى في 16 مايو عام 2014 تحت مسمى "عملية الكرامة" وذلك لتحرير مدينة بنغازي ثاني أكبر المدن الليبية بقوات قوامها 317 ضابطا وجنديا (وصل الآن عدد الجيش الوطني الليبي



أكثر من 80 ألف) في مواجهة ما يزيد عن 15 ألف من مقاتلي الجماعات والتنظيمات الإرهابية المدعومة بالسلاح والمال من دول خارجية على رأسها قطر وتركيا، وقد بدأت العملية في الشرق الليبي وامتدت منها إلى الجنوب، كما تحالف الغرب الليبي مع مقاتلي قبائل الزنتان التي تسيطر على حقول النفط في الجنوب الغربي، وقد تحقق لهذا الجيش النصر نتيجة التلاحم الشعبي الضخم، واستمرت عملية الكرامة بعد تحرير بنغازي لتحرير الشرق الليبي بالكامل، ثم الموانئ النفطية، ثم الحقول النفطية بوسط الصحراء الليبية، ورغم مساحة الجنوب الليبي الشاسعة اتجه الجيش الوطني الليبي بعملية عسكرية خاطفة لتحرير والسيطرة على كامل مدن ومناطق الجنوب، وقبل انتهاء عام 2018 تم تحرير مدينة درنة التي تتميز بصعوبة تضاريسها وجغرافيتها بجانب تحصن أشرس العناصر الإرهابية بها، وبالتالي تمكن الجيش الوطني الليبي من السيطرة على كامل الشرق الليبي والهلل النفطي حتى خط الحدود مع مصر بالإضافة إلى كل مدن ومناطق الجنوب، كما سبق وأن ذكرنا .

وبالرغم من هذا التقدم الذي أحرزه الجيش الوطني الليبي ومن الحفاظ على أكبر مساحة ممكنة من الأراضي الليبية خالية تقريبا من التنظيمات والجماعات الإرهابية، وبالرغم من حفاظ الجيش الوطني الليبي على الهلال النفطي، كان المشهد السياسي الدولي يذهب في اتجاه عرقلة تقدم الجيش الوطني الليبي، في مقابل الاتفاق على حكومة وحدة وطنية بالتعاون مع فايز السراج وقائد الجيش الليبي خليفة حفتر، فتوالت المبادرات والمقابلات والاجتماعات والمباحثات بدءا من اجتماع الصخيرات إلى اجتماعي باريس(1) وباريس(2)، إلى اجتماع باليرمو بإيطاليا إلى اجتماع أبو ظبي، وأخيرا إلى دعوة الأمم المتحدة لعمل الملتقى الوطني الشامل لجميع القوى السياسية العاملة في الأراضي الليبية والذي كان محدد له منتصف إبريل 2019.

ويستلقت النظر في هذا الصدد موقف القوى الإقليمية المتماسة مع الجوار الليبي خاصة مصر وتونس والجزائر، فهذه القوى بالإضافة إلى موقف جامعة الدول العربية،



هي جميعا غير مرحبة بالتدخل الدولي، خاصة بعد ما حدث من تدخل حلف الناتو، فهذه القوى تفضل حل الأزمة الليبية عبر التنسيق الإقليمي، ومن خلال دفع القوى الكبرى للضغط على أطراف الصراع دون اللجوء للخيار العسكري بحيث يتم منع تسرب التهديدات العابرة للحدود من الداخل الليبي لذلك اجتمعت قوى الجوار الليبي في يوليو عام 2014 بتونس لبحث مسألة الحدود وانتهت إلى تشكيل لجنتين الأولى أمنية تقودها الجزائر والثانية سياسية تقودها مصر.

لكن كل هذه الجهود فشلت في إقناع حكومة فايز السراج المتمترسة في الغرب الليبي بمدينة طرابلس في التوصل لاتفاق لإخراج الميليشيات المسلحة من العاصمة الليبية. وهو ما يعكس ضعف موقفه، وعدم قدرته على السيطرة على هذه الميليشيات.

ومن هنا يمكن تقدير مجمل الوضع في وجود مشروعين متصارعين على الأراضي الليبية، الأول مشروع تركي قطري يقف وراءه التنظيم الدولي للإخوان المسلمين وبعض الدول الأوروبية خاصة بريطانيا، ويهدف إلى سيطرة قوى الإسلام السياسي بالنموذج التركي الإخواني على ليبيا. وتتخلص أدواته في الأراضي الليبية لتحويل ليبيا إلى محطة للميليشيات المسلحة المدعومة بالمال والسلاح والإعلام المكثف من تركيا وقطر، بهدف محاصرة مصر في عمقها الإقليمي، وتهديد استقرارها وأمنها القومي مع استغلال ثروات ليبيا في السيطرة على القرار السياسي فيها من خلال وكلاء يدينون بالولاء لتركيا. ويتمركز هذا المشروع في غرب ليبيا وبالتحديد في العاصمة الليبية طرابلس ويقوده "شكلا" فايز السراج الموجود على رأس الحكومة الليبية والذي جاء نتيجة اتفاق دولي وليس نتيجة اختيار شعبي.

وبالنسبة للمشروع الثاني، فهو مشروع الدولة الليبية الواحدة، المعادية للتنظيمات والميليشيات الإرهابية، ويستمد هذا المشروع مشروعيته من ولائه للمجلس النيابي المنتخب برئاسة المستشار عقيلة صالح، وهو يعمل على توحيد ليبيا، وإعادة إقامة سلطة مركزية قوية تحفظ الأمن والنظام مع توحيد الأجهزة العسكرية والأمنية، ويدعم هذا



المشروع كل من مصر والإمارات وبعض دول أوروبا، وتحافظ أمريكا على علاقتها بهذا المشروع على أمل التخلص من التنظيمات الإرهابية في الغرب الليبي.

أما القوات الفاعلة في المشهد الإقليمي والدولي للأزمة الليبية فتتمثل فيما يلي:

أولاً: دول الجوار مصر وتونس والجزائر. وهي تتفق على أهمية الحل السلمي للأزمة عبر الأمم المتحدة، إلا أن مواقفها تختلف من الطرفين بين التأييد والحياد. حيث تميل مصر مع مشروع المشير حفتر، بينما تفضل الدولتان الأخريان أن تكون لهما علاقات متعادلة بين الطرفين.

ثانياً: إيطاليا التي تعتبر ليبيا أهم مستعمراتها القديمة ولها مصالح في قطاع النفط في الغرب الليبي وخاصة شركة إيني، وهي تميل لتأييد حكومة الوفاق الوطني المعترف بها دولياً، بقيادة السراج. وإن كانت لا تمنع في الاتصال بالمشير حفتر اعترافاً بدوره في محاربة التنظيمات الإرهابية، وتحسباً لاحتمالات تغير الموقف لصالحه في ليبيا.

ثالثاً: فرنسا التي لها استثمارات كبيرة في الجنوب الليبي، فضلاً عن اهتمامها بملف الهجرة الشرعية إلى أوروبا -مثل إيطاليا- وهي تدعم معسكر المشير حفتر سرا، بينما تتخذ موقف التوازن في استقبال السراج على أرضيتها باعتباره رئيس الحكومة المعترف بها دولياً، اتساقاً مع موقف الاتحاد الأوروبي.

رابعاً: الولايات المتحدة التي ضعف اهتمامها بالمشكلة الليبية، لتركيزها على مشكلة إيران وصفقة القرن، ومع ذلك فقد أوضحت اتصالات الرئيس الأمريكي بالمشير حفتر تقديراً أمريكياً لدوره في محاربة الإرهاب، واعترافاً بالمجلس الوطني الليبي وبوجود مليشيات إرهابية في المعسكر الآخر.

خامساً: روسيا التي لها رؤية مزدوجة في الصراع الدائر في ليبيا فهي ترى حفتر حليفاً محورياً لها في الشمال الأفريقي، خاصة في ملف تسليح الجيش الليبي في مرحلة



ما بعد الحصار، وإعادة الإعمار بعد تهدة الأزمة. فضلا عن أهمية نفوذها للشمال الأفريقي كورقة تفاوضية مؤثرة مع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي.

سادسا: بريطانيا صاحبة الموقف المعروف من تأييد الإسلام السياسي وبعض تنظيماته المسلحة، لذلك فهي تؤيد معسكر السراج في محاولاتها استصدار قرارات لصالحه في مجلس الأمن.

سابعا: الأمم المتحدة التي أثبتت فشلا متكررا في رؤيتها الكلية للوضع في ليبيا، حيث تتغير مواقفها بتغير ممثليها عن الأزمة، وآخرهم غسان سلامة الذي طرح خارطة طريق لم يتمكن من تطبيقها على أرض الواقع، وفقد حياده لصالح معسكر دون آخر في تقرير لمجلس الأمن.

نتيجة لكل ذلك بدأ المجتمع الدولي متفسخا في الشأن الليبي، فيما يتعلق بخصوص التسوية السياسية، وقد انعكس ذلك جليا على الوضع الميداني في ليبيا، ولذلك لم يجد الجيش الوطني الليبي أمامه سوى الزحف لتحرير آخر بقعة من الأرض الليبية (العاصمة وما حولها) من التنظيمات والمليشيات الإرهابية والتي تتراوح أعدادهم ما بين ستة إلى سبعة آلاف شخص مسلح وهم عبارة عن مجموعة من الميليشيات الإرهابية متعددة الأسماء بأسماء أفرادها والبعض منها مؤدلج، وممولين من كل من تركيا وقطر وخزينة الدولة الليبية "مصرف ليبيا المركزي"، فقد بدأ الزحف بأعداد كبيرة من المنطقة الشرقية والجنوبية لتتمركز على تخوم منطقة مصراتة من الجهة الشرقية لعدم تقدم الميليشيات في اتجاه طرابلس مع تجهيز قوات بأعداد كبيرة لدخول العاصمة من الجنوب والغرب وبالتالي تكون خطة الجيش الوطني الليبي هي استدراج أغلب الميليشيات بجميع ألياتها ومعداتنا الثقيلة لأطراف طرابلس ومن ثم الهجوم عليها من داخل المدينة بالعناصر والقوات التي لم تعلن حتى الآن تبعيتها للجيش لتكون معركة طرابلس هي المعركة الحاسمة والأخيرة أو كما سماها الجيش الوطني الليبي معركة "طوفان الكرامة".



ومع احتدام المعارك وعدم استطاعة أحد الطرفين من تحقيق نصر واضح فالجيش الليبي لم يستطع حتى الآن من دخول طرابلس، وقوات الغرب لم تستطع رد الجيش إلى أماكنه السابقة في شرق وجنوب ليبيا، حتى أن كثيرا من القوى الدولية الفاعلة أصبحت تطالب بإيقاف إطلاق النار مع تثبيت خطوط القتال الحالية، وهو ما يعني مؤشرات لبداية تقسيم ليبيا.

وبالرغم من كل ما تقدم فإن الموقف الدولي وثبات القوات والتأييد المتصاعد للحرس الوطني الليبي هو ما سيقدر النتيجة النهائية للمعركة.



خالد فياض
صلاح سالم

- توافق ديمقراطي لا ديمقراطية توافقية
- التنوير الديني في التقليد الألماني المثالي



توافق ديمقراطي عربي لا ديمقراطية توافقية

خالد فياض

مستشار سياسي بمعهد البحرين للتنمية السياسية - مصر

لقد أصبحت الديمقراطية أعظم قوة حضارية معاصرة فقد أصبحت غاية شعبية كنظام، وصارت وسيلة مثلى لحل المشاكل في العالم. فعُرفت الديمقراطية بأنها اتفاق المختلفين بالسلم. والتشارك في الأمور. كونها آلية تنظيم أمور الحكم. ومنهاجا لممارسة السلطة. ونظاما حياتيا لبني البشر لكي يتعلموا أن يعيشوا بسلم.

وهناك العديد من أشكال الديمقراطية إلا أن هذا المقال سيتطرق فقط إلى نوعين هما الديمقراطية التوافقية والتوافق الديمقراطي . متطرقين إلى محاولة للاقتراب من نموذج ديمقراطي عربي يراعي الخصوصية الثقافية العربية دون افتئات على جوهر قيمة الديمقراطية.

الديمقراطية التوافقية Consensus democracy

ظهر مصطلح الديمقراطية التوافقية كرد فعل على العديد من الأحداث والمصادمات التي وقعت في الدول حديثة الاستقلال ذات التعددية الاجتماعية الواضحة سواء على المستوى القومي أو الجغرافي أو الإثني أو الديني ، الأمر الذي وضع علماء الاجتماع السياسي أمام تحد حقيقي ينبغي مواجهته ديمقراطيا حيث ظهرت ثلاثة أنواع من الحلول لمعالجة المشاكل السياسية في هذا النوع من المجتمعات مع الحفاظ على طبيعته الديمقراطية:

أولاً: إزالة الطابع التعددي للمجتمع أو تقليصه بصورة جوهرية عبر الاستيعاب وهي طريقة ذات احتمالات ضئيلة في النجاح على المدى القصير خصوصاً. وقد ثبت



فشل هذا الحل في العديد من دول العالم الثالث التي حاولت عمل استيعاب شكلي ظاهري في البداية أعقبته باستيعاب أمني كان ثمنه آلاف الضحايا من المدنيين من أبناء الجماعات الأساسية في المجتمع على غرار حروب الهوتو والتوتسي في بورندي أو الحرب الأهلية في يوغسلافيا السابقة.

ثانياً: الحل التوافقي الذي يقبل بالانقسامات التعددية باعتبارها لبنات البناء الأساسية لنظام ديمقراطي مستقل. وهو حل رغم صعوبته إلا أنه أكثر الحلول السلمية وجاهة واستيعاباً لواقع التعددية بكافة أشكالها في المجتمع وقد تم تطبيقه في العديد من التجارب خاصة في الدول حديثة الاستقلال مثل إندونيسيا.

ثالثاً: تقليص التعدد عبر تقسيم الدولتين إلى دولتين منفصلتين متجانستين أو أكثر. وهو حل تقني سهل ، يقفز على المشكلة على حساب الأولويات الوطنية ومقتضيات الأمن القومي ، ويفتح الطريق أمام جماعات أخرى مختلفة مع الجماعة الأم ليكون لها أيضاً تطلعات انفصالية تحت دعوات إثنية تارة ودينية تارة وقومية تارة أخرى.

من هنا ظهرت فكرة الديمقراطية التوافقية التي ولدت من رحم الاحتمال الثاني وهو الحل التوافقي الذي يقبل الانقسامات التعددية، حيث اعتبر هذا النموذج الديمقراطي نموذجاً يعتمد على تقسيم السلطة بين الجماعات داخل الدولة حسب نسب معينة (وهناك عدة طرق لهذه النسب) وهذه الجماعات يمكن أن تكون عرقية أو دينية أو قومية أو مذهبية تجمعهم صفتان رئيستان هما المواطنة والولاء للدولة (نموذج سويسرا، بلجيكا) ويختص نموذج الديمقراطية التوافقية لنفسه مجموعة من الخصائص أهمها:

- الحكومة الائتلافية تتكون من ممثلي كافة الجماعات داخل الدولة. وهذه الجماعات تكون إما إثنية أو قبلية أو حتى أيولوجية دينية .
- أن ممثلي هذه الجماعات المختلفة أحياناً ما يتأسسون داخل كيانات مدنية حديثة قد تكون على شكل أحزاب سياسية أو منظمات أهلية مدنية أو هكذا تبدو .



- أن النخب الممثلة لهذه الجماعات عادة ما يتمتعون بحق النقض داخل مراكز صنع القرار سواء كانت تشريعية أو تنفيذية أو حتى قضائية .
- أن ممارسة هذا الحق (حق النقض) يكون مسموحًا به في حالة وجود قرار يمس بحقوق جماعة معينة ويؤثر على وضعيتها الاجتماعية والسياسية وحقوقها المكتسبة.

وبالتالي فالديمقراطية التوافقية تفترض اتفاقا على ترتيبات إجرائية محددة لضمان تمثيل مختلف الهويات الموجودة في المجتمع، بما في ذلك تلك التي يقل عدد المنتمين إليها، فهي شكل من أشكال الحكم المطبقة في بعض البلدان غير المتجانسة شعبيا. وهي تقضي بإعطاء حق الحكم بالتوافق فيما يتعلق ببعض الأمور الأساسية للجماعات المتميزة عن بعضها البعض، والمكونة في مجموعها للدولة، والتمايز يكون سببه عادة اختلافا في الأصول الإثنية أو اللغوية أو الدينية. ويزداد التمايز عندما تكون لدى كل جماعة هواجس معينة تجعلها خائفة دوما من احتمال طمس هويتها من قبل الجماعات الأخرى، أو ذوبانها ضمن الأغلبية السكانية أو الانتقاص من حقوق أفرادها الخاصة أو العامة فيتماسك الأفراد داخل كل جماعة مكونين بذلك قوة سياسية تتنافس مع غيرها من القوى الأخرى مثيلاتها ، وقد يصل بهم الأمر إلى حد التعصب لهويتهم الخاصة أو العامة فيتماسك الأفراد داخل كل جماعة مكونين بذلك قوة سياسية تتنافس مع غيرها من القوى الأخرى مثيلاتها ،وقد يصل بهم الأمر إلى حد التعصب لهويتهم الخاصة بهم فيشعر المواطن نتیجتها أن له هويتين ، هوية نابعة من انتمائه إلى جماعته وأخرى نابعة من انتمائه السياسي إلى الوطن الذي يحمل جنسيته، وعندما تحتدم العصبية بين الجماعات يتنازع الفرد هاتين الهويتين ، بحيث تطغى في الغالب هويته الخاصة ، ذات الطبيعة العنصرية الضيقة ، على هويته الوطنية وهنا يتوزع شعب هذه الدولة بين قوى سياسية لكل منها خلفياتها وخصوصياتها التي تجعلها مختلفة أو متميزة عن غيرها، ويتم اللجوء إلى التوافق في حال انعدمت الثقة المتبادلة بين هذه القوى الخائفة من بعضها البعض أو في حال عجزت هذه القوى المتنافسة عن تحديد الغايات والآمال



المشتركة التي تكفل عادة جميع المواطنين وصهرهم ضمن بوتقة وحدة وطنية صلبة ومتماسكة . فهي تعتبر نوعاً من الكونفدرالية حيث تؤخذ الآراء بالإجماع، ويكون لكل جماعة فيتو يمنع صدور أي قرار في الأمور المصيرية من دون موافقتها .

عيوبها

الديمقراطية التوافقية تعتبر نموذجاً أولياً لديمقراطية حقيقية تستهدف في الأساس حكم الأكثرية دون افتئات على حقوق الأقلية إلا أن أهم ما يعيبها هو :

- أنها ليست على درجة كافية من الديمقراطية: حيث إنها لا تتمتع بالقدرة الكافية على تحقيق حكومة مستقرة وفعالة فحكومة الائتلاف الواسع تستلزم حتما إما معارضة صغيرة وضعيفة أو غياب أية معارضة رسمية في المجلس التشريعي، والمعارضة هي مكون جوهري في الديمقراطيات الراسخة مثل بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا وضعفها أو اختفاؤها يهدد الفكرة الديمقراطية في حد ذاتها.
- نخبوية سياسية: حيث إنها تستلزم سيادة النخبة المنظمة كما تستلزم بالمقابل دوراً امتثالياً لكافة الجماعات غير النخبوية وتقع على عاتق زعماء الجماعات الأقلوية المهمة العسيرة المتمثلة في القيام بالتسويات السياسية مع زعماء بقية الجماعات وتقديم التنازلات لهم والحفاظ على ثقة قواعدهم لذلك يكون من المفيد أن يمتلكوا سلطة مستقلة كبيرة وموقعا آمنا في القيادة كما أنها تخضع لاحتمال عجزها عن إحلال الاستقرار السياسي والحفاظ عليه .
- التردد وعدم الفعالية: فالحكم بواسطة الائتلاف الواسع يعني أن عملية صنع القرارات ستكون بطيئة. وسيصبح هناك فيتو متبادل ينطوي على خطر إضافي يتمثل في تجميد القرارات كلياً .
- النسبية كمعيار للتوظيف في مؤسسات الدولة: لتوظيف العاملين في الإدارات الحكومية يستتبع أولوية للعضوية في قطاع محدد أو جماعة محددة أعلى من



الأولوية التي يوليها للكفاءة الفردية وقد تكون على حساب الفعالية الإدارية.
الأمر الذي يجعل الديمقراطية التوافقية نمطا مكلفا في الحكم .

التوافق الديمقراطي Democratic consensus

يقصد به نوع من التراضي العام على مبادئ وأسس وقواعد التطور الديمقراطي وهو يحدث بين أحزاب وقوى وجماعات واتجاهات سياسية وأيدلوجية، أي يدور الخلاف بينها حول مواقف وبرامج يختارها أنصارها بإرادتهم، وليس حول هويات أولية يولدون بها. وربما يجوز تشبيه هذا التوافق بالأساس الخرساني الذي يوضع تحت الأرض عند بناء أي مبنى، فحين نشرع في مثل هذا البناء يجوز أن نختلف على كل شيء فيه، إلا مواصفات ومستلزمات الأساس الذي يقام عليه المبنى، فإذا اختلفنا على هذا الأساس يكون ما نفعله مقدمة لانهايار المبنى فور بنائه .

والنظام السياسي الديمقراطي لا يختلف في الجوهر، إذ يجوز أن نختلف على كل شيء فيه فيما عدا المقومات الأساسية للدولة التي ينبغي أن نتوافق عليها، لأنها لا تتغير من انتخابات لأخرى، فلا يمكن أن تؤدي انتخابات مثلا إلى دولة دينية فيما تقود الانتخابات التالية لها إلى دولة علمانية. فهناك مقومات نتوافق عليها ولا يغيرها أحدا بمفرده، حتى إذا حصل على أغلبية كبيرة .

والتراضي العام الذي يتركز بهذا المعنى في مقومات الدولة، ينصرف أيضًا إلى المبادئ الأساسية التي يقوم عليها النظام السياسي والاجتماعي والمحددات الرئيسية لتنظيم العلاقة بين أطرافه سواء بين الحكم والمعارضة، أو بين قوى المعارضة بعضها البعض، وهو ما يعرف عموما بقواعد اللعبة. فلا فرق في الجوهر بين التنافس السياسي والثقافي والفكري والتنافس في أي مجال من مجالات الحياة، ولا يستقيم أي تنافس بدون قواعد ينطلق منها المتنافسون ويعودون إليها كلما اقتضى الأمر، فإذا لم يرتض فريقان، وهما في الملعب ، القانون الذي ينظم اللعبة ،تنتفي أهم مقومات التنافس وتنتهار المسابقة التي يلعبان في إطارها ،وكذلك الحال إذا ارتضى أحدهما هذا القانون بينما أراد الثاني



تطبيق قانون ينظم لعبة أخرى مختلفة .ولذلك نقول إنه من الصعب المضي قدما نحو إطلاق التنافس السياسي دون قيود في غياب توافق عام أو تراض عام على بعض من أهم مقومات الدولة.

ولهذا فالتراضي العام يعتبر ذا أهمية محورية في النظام الديمقراطي تحديداً ، حيث لا مجال له في النظم الأوتوقراطية الفردية ، التي يفرض فيها نظام الحكم ما يرتضيه هو دون غيره ،في الغالب الأعم ، فالتراضي هو بطبيعته عمل من أهم الأعمال الديمقراطية بل يجوز القول إنه العمل المؤسس لأي ممارسة تستحق أن توصف بأنها ديمقراطية وذلك لسببين:

- أولهما أنه يتحقق عبر حوار لا يمكن أن يستمر ويثمر بدون التزام حقيقي بالديمقراطية من أطرافه كافة.
 - ثانيهما أن الديمقراطية التي تفتقد إلى التراضي، تصبح صعبة المنال أو قابلة للتعثر السريع أو الانتكاس الفوري، فالديمقراطية لا تمارس في الهواء وإنما على أرض محددة، وإذا لم تكن هذه الأرض ثابتة فهي تميد بمن يقف عليها.
- وأخطر ما يواجه أي تطور ديمقراطي هو أن يظن أطرافه أو بعضهم أن الديمقراطية هي بمثابة تنافس منفلت من أي قواعد ومعايير، وأن الشعب يختار من يريده بين المتنافسين بمنأى عن إطار ينظم التنافس ويحدد ما هو ثابت لفترة معينة وما هو متغير .
- ولذلك يحدث التوافق الديمقراطي عادة على مبادئ وقواعد يلتزم الجميع بها لضمان سلامة العملية الديمقراطية واستمرارها وتجنب ما يمكن أن يؤدي إلى تعثرها أو انتكاسها بغض النظر عن نتائج الانتخابات ومن يفوز بها أو يخسر .

نحو مفهوم وطني للديمقراطية :

واتساقاً مع المفاهيم والمصطلحات سألغة الذكر فإن الإطار الديمقراطي غالبا ما يضع في اعتباره البيئة التي يعمل من خلالها وخصوصية تلك البيئة حيث اتفق معظم



منظري الديمقراطية على أنها مشروع نسبي تتغير أنماطه وأشكاله بتغير المجتمعات وباختلاف الخصوصيات. فهي من المفاهيم التي لا تأخذ شكلاً محدداً لا يمكن التغيير فيه، بل هي مصطلح قابل للتطور من حيث الشكل والمضمون معاً. وتأخذ صوراً وأشكالاً متغيرة عبر الزمن. لذلك قد يكون من الصعب الآن على العديد من القوى السياسية إنكار الديمقراطية أو التحجج بكونها لا تصلح كنظام حكم إلا أنه ينبغي أن يوضع في الاعتبار أهمية أقلمة هذا المفهوم بالشكل الذي يلائم بيئتنا وأولوياتنا الوطنية مع الوضع في الاعتبار أن الديمقراطية التي نعنيها هي في الجوهر تلك التي جربتها البشرية وطمحت لها في دول كثيرة من دول العالم وأنها تبنى على خبرات مشتركة بين مختلف الشعوب وليست شيئاً يتم تعريفه لأول مرة ولا هي مفهوم يؤخذ بشكله الظاهري دون الولوع إلى فلسفة هذا النوع من أنظمة الحكم ولا هو أيضاً نظام حكم يؤخذ كإطار خارجي لتجميل وجه نظام معين للتغطية على ممارسات تسلطية استبدادية بعيدة كل البعد عن الديمقراطية.

كما لا بد أيضاً أن يبدأ أي مفهوم وطني للديموقراطية بالاعتراف بأن الوطن العربي هو أيضاً كيان ثقافي متميز ومنتمٍ إلى عدد من الدوائر الحضارية المتداخلة (الإسلامية والعربية والآسيوية والإفريقية) كما أن له ظروفه الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الخاصة وتقاليدته السياسية الممتدة والمتجذرة وخاصة فيما يتعلق بالتأكيد على قيم العدالة وأنه قادر على إثراء مفهوم الديمقراطية والتمتع بتجربة أصيلة لا تقوم على تقليد أو نسخ غيرها من التجارب وأن التوق لتجربة ديموقراطية أصيلة لا يمكن أن يعني الإجحاف بأي شكل من الأشكال بالقيم المشتركة للإنسانية أو بالمبادئ والمعايير الأساسية للديموقراطية، وإنما يعني تجسيد هذه القيم بصورة تستجيب للحاجات الأصيلة والمشروعة لكل القوى الاجتماعية الكبرى ولحاجات الوطن العربي ككل وللضغوط التي يملها التكوين الثقافي العربي، فالديموقراطية ليست مجرد نظام سياسي أو كيان قانوني شكلي فحسب بل إن لها ماهية و فحوى يتلمسها الناس بالتجربة وبالممارسة أيضاً، وأن كل استخدام لقاعدة قانونية شكلية ديموقراطية لتحقيق نتائج معاكسة للهدف منها أو للغرض



الذي وضعت لتحقيقه هي غدر بالديموقراطية وإجحاف بها. ومن هذا المنطلق فإنه يجب أن نضع نصب أعيننا الفحوى الجوهرية للديموقراطية في كل العصور وهي أنها النظام الذي يقوم على سلطة الشعب وسيادة الأمة.

وتحتاج الديمقراطية إلى شروط تمهيدية أساسية وهي شروط تسمح بتطور ديموقراطي سليم وصحي دون أن تكون بذاتها جزءا من تعريف الديمقراطية. وتشمل هذه الشروط العناصر الأساسية التالية:

- **استقلال الإرادة الوطنية:** إذ يصعب أن تعيش الديمقراطية في ظل فقدان الاستقلال السياسي والحد الأدنى من الاستقلال الاقتصادي الوطني.
- **التوافق على القيم الجوهرية للمجتمع وأركان ثقافته الوطنية:** مع الوعي بالإضافة العظيمة التي يمكن أن تؤدي إليها الممارسة الثقافية الخلاقة والأصيلة التي تترجم الأهداف السامية والأساسية للمجتمع، والدين الإسلامي. حيث إن هناك ضرورة على التوافق على الدور الكبير الذي يلعبه الإسلام في تكويننا الثقافي والأخلاقي والقومي. فتعزيز هذا الدور مطلوب وضروري. ويجب البناء على القيم الأخلاقية الرفيعة التي أكردها الإسلام، وتأصلت في نسيجنا الحضاري والمجتمعي. إلا أن جانبا من هذا التوافق ينبغي أن يقوم على استبعاد بناء دولة دينية بمعنى منح أي جماعة-وخاصة رجال الدين- امتيازاً سياسياً ما. وبالمقابل فإن بناء الدولة ونظامها وسياساتها يجب ألا يصطدم أو يتناقض مع القيم الأساسية للدين الإسلامي.
- **التوافق على معاني الاعتراف بالآخر والتسامح السياسي والفكري:** توافق يراعي حقوق المواطنة المتساوية وإقامة الممارسة السياسية على قاعدة المشاركة في الوطن والمساواة في حقوق المواطنة واستبعاد كل صور التمييز على أساس الدين أو الجنس أو الأصل العرقي أو جهة الميلاد والإقامة أو أي اعتبار غير شخصي آخر. ويجب بصورة خاصة أن تتم مكافحة جميع صور الطائفية وتأكيد الوحدة الوطنية وأبعاد المؤسسات الدينية عن المجال السياسي، واعتبارها



مرافق عامة مفتوحة ومتاحة للجميع يرأسها أشخاص يتمتعون بالاحترام العام على ألا يسمح لهم بمزاولة الوظائف أو الأدوار السياسية أثناء شغل وظائفهم الدينية. وفي الحد الأدنى يجب إقامة العلاقات الدينية على أساس التسامح والاحترام المتبادل وتحسين المعتقدات الدينية من الهزل والسخرية أو الإهانة دون إجحاف بحق المناقشة العاقلة والمفيدة لكل الأفكار والنصوص أو الممارسات في سياقات تضمن حرية البحث والإبداع.

- **تحقيق الحد الأدنى من النهوض الاقتصادي والمجتمعي.** وذلك يعتبر شرطاً ضرورياً لمواصلة وتنمية تجربة ديمقراطية ذات معنى وقابلة للحياة والازدهار. وفي هذا السياق فإن أي نظام ديمقراطي يفقد جانبا كبيرا من ضرورته إن لم يُمكن المجتمع من الانطلاق والنهضة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وإحداث شبه قطيعة مع الفقر والتخلف.

وبالتالي فإن توافقا ديمقراطيا عربيا يراعي ما سبق ذكره، يعتبر مدخلا ضروريا لأي عملية تحول ديمقراطي تدريجي حقيقي في مجتمعاتنا العربية ، ويجعل من نموذج الديمقراطية التوافقية - والذي ثبت فشله في العديد من الدول الذي طبق بها وتحديدا في لبنان وإندونيسيا بعد الاستقلال - لا نستطيع أن نستدعيه للتطبيق في بيئتنا العربية باعتباره يشكل مثيرا نشطا للخلافات الطائفية والعرقية والدينية في المنطقة التي يبدو أنها تحتاج إلى إطار وطني يراعي ثراء الخصوصية الثقافية العربية وتدرجية التطبيق الذي يجنب المنطقة ويلات الصدمات السياسية التي اكتوت بنارها منطقتنا العربية من المحيط إلى الخليج.



الدين والتنوير في التقليد الألماني المثالي

صلاح سالم

كاتب ومفكر بجريدة الأهرام - مصر

طالما كان الإلحاد موقفا عقليا ونزوعا نفسيا، ولد من رحم صراع ممتد بطول التاريخ تقريبا، عابر لكل الثقافات، حول (الإله) ذلك الكائن القدسي الأسمى، خالق العالم والإنسان، الذي أثار حضوره جميع الأسئلة الكبرى حول معنى الوجود، ومصير الإنسان، وأصل الشر، ومغزى الحياة، وما بعد الموت.. إلخ. إنها الأسئلة الكبرى التي شغلت تاريخ الفلسفة، وعبرت عن انشغال حقيقي بالمصير الإنساني، تحريرا لإرادته من فلك الحتميات التي وضعها الكهنة قيادا على حريته، وراكمها السحرة طبقات ضاغطة على عقله، وأحالها بعض رجال اللاهوت وسائل لإلغاء شخصيته، ومن ثم وقع الاشتباك بين الفلسفة والدين، العقل والإيمان وولد الموقف الإلحادي التقليدي الذي استمر يعبر عن نفسه بشكل مضمحل، حتى كان الإلحاد الحديث الذي عرفته الثقافة الأوروبية إبان تحولها الوئيد والصعب من التقليد إلى الحداثة، وتحررها الجذري من الفلسفة المدرسية (التومائية) القائمة على العناق بين اللاهوت المسيحي والمنطق الأرسطي؛ حيث صار الإلحاد فلسفة متكاملة تنتظم في رؤية مادية للوجود، تتغذى على صيرورتي العقلنة والعلمنة. في هذا السياق كان ثمة مفكرون وفلاسفة نظروا إلى الدين تلك النظرة المسطحة ذائعة الصيت، باعتباره مصدرا بدائيا لفهم العالم المحيط والتكيف معه والشعور بالأمن في جنباته، حيث كان الإيمان بإله خالق قوي في تصورهم قرينا للخوف والجهل والاعتراش، فما إن يتحرر الإنسان من ذلك الثالوث بالمنهج العلمي، ويدرك الطبيعة إدراكا عقلانيا حتى يتجاوز مفاهيم الدين والألوهية. هكذا تحدى فيورباخ الإيمان المسيحي، كما تحداه فرويد، وماركس ونييتشه؛ فلدى فيورباخ "اختفت المسيحية منذ وقت طويل، لا من العقل وحسب



بل من حياة البشر، فهي مجرد فكرة ثابتة، تتناقض تناقضا صارخا مع شركتنا للتأمين على الحياة وضد الحريق، وسكننا الحديدية وعريتنا البخارية ومعارضنا للرسم والنحت ومعاهدنا العسكرية والصناعية ومسارحنا ومتاحفنا". في مثل هذا العالم، انتهى الدين، وإن ظلت منه بقايا، غير مرئية لشدة ذاتيتها، وهامشية صلتها بالمجتمع. وفي دراسته (جوهر المسيحية)، التي صارت أثيرة لدى الهيجليين اليساريين، اعتبر فرويد صراحة أن جوهر المسيحية هو البشرية، وأن اللاهوت هو الأنثروبولوجيا، وأن موضوع الدين، أي الله، مجرد تعبير عن جوهر الإنسان، أي مجرد انعكاس له وإسقاط عليه، هكذا لم يعد الدين سوى ذلك "الكشف المهيّب عن كنوز الإنسان المخفية، وتجلي أفكاره الحميمة، والبوح الصريح بأسرار عشقه".

أما ماركس فرأى الدين مجرد "تنهيدة مخلوق خاضع" أو "أفيون الشعوب"، وأن الحاجة لقمع الدولة، وللغذاء الديني، وللوعي الزائف، سوف تستمر مادامت المجتمعات الطبقيّة قائمة، ومادامت العقيدة الإيديولوجية للحاكم تتحكم برقاب الجميع، تحت سلطان الدين. ولديه، فإن الخلاص يكمن فقط في اكتمال "مهمة التاريخ" بالمضي في سيرورة التطور الرأسمالي، والتي تنتهي حتما إلى قيام المجتمع الاشتراكي العقلاني الذي "ينزع حجاب الدين الحاجز، و يقدم للإنسان، في المقابل، علاقات واضحة تماما وعقلانية مع بني جنسه ومع الطبيعة. ومن ثم فقد رأى ماركس الشاب أن "المسألة لم تعد تتعلق بعد اليوم بصراع الإنسان العلماني مع الكاهن الموجود خارج ذاته، بل بصراعه مع الكاهن الموجود داخل ذاته، أي مع طبيعته الكهنوتية".

كما أكد فرويد على ضرورة الإقرار بأن الأوهام الدينية تعبر عن رغبات بشرية قوية تتوق للإشباع، وبأن الدين بوصفه "عصا استحواذيا شاملاً" يقوم على قمع الدوافع الغرائزية وتحويلها، وقد آن الأوان للبشرية كي "تبلغ سن الرشد"، وتتخلى عن نرجسيتها الطفولية، وتقبل مبدأ الواقع، وتتصالح مع الثقافة، وتتجاوز كل الاستيلاءات الناجمة عن أشكال الحرمان والتحكم بالغرائز التي تتطلبها هذه الثقافة.



أما نيتشه فقد أمات الله صراحا لأجل أن يتحرر الإنسان. لقد فعل الرجل أمرا يضاد كل ما حدث في التاريخ، فبينما شهد التاريخ مرارا موت قتل الإنسان قربانا على مذبح الإله، قام نيتشه بقتل الله على مذبح الإنسان، قربانا لحريته، ودليلا على تحرره وانطلاقه من جديد على بساط التاريخ، بعد طول جمود وعجز وموت وركود استمر بطول العهد المسيحي. "فمن أجل إغناء الله، على الإنسان أن يكون فقيرا، ولكي يكون الله كل شيء، على الإنسان أن يكون لا شيء. كان هذا سر القدرة الإلهية المطلقة والعجز الإنساني، وقد آن أوان أن يطالب البشر باسترجاع الجوهر الذاتي الاستلاب الذي أسقطوه على السماوات. وأن الأوان للحد من نكران الملذات، والزهد الديني اللاغي للذات بكل أشكاله". ولكن من يستطع القيام بتلك المهمة ليس هو الإنسان العادي، الذي أفقده الجمود الطويل حيويته، وغرائزه الطبيعية الفعالة، بل الإنسان المتفوق وحده (السوبرمان)، القادر على تجاوز الأخلاق العادية المضمنة في سياق الخير والشر التقليديين، إلى أخلاقية جديدة تكمن فيما وراءهما معا، من شأنها التغلب على العدمية وتقادي الكوارث الوشيكة التي تترص بالمجتمعات الحديثة.

نزعم هنا أن تلك الرؤية تظل قاصرة عن تقدير دور الدين في عالمنا، وهو قصور يتبدى على مستويات ثلاثة أساسية:

على المستوى الأول: ثمة إغفال لدور الدين في ترقية الرؤية الإنسانية للعالم؛ فالنقل الديني وما اشتمل عليه من رؤى معرفية وخيال ثقافي تجاه الطبيعة والمجتمع والإنسان، كان أكثر تطورا بكثير عما سبقه من التقليد السحري بالغ السذاجة؛ حيث يمكن للساحر (الشامان) القيام بأعمال يتحكم من خلالها في حركة العالم وأقدار البشر. أو تقليد أسطوري يرجع حركة الطبيعة إلى خرافات محض، حيث العراك بين الأبطال والجبابرة أنتج الكون، وجعل الطبيعة تأخذ ذلك الشكل. أو تقليد أرواحي رأى في الطبيعة كائنا حيا، وجعل لكل ظاهرة إلها خاصا، يمكن استرضائه عبر أفعال وطقوس بذاتها، سعيا إلى توظيفه لصالح الإنسان.. وهكذا.



والبادي لنا أن الوحي التوحيدي، من خلال تصويره لكون مخلوق وطبيعة مسخرة للإنسان، وعن إرادة إله أعلى يتحكم في حركة الكون ضامنا لانتظام سيره، وفي حركة الطبيعة ضامنا لاتساق قوانينها الداخلية، كان أكثر تقدما بكثير عن تلك الرؤى الأسطورية والسحرية والأرواحية القديمة، التي قامت على الفوضى والرغبة واللاانتظام بالكلية، ومن ثم يمكن اعتبار الدين وما صاغه من تقليد معرفي محطة أساسية على طريق العقلنة الحديثة، عندما أزال السحر القديم من قلب ظواهر الطبيعة نفسها، مؤكدا على تجانسها الكلي، وانتظامها الدقيق، وقوانينها الصارمة، وهي العناصر التي كان ممكنا تطويرها إلى رؤية حديثة وتجريبية.

وعلى المستوى الثاني ثمة انحراف بالدور الأساسي للدين، من كونه رؤية شاملة للوجود إلى كونه نسقا معرفيا وظيفته تقديم تحليلات جزئية للعالم الطبيعي. وفي هذا السياق يتبدى الدين كشكل بدائي للعلم، عجز تدريجيا أن يمنح للإنسان صورة موضوعية عن الحقيقة، ومن ثم تعين عليه الانسحاب أمام أشكال العلم الأكثر حداثة، حيث الصرامة المنهجية والروح الشككية هي الأقدر على إعطاء صورة أكثر موضوعية عن الحقيقة. وهنا يصبح مفهوم الألوهية أقرب إلى نظرية فيزيائية بدائية، ومفهوم النبوة مجرد نظرية نفسية متقدمة، ومفهوم الوحي تصور خرافي متهالك أمام النظريات الفلكية الحديثة، وهكذا فما أن يتقدم العلم، ويستتير العقل الإنساني، حتى تسقط تلك المفاهيم: الله، النبوة، الوحي، لأنها ليست سوى أكثر من شموع بالية انتهت صلاحيتها مع سطوع الكهرباء الساحق في ليل الإنسان الداجي. ومن ثم نشأ الفهم الذائع عن وجود علاقة طردية وضرورية بين التنوير والإلحاد، حتى صار رفض الدين معيارا لتقدمية الشخص، الذي يصبح أكثر استتارة بالضرورة كلما صار أقل إيمانا، وأقل استتارة كلما كان أكثر إيمانا؛ بما يرتبه ذلك الإيمان من التزام بتصورات اعتقادية ونظم أخلاقية.

وعلى المستوى الثالث ثمة اختزال جغرافي / حضاري للدين في التجربة المسيحية الأوروبية التي سادت العصر الوسيط، باعتبارها الأكثر تمثيلا لادعاءات الدين في ترسيم



معالم الحقيقة، حيث أنتج الكتاب المقدس بذاته، أو بحسب التأويلات المتوالية له في عهده القديم، والجديد، رؤية معرفية للكون تتسم بآفات التحديد الدقيق، والطابع المغلق، ومن ثم كان من الطبيعي أن تصطدم بالنظريات العلمية الحديثة، المنفتحة على الجديد، والقائمة على النزعة النسبية، خصوصا نظريات من قبيل: مركزية الأرض، والتطور، وعمر الكون، والطوفان، الأمر الذي أنتج صراعا حديا بين منطق العلم الجديد، ورؤية الكتاب المقدس، التي تفتقد للإحكام المنهجي ناهيك عن الصدق التاريخي. وأيضا ثمة اختزال آخر لفلسفة التنوير في التيار الفرنسي اليعقوبي، الذي صاغ العلاقة الحدية هذه بين الدين والتنوير، على طريق إما وإما، وهي صيغة ترجع إلى عصر الثورة الفرنسية، رغم وجود تقاليد وتيارات أخرى داخل فلسفة التنوير يأتي على رأسها التقليد الإنجليزي المتصالح مع الدين، إلى درجة أبقت الملكة على رأس الكنيسة الأنجليكانية مثلما بقيت على رأس الدولة البريطانية. وكذلك التقليد الألماني المثالي، الذي يبدي تصالحا عميقا مع التنوير.

وفي هذا السياق نتصور أن المثالية الألمانية، قياسا إلى جل تيارات الفكر الغربي، تقدم نموذجا للعقلانية الدينية نراه الأنجع في إلهام الفكر العربي المعاصر، وفي تجسير الهوة المشهودة بين الإسلام والتنوير، إذ ترى في مسار الألوهية محاولات إنسانية متوالية لخلق أشكال تصور للمقدس، أكثر ملائمة للحظة المعاشة. فتعدد أنماط تصور الله هو وحده القادر على جعل الدين شعورا متقدما، حتى لا يتحول إلى مجرد مظهر خارجي جامد. هذا التقليد يمثل صيرورة ممتدة، غير أن دقات خمس تبقى محورية في تياره العام يتوجب الوقوف عندها.

الدقة الأولى تكمن في "جوتولد ليسنج" (1729-1781) الذي عبر عن جوهر التنوير الروحي بجلاء وبساطة، مؤكدا على أن متعة الإنسان لا تنحصر في امتلاكه للحقيقة، وإنما في الجهد الذي يبذله من أجل محاولة بلوغها، لأن ملكات الإنسان لا تنمو بامتلاك الحقيقة، بل بالبحث عنها، حيث امتلاك الإنسان للشيء يميل به إلى الركود



والتكاسل والغرور، قائلاً على نحو مباشر: "لو أن الله وضع الحقائق كلها في يميني، ووضع في يساري شوقنا المستمر إليها- وإن أخطأناها دائماً- ثم خيرني، لسارعت إلى اختيار ما في يساره، قائلاً له: رحماك يا الله، فإن الحق الخالص لك أنت وحدك!".

حاول ليسنج في كتابه (تربية الجنس البشري)، أن يزيل الفهم الشائع عن تناقض ضروري (متوهم) بين العقل والإيمان، مؤكداً على أن قوة التطور التاريخي تترك أثرها في ارتقاء العقل البشري، وفي نمو الاعتقاد التوحيدي معاً، إذ نظر إلى الدين كوحي ولكن، أيضاً، ككشف متقدم، يزداد العقل تفهماً له واستنارة به بمرور الزمان كما يزداد الفرد معرفة بتدرجه في مراحل التعليم، حيث اعتقد لسنج في وجود ثلاث مراحل مرت بها التربية الدينية للجنس البشري. في المرحلة الأولى أي الطفولة ارتفع اليهود إلى تصور وحدانية الله واقتصر هذا عليهم، وكان ما استهوهم في هذه المرحلة هو المعاني الحسية كالعقاب والثواب. ولكن بغير إيمان بحياة أخروية. غير أن المبادئ الأولى لا تناسب غير سن معينة، وعلى هذا فلقد تجاوز البشر هذه المبادئ التي وردت في العهد القديم، وتهيأ الجنس البشري لاستقبال الخطوة الثانية في التعلم. أما الخطوة الثانية هذه فتناظر مرحلة الصبا أو المسيحية التي دعت إلى إله عالمي وإلى نقاء الإنسان من الداخل كإعداد لخلود الشخصية. وفي الخطوة الثالثة يقدر للبشرية أن تنمو أكثر فأكثر فتبلغ مرحلة النضج، فتدرك عقلانياً ما كانت تتقبله كوحي يوماً من الأيام، ومن ثم تطور من تصورها لله والسلوك البشري إلى ما هو أرقى.

وهنا نلاحظ مدى إيمان لسنج بالعناية الإلهية للتاريخ، وهو إيمان طالما ميز التنوير الألماني الذي لم يتصف إطلاقاً بعدائه للدين كالتنوير الفرنسي. فلهذه، كانت حركة التاريخ خاضعة لتوجيه الله من البداية إلى النهاية. ولما كان من العسير تحقيق كل شيء دفعة واحدة، وكما يحدث في نظام تعليم الفرد، حيث تنمو قدرات الإنسان بنظام يبعد عن العشوائية، فقد راعى الله في وحيه اتباع نسق معين ومتدرج في رسالته إلى البشر.



أما الدفقة الثانية في تيار التنوير الألماني فتمثل في الإضافة الخطيرة التي قدمها إيمانويل كانط، عبر نزعته النقدية التي تجاوزت البحث التقليدي عن الله، أو عن الوجود الحق للأشياء، إلى محاولة فحص (العقل الإنساني) نفسه باعتباره الأداة أو الملكة التي يقوم الإنسان من خلالها بتحصيل المعرفة، والتأكد من كونه أداة صالحة لها أم لا، قادرة عليها على نحو مطلق أم بشكل نسبي؟. وقد كان من نتيجة هذا التصور أن ارتدّ العقل الإنساني إلى نفسه، يفحصها قبل أن يتورط في فحص الوجود، حيث توصل كانط إلى حقيقة مفادها أن العقل الإنساني قادر على المعرفة، وصالح للنهوض بمسئوليته، ولكن صلاحيته غير مطلقة، وقدرته ليست كاملة، بل محصورة في نطاق عالم الظواهر والوقائع، فإذا ما تجاوز هذا العالم إلى ما فوقه، والطبيعة إلى ما بعدها، حيث قضايا الألوهية، والخلود، والحرية، كان ذلك أمراً غير مبرر، يتناقض مع قدراته، ويطوح به إلى بحر الظلمات، وكهوف الشك، فما عاد قادراً على بلوغ اليقين الذي يبرر الإيمان.

وهكذا قدم كانط للفكر الغربي إحدى أجل الخدمات في تاريخه حتى اليوم، ربما مع مفهوم الجدل الهيجلي، فقبل كانط كان الإيمان يحتاج إلى تدليل عقلي على وجود الكائن المستحق للإيمان، أي الله. وطالما لم يكن ممكناً إثبات هذه الحقيقة تجريبياً كان الطريق مفتوحاً للشك، معبداً للإلحاد أو اللا أدريّة، وكان الاتهام بالتناقض يبدو مبرراً بين أن تكون مؤمناً، وأن تكون عقلانياً، وهو التناقض الذي كان ديكرت قد قفز عليه عندما تورط في الادعاء بقدرته على تقديم البرهان على وجود الله بنفس قدرته على تقديم البرهان الخاص بتساوي طرفي معادلة رياضية، يفترض أنهما متعادلان يقينا.

لقد تأسس الادعاء الديكرتي في الحقيقة على الفيزياء الكلاسيكية السابقة على نيوتن، وأيضاً على قاعدة المنطق الأرسطي القائل بوحدة الحقيقة، والقائم على مبدأ عدم التناقض، فالصدق أبدي، وكذلك الكذب، ولا مكان لموقف ثالث توفيق، فكل طرف من طرفي هذه الثنائية هو خبر عن حقيقة أبدية لا تتغير. ولا شك أن كليهما، أي الفيزياء الكلاسيكية، والمنطق الأرسطي، سابقان على التجريبية الحديثة، المنهجية والشككية،



المصاحبة لفيزياء نيوتن الحديثة، ولمنطق هيجل الجدلي، ولنتخيل حجم الشكوك التي كان ممكنا إثارتها في مواجهة ادعاء ديكارت خلال تلك القرون التالية على رحيله لو لم يقدم كانط تأسيسه الجديد للعلاقة بين العقل والإيمان، عندما تمكن من قلبها رأسا على عقب، مطالبا الملحد بإثبات عدم وجود الله، بدلا من مطالبة المؤمن بإثبات وجوده، منتصرا في النهاية لفكرة أن الحقيقة الإلهية، لفرط تساميتها وليس لفرط ذبولها، غير قابلة سواء للإثبات أو للنفي التجريبيين، فهي حقيقة فوق العقل وليست ضده، حقيقة سامية على عالمنا، ومن ثم متسامية على عقلنا الإنساني الذي لا يمكنه فحصها تجريبيا وتوثيقها تحليليا على المنوال الذي يقوم به إزاء العالم وقضاياها، والطبيعة وقوانينها، والمجتمع وسننه، بل يمكن بلوغها فقط بالوعي الإنساني الشامل والحدس الكلي، بما فيه من عقل يعقل، وضمير يهجس، وحدوس تكشف، وهنا صار ممكنا للعالم أن يكون مؤمنا إذا هداه ضميره وألهمته حدوسه، أو أن يكون عالما ملحدا إذا ما غاب ضميره وانقطعت حدوسه، ومن ثم انحل التناقض الذي تصورته الفلسفة الحديثة مزمنًا أو حتميا بين العقل والإيمان، وتجاوز الفكر الغربي مأزقه التاريخي، ولوجا إلى مرحلة أعلى في تطوره لا تزال تحكمه حتى الآن، أو بالأحرى تصوغ التيار الأساسي فيه، من دون إنكار لوجود تيارات أخرى وإن كانت أكثر هامشية، وأقل حضورا، بالقياس إلى النزعة النقدية.

وأما الدفقة الثالثة، فأنت من هيجل الذي قدم إضافة عميقة لما كان قد ذهب إليه ليسنج في نزعته الارتقائية على صعيد إدراك المقدس، فالأمر لدى هيجل لم يعد مجرد عبور خارجي/ شكلي من شريعة إلى أخرى، أو تجاوز تاريخي لمرحلة دخولا في أخرى أحدث، بل تحول إلى نزعة باطنية عميقة صار التجاوز فيها أمرا داخليا، واستحال العبور داخلها هو من طريقة للمعرفة إلى طريقة أخرى، ولذا فقد استبدلت المراحل الثلاث لدى ليسنج بما يمكن تسميته أنساق الحقيقة الكلية الثلاث لدى هيجل (الفن والدين والفلسفة). ولم يعد الأمر محض خطة إلهية لتعليم الجنس البشري، على طريق اكتساب وعيه بالمطلق الإلهي، بل هو نزوع إنساني جواني لإدراك الحقيقة المطلقة أو (الروح المطلق)، فالإنسان لدى هيجل يعيش داخل التاريخ في عملية كشف متوالية لا تتوقف عند وعيه



بالله، بل تمتد إلى وعيه بذاته هو، حيث تكتمل عملية إدراك الروح المطلق، مع تمام إدراكه لجوهره الخالص عبر متواليه الفن والدين والفلسفة، التي تتعاضد جميعها في الكشف عن الحقيقة المطلقة (الألوهية)، ولكن ليس بوصفها حقيقة واقعية أو خارجية تماما يكشف عنها العلم تحليليا، أو داخلية صرفة يكفي لإدراكها الفن، أو حتى مفارقة تماما ينقلها إلينا الوحي، ولكن بوصفها حقيقة شاملة باطنية وعقلية وغيبية في آن، تتكامل الملكات الإنسانية مع الوحي الإلهي في كشف كنهها، والعيش بداخلها.

وأما الدفقة الرابعة في تيار التنوير الألماني المثالي، فأنت من عالم الاجتماع الديني الكبير ماكس فيبر الذي تمكن من إعادة صوغ العلاقة بين المسيحية، ك (دين مجرد) غير منشغل بالحياة العملية ولا بتغيير الواقع ولا بالتحكم في سيرورة الحركة التاريخية، وبين الواقع الأوروبي الحديث نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث تبدت أوروبا في مركز العالم، سواء فكريا عبر نزعة التمرکز حول الذات، أو استراتيجيا عبر النزعة الكولونيالية للسيطرة على العالم.

ولتوضيح أهمية ذلك التحول نقول إن الدين الذي بشر به المسيح وكشفت عنه الأنجيل الأولى، كان دينا بسيطا ومثاليا، يمثل إجابة على سؤال: كيف تحيا في ذاتك وتواجهها، أي تقمع غرائزها ومطالبها، وليس إجابة على سؤال: كيف تعيش في العالم، وتغيره للأفضل؛ إذ تنبذ المسيحية الأولى أي توجه لتغيير العالم الخارجي، وتتنظر إليه على أنه نوع من خداع النفس لأن العالم الحقيقي هو ملكوت السماء، وعلى الإنسان أن يرتقي إليه تاركا خلفه عالما الخاوي، الذي لا سبيل إلى إصلاحه، للشيطان وحده، يهيمن عليه أو حتى يتورط فيه!. وقد نهضت الكاثوليكية، أي تأسست ونمت، في ظل علاقة مراوغة مع المفهوم المسيحي عن الإنسان، إذ كان عليها أن تدير موروثا روحانيا يدعي السمو على الأرض من ناحية، فيما تحيا معضلات الواقع من ناحية أخرى. وقد دفع بها هذان الأمران إلى تناقض وجودي بين روحانية نظرية، ودنيوية عملية، كانت



كفته تميل باستمرار ضد الروحانية الصرفة، ولصالح الانشغال الدنيوي في قلب الإقطاع الأوروبي.

ولأن الصيغة الوجودية الأكثر إلهاً للسلوك الإنساني هي صيغة "الزاهد النشيط"، كونها تخلق دوافع العمل وتولد الرغبة في الكفاح، من دون أن تحيله إلى نزعة تغلب تسعى إلى الاكتناز أو التسلط على الآخرين، فقد كان خلق هذه الصيغة بمثابة المهمة الكبرى لحركة الإصلاح الديني، التي شكلت، في صيغتها الكالفينية، نمطا جديدا من الأخلاق البروتستانتية (النشطة) لا يمكن تقدير أهميته إلا في سياق تطور المسيحية الكاثوليكية، وربما الأديان الهندية (البرهمية والبوذية)، التي طالما عولت على صناعة المؤمن "الزاهد"، ولم تكثر بخلق المؤمن "النشيط"، على منوال ما كان متصورا قيامه نظريا في اليهودية والإسلام، حيث الحافز الدنيوي للنشاط قائما وموفورا منذ البداية.

وهكذا كانت الكالفينية في جزء منها تتأغما مع مطالب عصر جديد يعول كثيرا على النشاط وإن استبقى نوعا من الزهد، عندما جعلت النجاح المادي أمرا، ليس فقط مشروعا طالما كان مؤسسا على الرغبة في تنمية الثروة مع الزهد في الاستمتاع بها، بل ومرغوبا أيضا كطريق للخلاص الأخروي وعلامة على النجاح في تحقيقه. وفي الجزء الآخر منها كانت محاولة لصوغ شرط إنساني جديد، أكثر توازنا، يتصور للإنسان دورا أكبر في السيطرة على المصير، وحفز حركة التاريخ.. إنسان يمكن وصفه بـ "التكاملي"، ينطوي على شعور الإيمان ومشاعر الحب ولكنه دائم التطلع إلى بلوغ المعرفة وتنمية الثروة. إنسان لا يطمح إلى روحانية الزاهد، ولكنه لا ينفلت من جوهر الشرط الأخلاقي والقيمي.

لقد ذهب فيبر بهذه الصيغة إلى مداها الذي عكس تغلغل النظرة التنويرية المتفائلة في الروح المسيحية، وذلك في أطروحته الكلاسيكية "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" التي مزجت بين المسيحية والرأسمالية مزجا خلاقا، وأعادت اكتشاف الطهرانية الكالفينية، باعتبارها الفكرة التي صاغت عقلية الربح والفائدة، كخصائص أساسية



للرأسمالية الحديثة. لقد استخلص فيبر في بداية القرن العشرين فهما جديدا للروح البروتستانتية، جوهره أن على المسيحي المخلص أن يتبع النداء الداخلي بالاستفادة من الفرصة التي منحها الله له، فإذا أراه الله طريقا يستطيع أن يحصل منه قانونيا على أكثر مما يحصل عليه من طريق آخر من دون أن يظلم روحه أو أي روح أخرى، ورفض ذلك واختار الطريق الأقل ربحا، فإنه يعارض واحدا من أهداف عمله ويرفض أن يكون خليفة الله، ويرفض أن يقبل عطاياه ويستخدمها من أجله عندما يطلب ذلك، فقد يكبح ليكون غنيا من أجل الله، وليس من أجل متعة الجسد أو الإثم.

وهنا أكد فيبر على نوع من النفعية الاقتصادية "الحكيمة" كقبول الاقتراض بالفائدة والتأكيد على المقولة الأساسية بشأن "المسيحي النشط" الخادم لله ولإخوانه بفضل نشاطه، استنادا إلى رفض كالفن الصارم لذلك التصور الأسطوري التقليدي عن دائن واسع الثروة ومدين بائس، وإلى أنه لا يمقت مبدأ البحث عن الربح، طالما ظل ربح هذا الإنسان المسيحي، الموجود بفضل العناية الإلهية، غير مضر للآخرين. فالثروة إذن، وحسب الأخلاق البروتستانتية الجديدة، سيئة فقط لو كانت إغراء بالكل والتمتع بالحياة الآثمة، واكتسابها سيئ عندما يكون بهدف العيش فيما بعد في اللهو واللامبالاة، ولكنها عندما تكون أداء لواجب في العمل، لا تكون فقط مقبولة أخلاقيا بل مفروضة فعليا. وقد أدى هذا النوع من التفكير إلى عقلنة الحياة الاقتصادية، فاتخذ الزمن أو الوقت دلالة جديدة معادلة للقيمة والمال، ولم يعد التاجر الناجح هو حتما مسيحي مكرم. وهكذا تطور زهد نشيط نابع من فكرة عمل إنساني مستحب من الله، يمثل النجاح فيه تجليا لرضى الله عن هذا الإنسان. ذلك الشعور بات هو الموقف الديني المحبذ لدى البرجوازيين، بديلا عن التأمل القديم، الشارد، في الملكوت الإلهي.

وهكذا قدم فيبر، تعويلا على كالفن، حلا ناجزا للمعضلة الثانية بين الدين والتنوير وهي معضلة الحرية، فلم يعد المؤمن المسيحي زاهدا وعاجزا بالضرورة، بل نشيطا وحرًا أيضا بفعل الإيمان نفسه. وذلك بعد أن كان لسنج وكانط قدما حلا ناجعا للمعضلة



الأولى، العقلانية، بإزالة التناقض بين كون الإنسان عقلانياً، وكونه مؤمناً، فكان ذلك إيذاناً بتلاقي الدين مع العقلانية والحرية، على طريق انبلاج العصر الحديث في التقليد الألماني المثالي، الذي أسهم بقوة في صيرورة تجاوز الفكر الغربي لمأزقه التاريخي، ولوجاً إلى مرحلة أعلى في نضوجه وتطوره لا تزال تحكم التيار الأساسي فيه حتى الآن.

أما الدفقة الخامسة والأخيرة فتتمثل في الإسهامات التي لا يزال يقدمها الفيلسوف الألماني يورجن هابرماس وبالذات بحثه عن "الدين في المجال العام"؛ فالتسامح لديه أساس الثقافة الديمقراطية، ولكنه يتشكل من مسار ذي اتجاهين دائماً، فلا ينبغي أن يتسامح المؤمنون فقط إزاء اعتقادات الآخرين وقناعاتهم، بل من واجب العلمانيين والملحدين أن يثمنوا قناعات المتدينين، حتى لا تصبح العلمنة سلطة عليا تضبط الأمور وتحدد لنا ما ينبغي التفكير فيه وما لا ينبغي التفكير فيه؛ بمعنى ألا تتحول إلى أيديولوجيا شمولية مغلقة تطرح نفسها على الجميع في صورة أمر فكري أو سياسي أو أخلاقي، فعندها سوف تتوقف عن محاولة الفهم، وتتحول إلى ما يشبه سلطة الفقهاء المسلمين المتشددین الآن، أو سلطة الأكليروس المسيحي في العصور الوسطى، محض تصور سلفي عن أصل ما، وإن اختلفت منابع الأصولية العلمانية، كسلفية تنسب إلى أصل مرجعي حديث، عن الأصولية الدينية كسلفية تنسب إلى أصل مرجعي قديم.

هكذا يتبدى مفهوم هابرماس الأثير عن المجتمع ما بعد العلماني وكأنه طريق ثالث، قادر على تحقيق مصالحة تاريخية بين الدين والعلمانية، يلتمس استمرارية الجماعات المتدينة في محيط يستمر في ممارسة العلمنة، فحال ما بعد العلمانية بقدر ما هي حال تاريخية فإنها تحيل إلى وضع ينفرد ويتجاوز تاريخه. إنها الحال التي تتجاوز التطرف الديني والعلماني معاً، ولا تقر بهيمنة الدين أو اللاديني، بل تدعو إلى تفاعل الجميع على أرضها، سواء كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين. الأمر الذي يتيح الشراكة بين المؤمن وغيره في رحاب فضاء تعددي يقبل الدين مشاركاً في صنع التشريع بطريقة علمانية، حيث يمكن للمتدين أن يعيش في إطار العلمانية، فيما العلماني لا يستطيع



العيش تحت مظلة الديني، ما يجعل في قبول الدستور العلماني منفعة للمواطن المتدين،
إذا ما أراد العيش في إطار أشمل من هويته الضيقة وعالمه المغلق، ينعم فيه بالدولة
القانونية والهوية الكونية.



شؤون اجتماعية

مجلة فصلية علمية محكمة تعنى بالعلوم الإنسانية والاجتماعية

رئيس التحرير : د. محمد عبد الله المطوع

نائب رئيس التحرير : د. ندى مرتضى صباح

تنشر البحوث والدراسات في شتى العلوم الإنسانية والاجتماعية والتي تتوفر فيها الأصالة والمنهجية العلمية

تعطى الأولوية مرحلياً للبحوث والدراسات حول مجتمع الإمارات لسد النقص في هذا المجال.

تخصص زاوية لمناقشة الآراء والأفكار التي تتناول قضايا فكرية وثقافية واجتماعية معاصرة
ترحب بمساهمة الأكاديميين والمثقفين في اختصاصات العلوم الإنسانية والاجتماعية كافة.

مواعيد الصدور

مارس (ربيع) - يونيو (صيف) - سبتمبر (خريف) - ديسمبر (شتاء)

الاشتراكات

للأفراد سنوياً : في الإمارات : 40 درهماً * في الوطن العربي : 15 دولاراً * في الخارج : 20 دولاراً
للمؤسسات سنوياً : في الإمارات : 100 درهم * في الخارج : 40 دولاراً

تصدر عن جمعية الاجتماعيين والجامعة الأمريكية في الشارقة

ترسل البحوث والدراسات بعنوان رئيس تحرير مجلة شؤون اجتماعية
ص.ب.: 3745 هاتف: 5567722 (6-971) فاكس: 5567227 (6-971)

جمعية الاجتماعيين - الشارقة - دولة الإمارات العربية المتحدة

E-mail:social@emirates.net.ae

www.sociological-uae.org.ae





سليم سحاب
شعبان يوسف

- يوميات أم كلثوم الغنائية
- القصة العربية العلمية



أم كلثوم .. يوميات الغناء

سليم سحاب

قائد أوركسترا مؤرخ ومحلل وناقد موسيقي - لبنان

فيما كنت أبحث في مكتبتي عن كتب لم أرها في المكتبة من زمن بعيد، وكنت أظنني قد فقدتها، وجدت كتباً وملفاً. الكتيب كان نص مسرحية الفنان اللبناني الكبير منصور رحباني "آخر أيام سقراط" التي قدمها مع فرقته على مسرح دار الأوبرا المصرية في رمضان سنة 1999. ولما تصفحت الكتيب وجدته مليئاً بملاحظات الشخصية الكاملة عن المسرحية التي دونتها عليه في أثناء حضوري المسرحية ما يجعلها أهلاً لأن تتحول إلى دراسة كبيرة عن المسرحية سوف أكتبها قريباً إن شاء الله. أما المجلد فهذه قصته:

في آخر رحلة لي مع الفرقة القومية العربية للموسيقى إلى الكويت في التسعينات من القرن المنصرم، هذه الفرقة التي أسستها في دار الأوبرا المصرية وترأسها سنة 1989 وتركها للقادة الشباب من الفرقة سنة 2014 بعد 25 سنة من قيادتي لها، في هذه الرحلة اتصل بي أحد المواطنين الكويتيين ويدعى عبدالله صابغ ودعاني لزيارته في منزله ليبريني أشياء مهمة موجودة عنده. بصراحة، ومع اعتذاري للسيد عبدالله، لم أنو القيام بهذه الزيارة لضيق الوقت أولاً، ثم لشكي في أن السيد عبدالله سيريني شيئاً مهماً فكيف بالأشياء كما وعد. لكن الفضول غلبني أخيراً وقررت أن أقتطع من الوقت المتبقي لي لأزور هذا الرجل احتراماً لرغبته بعد إصراره العجيب.

وما أن دخلت منزله حتى شعرت بأني في محراب لفن سيدة الغناء العربي أم كلثوم، وكأن المكان لم يكن مكان سكن الرجل مع عائلته، بل شقة خاصة للسماع، سماع أم كلثوم فقط. الجدران مليئة بصورها: قديماً وحديثاً، مع آلات موسيقية: أعواد وغيرها.



دخلنا المحراب الأساسي: غرفة السماع وإذا بها مليئة بأنظمة الصوت وآلات السمع: آلات تسجيل كاسيت، وآلات تسجيل بكر، ومسجلات سلك ماركوني وبسترشيكاجو والتي يصل وزنها لعشرات الكيلوجرامات، وآلات سماع الأسطوانات المدمجة المضغوطة (C.D). كانت المفاجأة الأولى أن الرجل قال لي إنه ينقل كل تراث أم كلثوم الموجود عنده في أشرطة الكاسيت والبكر والسلك إلى الأسطوانات المدمجة وأراني آلة تسجيل الأسطوانات هذه. ثم أسمعني أسطوانة منها سجل عليها أغنية لأم كلثوم قديمة أعترف بأنني لم أسمعها في حياتي لغاية ذلك الوقت إلاّ عنده للمرة الأولى مع صفاء مذهل في الصوت. الأغنية كانت "أتعجل العمر" التي أصبحت شبه معروفة الآن.

وفي أثناء الجلسة هذه أراني هذا الرجل مجلد حاويات من النايلون في كل حاوية ورقة طبع على صفحة واحدة منها أسماء أغنيات لأم كلثوم ووعدني بأن يهديني نسخة منه. وانتهت زيارتي له وعدت إلى الفندق ونسيت الموضوع. وإذا في يوم سفري بل بالتحديد ساعة مغادرة الفندق، إذ بي أرى الرجل حاملا المجلد الذي وعدني به، فأخذته معي ومرت الأيام..

وأخذتني طاحونة العمل في القاهرة نسيت معه المجلد وما يحتويه، إلى أن وجدته في خضم بيتي في مكتبي مع كتب قديمة هامة. فقررت أن أخذه معي إلى لبنان لدراسته في أثناء أسبوع إجازة قضيته. وفي لبنان أعطيته لأخي الأصغر فيكتور وهو دكتور في التاريخ الإسلامي ومولع بالموسيقى (كجميع أعضاء أسرتنا) لدرجة أنه حول نفسه إلى مؤرخ للموسيقى العربية وله فيها لغاية الآن أكثر من عشرة كتب. غير موسوعة أم كلثوم التي ألفها أخونا الأكبر إلياس الذي له هو الآخر باع كبير في الكتابة الموسيقية بالرغم من كونه محللا وكاتبا سياسيا. وإذا بنا نكتشف في هذا المجلد ثروة معلوماتية بكل أبعادها وتفاصيلها التوثيقية لتاريخ تراث سيدة الغناء العربي أم كلثوم.



فما كان من أخي أمام هذا الاكتشاف إلا أنه نسخ هذه الأوراق وحولها إلى مجلد سماه: أم كلثوم يوميات الغناء (1925-1973) -عبدالله الصايغ- الكويت. وصنع منه عدة نسخ أعطاني منها واحدة.

أم كلثوم - يوميات الغناء

ينقسم المجلد إلى مواسم غناء أم كلثوم ابتداء من موسم 1925 -1926 لغاية آخر موسم قبل وفاتها 1973 كما يدل اسمه. ويبدأ بتوثيق أغانياتها التي سجلت على الأسطوانات دون البكر بما في ذلك أغاني الأفلام. ويمضي التوثيق التاريخي في وقته في هذا المجلد إلى أن يذكر مثلاً أنه في موسم 1935 - 1936 عرض فيلم "وداد" وفيه ثماني أغنيات سجلت كلها على أسطوانات ما عدا واحدة وهي "حيّوا الربيع"، ويذكر حتى اسم الشركة المسجلة وهي "أوديون".

هذه الدقة في التأريخ والتوثيق نجدها في كل صفحة من المجلد حيث سجل سنة الموسم الغنائي مع اسم الأغنية مع سنة التسجيل مع اسم شركة الأسطوانات المسجلة. إلى أن نصل إلى موسم 1937-1938 وهي بداية مواسمها التي بدأت تسجيلها على السلك لنصل إلى دقة متناهية في التوثيق لكل تفصيل له علاقة بتاريخ الأغنية المقدمة (ما عدا اسم المؤلف والملحن ومقام الأغنية وسنأتي لاحقاً على هذا الموضوع) ابتداء من تاريخ الحفلة، مكان إقامتها والمرة التي تغني فيه الأغنية ومدتها بالدقيقة، فمثلاً الحلقة الأولى المسجلة على أسطوانات أقامتها أم كلثوم يوم 7 أكتوبر تشرين أول 1937 في قاعة إيوارث التذكارية (في الجامعة الأمريكية بالقاهرة) وغنت فيها: النوم يداعب عيون حبيبي (للمرة الأولى) ومدتها 42 دقيقة، فاكر لما كنت جنبي (للمرة الأولى) 48 دقيقة، سلوا كؤوس الطلا (للمرة الأولى) 51 دقيقة.

وتلاحق دقة هذا الرجل الأغنيات التي غنتها "الست" خارج حفلاتها وذلك برصد جميع أعداد مجلة "الإذاعة المصرية" في ذلك الوقت (وقد أراني مجموعات مجلة الإذاعة



عنده واسمها "الراديو المصري" التي بدأت تصدر في شهر مارس/آذار سنة 1935) كأن يقول إن في فترة موسم 1938-1939 وفي 18 نوفمبر/ تشرين ثاني 1938 أذاعت إذاعة القاهرة قصيدة "يا أغاني السماء" وذلك في يوم ولادة الأميرة فيال، أو مثلاً في 20 يناير/كانون ثاني 1939 أذاعت إذاعة القاهرة قصيدة "ارفع ي مصر أعلام السرور" بمناسبة مرور عام على زواج الملك فاروق من الملكة فريدة.

ويلحق هذا الرجل في دقته المعلوماتية حتى الأغنيات التي سُجّلت خارج الحفلات على أسطوانات وذلك موسماً موسماً كأن يرصد مثلاً .. وقد تمّ خلال هذا الموسم(38-39) تسجيل أغنية "حرمت أقول بتحبيني" على أسطوانات "أوديون" ولهذه الأغنية نسختان مختلفتان".

ومن يتابع تصفّح هذا المجلد الفريد يكتشف أغنيات غنتها أم كلثوم ولها تسجيلات عديدة نسمع باسمها للمرة الأولى، أو في أحسن الأحوال نسمع اسمها فقط ولكنها مختفية من إذاعاتنا نهائياً. من هذه الأغنيات ثلاث غنتها أم كلثوم في حفلة أول فبراير/شباط 1940 في قاعة إيورات: "هايم في بحر الحياة" (للمرة الثالثة) 43 دقيقة، "إيه أسمى الحب" (للمرة الثانية) 49 دقيقة، "ناسية ودادي وجافاني (للمرة الثانية) 40 دقيقة.

ومن المؤشرات الهامة التي يلفت المجلد انتباهنا لها بدقة معلوماته: طول الحفلة بالنسبة لطول الأغنية على الأسطوانة. فمثلاً قدمت أم كلثوم في 2مايو/آيار 1940 في قاعة إيورات التذكارية حفلة غنت فيها من ضمن ثلاث أغنيات نشيد الجامعة بمدة 38 دقيقة. ومن يعلم أن هذا النشيد سجل على وجه واحد في أسطوانة (سجل على وجهها الآخر أغنية على بلد المحبوب) ومن يعلم أن صفحة الأسطوانة الصغيرة ذات 78 لفة في الدقيقة مدتها ثلاث دقائق (زائد أو ناقص عشر ثوانٍ) يدرك مدى مقدرة أم كلثوم على الارتجال الغنائي وقد استطاعت بهذه المقدرة الهائلة أن تغني أغنية قصيرة جداً (ثلاث دقائق) بمدة 38 دقيقة. وهذا يذكرنا بعقري آخر وهو محمد عبدالوهاب. فقد روى لي صديقي الملحن اللبناني المرحوم خالد أبو النصر اليافي أنه في الثلاثينيات من القرن



المنصرم حضر حفلة لمحمد عبدالوهاب في مدينة حلب السورية غنى فيها من ضمن ما غنى مونولوج "كثير يا قلبي الذل عليك" وطوله لا يتعدى التسع دقائق ما غناه على مدى ساعتين ونصف. وقال لي إن المسرح تحول إلى بحر أحمر من الطرابيش التي حذفت عليه. وروى لي أيضا الإذاعي والإعلامي الكبير الصديق المرحوم جلال معوض أن أكثر شيء ندم عليه يوم أن سلمه محمد عبدالوهاب تسجيل حفلة أغنية "كل ده كان ليه" وقد غناها بحضور الزعيم جمال عبدالناصر وكانت مدتها ساعة وأربعين دقيقة. وجعله يقسم ألا يسمعها لأحد. وفي اليوم التالي أخذ محمد عبدالوهاب منه الشريط وقام مع مهندس الصوت بعملية مونتاج أزال منه مدة ساعة كاملة. والتسجيل المعروف للأغنية الآن مدته بعد المونتاج: أربعون دقيقة فقط أما الساعة فيه عبارة عن ارتجالات لم تعجب (!؟!) المطرب. تخيلوا هذه الخسارة الفنية في سبيل الكمال الفني.

تساؤلات بلا أجوبة

لكن هذا المجلد يضعنا أحيانا أمام تساؤلات بلا أجوبة. فمثلا يذكر أن من أغنيات فيلم "دنانير" الثماني (1939-1940) لم يسجل منها على أسطوانات سوى ثلاث فقط: الزهر في الروض تبسم (رامي القصبجي) بكرى السفر لزكريا أحمد وأحمد رامي وطاب النسيم العليل لرامي والقصبجي على أسطوانات الشركة العربية. كما تم تسجيل أغنية يا ليلة العيد (رامي/السنباطي) لحساب شركة كايروفون. تساؤل يطرح نفسه: لماذا لم تسجل أم كلثوم باقي أغنيات الفيلم على أسطوانات ومنها قصائد رائجة: رحلت عنك ساجعات الطيور (أو القصر المهجور لرامي والقصبجي) و "قولي لطيفك ينتثي عن مضجعي" وهي تحفة شعرية تنسب إلى الشريف الرضي ويقال إنها لديك الجن الحمصي، ومن المرات النادرة جدا التي لحن فيها زكريا أحمد قصيدة، وقد تكون هي وقصيدة "أيها الرائح المجد" التي تنسب أيضا للشريف الرضي القصائد المتوسطة الطول الوحيدة التي لحنها زكريا أحمد، إذا استثنينا أبياتا شعرية قصيرة لحن عليها موشحين وهما "يا بعيد الدار" (عباس



بن الأحنف) و "بنت كرم يتموها أمها" وأغنية "زهر الربيع ونشيد "عرب الشرق" (صالح جودت) موشح "حامل الهوى تعب" (أبو نواس).

ونتابع رحلتنا في هذا الكنز العجيب لنكتشف أن أم كلثوم غنت في حفلات أغنيات عرفناها فقط من تسجيلات الأستوديو على أسطوانات كأغنياتها "ما دام تحب بتكر ليه" تحفة محمد القصبجي ورامي (1941) مع رائحته "رق الحبيب" 1944، قبل أن تنقطع نهائيا عن أخذ ألحان من هذا العبقرى فتقتل فيه الرغبة بالعطاء وهو الذي كان يرى في صوته المنفذ العظيم لأعماله العظيمة، فيتحول شيئا فشيئا إلى عازف عود يجلس وراءها ليعزف ألحانا لم تكن في الكثير من الأحيان في مستوى عبقرية التلحينية وتفكيره الموسيقي الفذ. نعود إلى "ما دام تحب" لنقول إنها قُدمت لأول مرة في حفلة مسرح حديقة الأزيكية يوم 6 فبراير - شباط 1941، واستمرت "الست" في غناء هذه الأغنية 49 دقيقة بينما مدة تسجيلها المعروف على الأسطوانة ست دقائق فقط. ويكشف لنا المجلد عن أن أم كلثوم لم تكن تغني في الحفلات الأغنيات الملحنة خصيصا لها وحسب بل إنها كانت تغني أغاني من التراث القديم كقصيدة "أراك عصي الدمع" (ألحان عبده الحامولي القرن التاسع عشر) وقدمتها في 6 مارس/آذار 1941 في مسرح الأزيكية بمدة 43 دقيقة بينما مدة تسجيلها المعروف على الأسطوانة ست دقائق فقط. وكان من المعروف خطأ أن ملحن هذه القصيدة هو أبو العلا محمد وقد سجلتها أم كلثوم سنة 1928 أي سنة واحدة بعد وفاة معلمها أبي العلا محمد سنة 1927 وقد حفظتها منه. (ولعل هذا هو سبب اعتقادها بأنها من تلحينه. ولعل هذا أيضا هو سبب غنائها أغنية لم تكن ملحنة خصيصا لها. لكن المؤرخ محمود كامل أثبت لها (كما روى لي شخصيا رحمه الله أن الملحن هو عبده الحامولي بواسطة أسطوانة دائرية (أسطوانة بمعنى الكلمة) بشكل كوب مسجلة في القرن التاسع عشر (عرفت مصر الأسطوانات المسطحة سنة 1903) وفي هذه الأسطوانة "مطيباتي" يصرخ في أثناء العزف والغناء "هاالله هاالله يا سي عبده". وكان من المعروف أن الوحيد الذي كان معروفا بلقب "سي عبده" هو عبده الحامولي.



ونصل إلى موسم 1942-1943 لنفاجاً بأنه لم تسجل أية أغنية من فيلم عايدة على أسطوانات. والجدير بالذكر أننا لم نعرف هذه الأغاني إلاّ عندما ظهرت الأغاني المسجلة على الكاسيت في الستينات من القرن المنصرم، فبدأت تظهر الشركات التي تسجل هذه الأغاني على كاسيتات إشباعاً لرغبة ملايين الهواة. تجدر الإشارة هنا أنه إلى جانب الأغنيات القصيرة فإن الفيلم يحتوي على مسمع من "أوبرا عايدة" تشارك فيه مع أم كلثوم في الغناء كل من إبراهيم حمّوده (المطرب الوحيد الذي غنى مع أم كلثوم ديالوجات) وعبدالغني السيد وفتحية أحمد وأنطون سليم. ويعتبر هذا المسمع من أهم ما لحن السنباطي في حياته ويكشف عن خيال تلحيني درامي عملاق حدّه كثيراً تلحين الأغنيات الفردية. تجدر الإشارة أيضاً أنه ولأسباب تجارية بحتة اقتطع من الفيلم المسمع الذي لحنه محمد القصبجي بحجة أنه كان ثقیلاً على أسماع مشاهدي الفيلم. وهكذا فُقد هذا المسمع إلى الأبد (وأرجو أن أكون مخطئاً في حكمي هذا). حتى أنه لم يُترك ولو نسخة واحدة من الفيلم كاملة للتاريخ كي نعرف هل سبب الاقتطاع هو فعلاً فشل القصبجي في تلحين المسمع أم أنه كان سابقاً لعصره لدرجة عدم فهم جمهور تلك الفترة لعبقرية هذا الملحن. لقد فقدنا للأبد قدرتنا على تحديد السبب وفقد القصبجي حكم التاريخ العادل والحاسم.

ونكتشف أيضاً من هذا المجلد أن أم كلثوم لم تغن فقط في أول خميس من كل شهر بل إن هناك مواسم كثيرة غنت فيها أكثر من حفلة في الشهر (غير الحفلات الرسمية الخاصة)، كموسم 1944 حين غنت حفلتين في مسرح الأريكية في الثالث والسابع عشر من فبراير/شباط. وفي نفس السنة 1944 غنت حفلتين في شهر مايو/أيار وحفلة يونيه/حزيران. والجدير بالذكر أنها غنت "الأولة في الغرام" في حفلي مايو/أيار كما غنتها في حفلة يونيه/حزيران (ثلاث مرات في أسبوعين) كما أنها غنت في حفلي يونيه/حزيران أهل الهوى مرتين.

تفاصيل تاريخية



ويسجل المجلد تفاصيل تاريخية مهمة في حياة أم كلثوم كأن يذكر أن حفلة 24 سبتمبر/أيلول 1944 التي أقيمت في النادي الأهلي "حضرها الملك فاروق وأنعم على الأنسة أم كلثوم بنيشان الكمال المصري".

وغنت في هذه الحفلة " أنا في انتظارك" للمرة السادسة (31 دقيقة). "يا ليلة العيد آنستينا" للمرة الأولى (35 دقيقة). والكويليه الأخير من أغنية "حبيبي يسعد أوقاته" وأظن أن هذا هو التسجيل الذي يُقاطع عدة مرات بهتاف أم كلثوم بعبارة "لك يا ملكي" بدلاً من "وانت حبيبي".

وتصل إلى موسم 1944-1945 وإلى فيلم سلامة الذي لم تسجل على أسطوانات من أغانيه التسع سوى أربع. ومن أغنيات هذا الفيلم العظيمة التي لم تسجل على أسطوانات الموال الرائع "برضاك يا خالقي" (بيرم التونسي -زكريا أحمد) والموشح الرائع يا بعيد الدار (عباس ابن الأحنف -زكريا أحمد). وقد تكون هذه المرة الوحيدة التي سجلت فيها أم كلثوم موشحاً. وفي الموسم 1945-1946 نكتشف أنه من أغنيات محمد القصبجي التي كانت تغنيها بكثرة في مواسمها السابقة لم تُبقِ أم كلثوم إلا على "رق الحبيب" التي غنتها في حفلة مسرح حديقة الأزبكية في 6 ديسمبر/كانون أول 1945 للمرة الأولى في 18 سبتمبر/أيلول 1941 في نفس المسرح مع أغنيتي "هَلَّتْ ليالي القمر" و "الأمل".

ويخبرنا لنا موسم 1946 مفاجأة غريبة. ففي 12 يناير/كانون ثاني 1946 "أذاعت إذاعة القاهرة قصيدة سلوا قلبي بمناسبة زيارة عاهل المملكة العربية السعودية الملك عبدالعزيز آل سعود لمصر وفيها أضافت الأنسة أم كلثوم خمسة أبيات من شعر الشاعر محمد الأسمر تنوه فيها بجلالة الملك عبدالعزيز و بجلالة الملك فاروق". وتجدر الإشارة هنا أن محمد الأسمر هو ناظم قصيدة " زهر الربيع يُرى أم سادة نجب" التي لحنها زكريا أحمد وشدت بها أم كلثوم في حفلة خاصة أقيمت في الثاني والعشرين من مارس/آذار



1945 ابتهاجا بمناسبة توقيع ميثاق جامعة الدول العربية. وقد تمّ في هذا الموسم تسجيل قصيدة السودان لحساب كايروفون.

وتأتى سنة 1947 لنعرف أن أم كلثوم غنت في أثنائه "وفي قصر القبة العامر أغنية الزفة (مبروك على سموك وسموه) حيث زفت بهذه الأغنية صاحبة السمو الأميرة فوزية في ليلة زواجها من الأمير محمد شاهبور". وفي هذه السنة نزل إلى الأسواق فيلم فاطمة الذي تضمن تسع أغاني تم تسجيل ست منها فقط على أسطوانات، ومن بينها أغنية "ظلموني الناس". ولهذا التسجيل قصة روتها لي الصديقة العزيزة والمطربة اللبنانية العظيمة وزميلتي في إذاعة لبنان حيث كنت أعمل، قبل استقراري النهائي في مصر، لغاية 1988، المرحومة زكية حمدان. ففي يوم تسجيل الأغنية كانت لزكية حمدان مساء هذا اليوم حفلة غنائية على أحد مسارح القاهرة. وكان من ضمن العازفين في فرقته عازف الناي سيد سالم وهو أيضا العازف في الفرقة المصاحبة لأم كلثوم. ولما ذكرته زكية حمدان بخصوص حضوره مساءً أكد لها بأنه آتٍ لا محالة: فالتسجيل سيبدأ في العاشرة صباحا وسينتهي بالتأكيد قبل الحفلة. وجاء وقت بدء الحفلة وسيد سالم غائب فبدأت زكية حمدان بالعزف على العود (وهي ماهرة في العزف) وغناء الليالي. ومرّ الوقت وسيد سالم لم يحضر فقررت زكية البدء من دونه. وفي منتصف الوصلة الأولى وصل سيد وتسلسل من بين الكواليس إلى مقعده وياشر بالعزف مع الفرقة. ولما بدأت زكية تكلمه عن تأخره عند انتهاء الوصلة الأولى أقسم لها أنه وصل مباشرة من الاستوديو. فقد ظلت أم كلثوم تعيد التسجيل لغاية ما بدأت في البكاء من شدة التأثر وهي تغني. وكان هذا هو التسجيل الذي طُبع على الأسطوانة التي نعرفها. ويأتي 4 ديسمبر/كانون أول لتغني فيه أم كلثوم للمرة الوحيدة أغنيتهما العظيمة حلم (حبيب قلبي وإفاني في مياعده- بيرم التونسي- زكريا أحمد). وحلم ليست الأغنية الوحيدة التي ليس لها سوى تسجيل واحد فقط فهناك لائحة في هذا المجلد العجيب تعرض هذه الأغاني سوف نأتي على ذكرها لاحقا.



وتتوالى المواسم الغنائية مروراً بأغنيات أذاعتها إذاعة القاهرة ولم تسجل على أسطوانات. إلى أن نصل إلى موسم 1949 فنلاحظ أن أم كلثوم بدأت تقلل من تقديم أغنية "رق الحبيب" لمرة واحدة في السنة إلى أن جاءت سنة 1956 حين قدمتها لآخر مرة في حفلة 3 مايو/أيار بعد انقطاع سنتين. هنا نطرح سؤالاً كبيراً حول علاقة أم كلثوم بهذا الملحن العبقري والمفكر الموسيقي الفذ محمد القصبجي. هل كانت أم كلثوم تقدم مونولوج "رق الحبيب" إيماناً منها بعبقرية هذا الملحن ولحنه أم ترضية منها له (من باب رفع العتب). وتسبب الكسر النفسي الصاعق الذي أحدثته أم كلثوم عند هذا العبقري بتوقفه عن التلحين، بعد أن رفضت ما قدمه من ألحان تلت "ما دام تحب" و "رق الحبيب". فلم يعد لهذا العبقري الكبير وجود موسيقي إلا كملحن لبعض أغاني الأفلام وكعازف عود لآخر يوم في حياته وراء التي أحبها لدرجة العبادة والتي نفذت بصوتها أعماله وأفكاره وتجديداته الموسيقية العبقرية.

أم كلثوم وثورة يوليو

وتتوالى المواسم لنصل إلى ثورة يوليو/تموز 1952 فيبدأ نوع جديد من الأغنيات يدخل إلى حفلات "الست"، وهي الأغاني الوطنية. ولابد من التنويه إلى اجتماعات مجلس قيادة الثورة (بعد فترة من توقف الإذاعة المصرية عن إذاعة أغاني أم كلثوم لسبب أغانيها للملك السابق وبناء على أمر من أحد المسؤولين الجدد). فقد اقترح أحد الضباط الشباب بالاستمرار في منع أغاني أم كلثوم من الإذاعة المصرية بسبب أغانيها للعهد السابق وبمناسبات عائلية تخص هذا العهد، فما كان من الزعيم جمال عبدالناصر إلا أن أجاب: الشمس كانت تشرق في عهد الملك فاروق فهل نلغيها؟ وكانت هذه الكلمات كفيلاً لإنهاء الموضوع إلى الأبد.

أول أغنية وطنية قدمتها أم كلثوم في حفلة عامة بعد الثورة كانت "مصر تتحدث عن نفسها" (وقف الخلق - حافظ إبراهيم - رياض السنباطي) في حفلة دار سينما ريفولي في بداية موسم 1952-1953 يوم 2 أكتوبر/تشرين أول وكانت قد غنتها للمرة الأولى



في 7 ديسمبر/كانون أول 1950 وهي أول أغنية وطنية تغنيها في حفلة 2 أكتوبر/تشرين أول 1952 كان تحية منها للثورة. والدليل القاطع على ذلك هو الأغنية الثانية في نفس الحفلة "صوت الوطن" مصر التي في خاطري وفي فمي (أحمد رامي - رياض السنباطي) التي غنتها للمرة الأولى. وكانت الثالثة الأغاني في هذه الحفلة أغنيتهما العاطفية الوجدانية الرثائية التأملية التعبيرية "سهران لوحدي" (أحمد رامي - رياض السنباطي) التي غنتها للمرة الحادية والعشرين.

وتجدر الإشارة هنا أن بعد موسم 1952 لم تعد أم كلثوم تقدم أغنيات وطنية إلا في حفلات المناسبات الوطنية التي كانت تشارك فيها في نادى الضباط.

ويذكر هذا المجلد العجيب أن أم كلثوم ألغت ثلاث حفلات وهي : 2 إبريل/نيسان و 7 مايو/أيار و 4 يونيو/حزيران 1953 بسبب سفرها للعلاج. ولرحلة العلاج هذه قصة لا بد من ذكرها للتاريخ وقد رواها لي الدكتور الصديق حسن محمد الحفناوي ابن الدكتور الحفناوي رفيق عمر أم كلثوم. فبعد وصول أم كلثوم وزوجها الدكتور إلى مستشفى ماي كلينك التابعة للبحرية الأمريكية، وهي أهم مستشفى في أمريكا، جاء الطبيب المتخصص في الحنجرة ليكشف عليها. وما أن نظر داخل فمها حتى صرخ oh, my Gad (يا إلهي) وانطلق راكضا. ويروي لي الصديق الدكتور حسن الحفناوي بأن أباه ارتعب وظن أن الدكتور اكتشف شيئا سيئا. وما هي إلا ثوان حتى رجع ومعه طابور من الأطباء الشباب وقال لهم: "انظروا إلى هذه الحبال الصوتية فإنكم لن تروا مثلها في حياتكم".

وبرز بعد الثورة أسلوب جديد في تقديم أغنيات أم كلثوم الوطنية من خلال الإذاعة دون تسجيلها على أسطوانات. من هذه الأغنيات قصيدة الجلاء "بأبي وروحي" التي أداعتها إذاعة القاهرة يوم 12 إبريل/نيسان 1954، (أحمد شوقي - رياض السنباطي) في أعقاب توقيع اتفاقية الجلاء ولم تسجل على أسطوانات، ونشيد الجلاء "يا مصر إن الحق جاء" بمناسبة عيد الجلاء ولم يسجل على أسطوانات. ويأتي موسم 1955 وتأتي أم كلثوم إلى لبنان لتقديم حفلتين: الأولى في قصر الاونيسكو الذي دمره الطيران الإسرائيلي



في أثناء اجتياح لبنان سنة 1982. الحفلة أقيمت يوم 25 أغسطس/آب 1955. الحفلة الثانية أقيمت في بيسين عاليه يوم 29 أغسطس/آب ومن ضمن ما غنت في هذه الحفلة "يا ظالمني" للمرة السابعة عشرة. ومن سمع هذا التسجيل يدرك أنه من أعظم تسجيلات هذه الأغنية إن لم يكن أعظمها. وكان من حظي أنني سمعت نقل هذه الحفلة المباشر من إذاعة بيروت. وكنت آنذاك مراهقا. فكانت هذه الأغنية بداية اهتمامي بأم كلثوم وأغانيها.

وفي موسم 1955-1956 يظهر البرنامج الإذاعي العظيم تأليفا وتمثيلاً وإخراجاً وتلحيناً وغناءً: "رابعة العدوية" ليظهر عبقرية ملحنين شابين: محمد الموجي وكمال الطويل، ويضعهما جنباً إلى جنب مع إحدى أعظم الشخصيات الموسيقية في تاريخ الموسيقى العربية: رياض السنباطي ويكفي أن نذكر "انقروا الدفوف" و"وحانة الأقدار" التي أبدع فيها طاهر أبو فاشا (مؤلف البرنامج وناظم كل أغانيه) وتجلت فيها الصوفية الرومانسية العميقة عند محمد الموجي، كما ظهر في "لغيرك ما مددت يدا" تأثر كمال الطويل الخلاق بصوفية رياض السنباطي. ونواصل رحلتنا على صفحات هذا المجلد لنصل إلى أكتوبر/تشرين أول 1956 حين أذاعت إذاعة القاهرة نشيد "والله زمان يا سلاحي" (صلاح جاهين-كمال الطويل) في أعتاب العدوان الثلاثي على مصر والذي برأبي لا يقل إطلاقاً عظمة لحنية وطاقاة تاريخية عن نشيد المارسيّاز الفرنسي. كما أصدرت "صوت القاهرة" أسطوانة له. وهذا النشيد كان أوفر حظاً من أغنية "صوت السلام" (بيرم التونسي - رياض السنباطي) التي "أذاعتها إذاعة القاهرة يوم 4 ديسمبر/كانون أول 1956 في ذكرى عيد النصر بعد العدوان الثلاثي على مصر ولم تُسجل على أسطوانة".

وتتوالى المواسم الغنائية فتذيع إذاعة القاهرة يوم 26 فبراير/شباط 1958 قصيدة "يا ربي الفيحاء" بمناسبة إعلان الوحدة بين مصر وسورية ولم تُسجل على أسطوانة وتأتي التحية لثورة العراق في أغنيتين، فتذاع يوم 23 يوليو/تموز 1958 أغنية منصور



يا ثورة أحرار (عبدالفتاح مصطفى- رياض السنباطي) ولم تُسجَل على أسطوانة. وبعدها بأسبوع (30 يوليو/تموز) تطلق إذاعة القاهرة قصيدة "بغداد يا قلعة الأسود" (محمود حسن إسماعيل -رياض السنباطي) التي صدرت على أسطوانة "صوت القاهرة".

ويأتي موسم 1962-1963، وتأتي أم كلثوم إلى لبنان حيث أقامت حفلتين في بسين عاليه. الأولى في 5 سبتمبر/أيلول وغنت فيها "هسيبك للزمن" - "أنساك" - و "أنا وأنت ظلمنا الحب". والحفلة الثانية في 8 سبتمبر/أيلول حيث غنت "حيرت قلبي معاك" - "ليلي ونهاري" - و "حب إيه". وهذه الحفلة الوحيدة التي سمعت فيها أم كلثوم شخصيا. وكنت أتابع بمنظار مكبر أصابع "العظمة" (عباس فؤاد) على الكونتراباص، وأصبع إبراهيم العفيفي المذهلة على الرق والعمالقة محمد عبده صالح على القانون ومحمد القصبجي على العود. وقد اكتشفت في هذه الحفلة "كاريزما" أم كلثوم التاريخية وتأثيرها المغناطيسي على جمهورها، هذا التأثير الذي لم أكن أفهمه إطلاقا قبل حضوري لحفلتها شخصيا. فقد كنت أقف على مقعدي صارخا مطالبا مع الآخرين بالإعادة. وكان من المفروض أن أحضرها شخصيا للمرة الثانية في حفلاتها التي كان من المقرر إقامتها في موسكو (في أثناء وجودي هناك للدراسة) في أواخر سبتمبر/ أيلول 1970، لولا إلغاء هذه الحفلات وعودة أم كلثوم وفرقتها لمصر بعد إعلان وفاة الزعيم جمال عبدالناصر.

أم كلثوم بعد نكسة 1967

ونصل إلى نكسة 1967 فتحصل تغييرات أساسية في هيكلية وطابع حفلات أم كلثوم. التغيير الأول هو أنه ابتداء من مارس/أذار 1968 اختصرت أم كلثوم عدد أغانياتها في الحفلة الواحدة إلى اثنتين بعد أن كانت لغاية آخر حفلة من سنة 1967 تغني ثلاث أغنيات في الحفلة الواحدة. التغيير الثاني معنوي يخص أم كلثوم بشكل شخصي. فقد بدأت تتبرع بمدخول حفلاتها بعد النكسة للمجهود الحربي معطية بذلك مثالا مبهرًا للالتزام المعنوي والمادي للغناء بقضايا وطنه وشعبه. التغيير الثالث طرأ على



أغنيات أم كلثوم نفسها هو اتجاهها إلى قصائد لشعراء عرب وكانت نيتها غناء قصيدة من كل بلد عربي معلنة بذلك الوحدة العربية من خلال الفن. فبدأت بقصيدة "هذه ليلتي" لجورج جرداق (من لبنان) غنتها للمرة الأولى يوم 5 سبتمبر/أيلول 1968 في دار سينما قصر النيل. وأذكر الحديث مع الشاعر، عقب انتهاء الأغنية، في إذاعة القاهرة. فعند سؤال المذيع له: "نفسك في إيه بعد ما غنت لك أم كلثوم قصيدة من ألحان محمد عبدالوهاب، فجاء رد الشاعر مقتضبا جدا: "نفسى أموت".

بعد هذه ليلتي غنت أم كلثوم "طريق واحد" لنزار قباني (سوريا) ومن ألحان محمد عبدالوهاب والتي أذيعت من إذاعة القاهرة لأول مرة يوم سبتمبر/أيلول 1969. وتبع "طريق واحد" قصيدة "أغدا ألقاك؟" لهادي آدم (السودان) (محمد عبدالوهاب) في حفلة 6 مايو/أيار 1971 في سينما قصر النيل، و "من أجل عينيك" لعبدالله الفيصل آل سعود 1972/1/6 في سينما قصر النيل (وقد سبق أن غنت للشاعر نفسه "ثورة الشك" 1958/12/4 و الأغنيتان من تلحين رياض السنباطي.

ولأغنية "طريق واحد" قصة طريفة، فنحن ندين لتعنّت أم كلثوم بوجود تسجيل للأغنية بصوت محمد عبدالوهاب فعندما جاء وقت التسجيل فوجئت "الست" بعدم وجود الأوركسترا وبطلب من مهندس الصوت منها بوضع السماعة على رأسها. ولما أفهمها الملحن بأن اللحن قد سبق تسجيله على سكك (تراكات) ولم يبق سوى تسجيل صوتها، وأن هذه هي أحدث طريقة للتسجيل، رفضت رفضا قاطعا معللة رفضها بأن هذه الطريقة تلغي الانسجام المفروض وجوده بين المغني والعازفين عند التسجيل. ولم تقتنع بالفكرة إلا بعدما قام محمد عبدالوهاب بتسجيل الأغنية بصوته وإسماعها لها. شكرا لأم كلثوم. ولدي أيضا تسجيل بصوت أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب معا وأظنه من صنع أحد مهندسي الصوت العاشق للصوتين معا.

ونتابع رحلتنا مع المجلد العجيب لغاية آخر حفلة علنية قدمتها أم كلثوم في 4 يناير/كانون الثاني 1973 في دار سينما قصر النيل حيث غنت "ليلة حب" (أحمد شفيق



كامل - محمد عبدالوهاب) و "القلب يعشق كل جميل" (التحفة الصوفية الروحانية لبيرم التونسي ورياض السنباطي). بعد هذه الحفلة ألغت أم كلثوم ثلاث حفلات كان من المفروض أن تقدمها في 3 فبراير/شباط و 1 مارس/آذار و 5 إبريل/نيسان 1973.

بعد ذلك تسجل أم كلثوم أغنية " حكم علينا الهوى (عبدالوهاب محمد - بليغ حمدي) لشركة "صوت القاهرة" ولم تغنّها في حفلة عامة. وتكون هذه آخر أغنية تقدمها أم كلثوم لعشاق فنّها وصوتها.

بعد هذا التوثيق الدقيق لكل حفلات أم كلثوم ينتقل المجلد إلى تفاصيل مهمة جدا في تاريخ هذه الفنانة التاريخية، فيسرد المؤلف أنه منذ افتتاح إذاعة القاهرة في 31 مايو/أيار 1934 بدأت الإذاعة تغري أم كلثوم بطريقتين: الأولى عبر وصلتين في الشهر وكانت هذه الوصلات تُسمّى "مغنى وآلات" ومدة كل وصلة نصف ساعة تقريبا، وقد ابتدأت أم كلثوم في هذه الوصلات وعددها ثماني أغنيات. والطريقة الثانية كانت بإذاعة حفلاتها الشهرية (أول خميس من كل شهر). ويعترف مؤلف المجلد بتواضع بأنه لم يستطع إعداد كشف كامل بما غنته أم كلثوم في حفلاتها من شهر أكتوبر/تشرين أول 1934 لغاية يونيه/حزيران 1937 ولكنه يؤكد بأنه يعلم "أن الآنسة أم كلثوم قد أنشدت الأغاني التالية في حفلاتها بين أكتوبر/تشرين أول ويونيه/حزيران 1937" يلي ذلك لائحة تتضمن 45 أغنية.

ويتضمن المجلد صفحة في غاية الأهمية وهي عبارة عن صورة من صفحة من مجلة "الإذاعة المصرية" وفيها حديث مع د. مصطفى المدرّس رئيس مركز تراث أم كلثوم في لندن الذي يضم 1400 تسجيل لأم كلثوم مع العلم (كما يؤكد) أنها غنّت 350 أغنية فقط طوال خمسين سنة. وتأتي المفاجأة الكبرى على لسان الدكتور المدرّس: "لقد أعددنا قائمة بالأغاني التي سوف نزود بها مكتبة الإذاعة المصرية، والتي لم تكن موجودة بها وهي" يلي ذلك لائحة بثلاثين أغنية مع اسم الشاعر والملحن وسنة تسجيلها على أسطوانة أو من حفلة عامة.



بعد ذلك 16 صفحة بأسماء أغانٍ مع أسماء ناظميها وملحنيها وهي عبارة عن مراسلة بين مؤلف المجلد وإذاعة القاهرة يطلب فيها تصحيح أسماء المؤلفين والملحنين في حال وجود خطأ عنده. وبنهاية هذه المراسلة نجد بخط المؤلف لائحة تضم خمس أغنيات لأم كلثوم لا يوجد منها إلا تسجيل واحد فقط هو تسجيل إذاعة القاهرة وهي: هلت ليالي القمر (أحمد رامي - رياض السنباطي) - اذكريني (أحمد رامي - رياض السنباطي) - يا طول عذابي (أحمد رامي - رياض السنباطي) - حلم (بيرم التونسي - زكريا أحمد) وغني الربيع (أحمد رامي - رياض السنباطي). بعد ذلك أربع صفحات تتضمن حفلات السيدة أم كلثوم في مصر وبها 65 أغنية مع عدد المرات التي غنتها بها وعدد التسجيلات الموجودة لكل أغنية مع عدد التسجيلات السيئة كل منها.

وينتهي المجلد لتسجيل على السيد عبدالله النقطة الوحيدة التي فاتته في عمله الرائع الحضاري الكبير هذا وهي عدم ذكر اسم مؤلف وملحن كل أغنية مع مقامها فيكون بذلك قد قدم عملاً كاملاً للتاريخ تستطيع أن تتباهى به أية مؤسسة تعنى بجمع التراث العربي مهما كبرت وعلا شأنها.

ويطرح علينا المجلد ليس أسئلة وحسب بل مشاكل طرق للمحافظة على تراثنا الموسيقي.

أولاً نوجه تحية 200 مليون عربي من المحيط إلى الخليج للسيد عبدالله الصايغ الذي دفعه عشقه لفن كوكب الشرق أن يقوم بهذا العمل الوثائقي العلمي الراقي التاريخي لما بُذل في جمعه من جهد وطول نفس ووقت وحب حقيقي بل عشق وأموال طائلة. ويأتي بأهميته مع موسوعة أم كلثوم للأخوين إلياس وفكتور سحاب (لبنان) كأهم عمليين موسوعيين تناولوا هذه الشخصية التاريخية في تاريخ الثقافة العربية المعاصرة.

السؤال الأول الكبير الذي يطرحه هذا المجلد وأنا أوجهه إلى جامعة الدول العربية من خلال مجلتها هذه: أين مؤسساتنا التي تعنى بجمع التراث من هذا العمل الفريد وهل لها اتصال مع مؤلفه الأستاذ عبدالله الصايغ (الكويت) من خلال ممثل دولة الكويت فيها؟



أو حتى سفير الكويت في القاهرة وهل استفادت من هذه المعلومات الفريدة في جمع وتأريخ وتصنيف تراث سيدة الغناء العربي؟

السؤال الثاني الكبير: أين الإذاعات المصرية وعلى رأسها إذاعة القاهرة وأين الإذاعات العربية من الكلام الذي ورد على لسان رئيس "مركز تراث أم كلثوم في لندن" الدكتور مصطفى المدرّس والذي يؤكد فيه أنه سوف يزود إذاعة القاهرة بثلاثين أغنية لأم كلثوم غير موجودة ولا تحتها موجودة عندنا في المجلد. هل أصبحت هذه الأغنيات في إذاعة القاهرة أم أن د. مصطفى لم يف بوعده بعد؟ وفي حالة عدم الوفاء بالوعد هل قام المسؤولون في الإذاعة بالاتصال بالدكتور مصطفى المدرّس للحصول على هذه التسجيلات وفي حال عدم حصول كل هذا أتوجه إلى الجامعة العربية من خلال مجلتها بالاهتمام الكلي بالموضوع و الاتصال بـ "مركز تراث أم كلثوم في لندن" الذي يضم 1400 تسجيل لكل أغنيات أم كلثوم.

إن هذه الثروة القومية الكبيرة لا يجوز أن تبقى هكذا في مهبط الريح أو خارج الوطن العربي في مركز لا نعرف عنه شيئاً. إنه تراث أم كلثوم!!!



القصة العربية العلمية

شعبان يوسف

كاتب وباحث مصري - القاهرة

في عام 1901 كتب الروائي الإنجليزي الشهير (ه.ج. ويلز) روايته البديعة "أول من وصل إلى القمر"، وكانت هناك تجارب روائية عديدة لهذا الكاتب في الخيال العلمي، استطاع من خلالها أن يثير عددا من القضايا التي يثيرها العقل البشري، والتي تطرح سلسلة تساؤلات مركبة، تساؤلات حول مستقبل العلم وضروبه، وفي هذه الرواية، تخيل ويلز صعود الإنسان إلى القمر بالفعل، والصدمة التي لاقاها هناك، وراح ويلز يضرب في أشكال عديدة من الخيال العلمي المشروع والأدبي، وكانت فكرة صعود الإنسان إلى القمر، تكاد تكون مستحيلة، ولكن الخيال الأدبي الممزوج بالبعد العلمي _عند ويلز_، استطاع أن يخترق الحواجز الواقعية المضروبة حول السرد الأدبي، والخيال الشعري، ليسرد بعض وقائع خيالية، مستندة إلى بعض وقائع واقعية مقبولة.

ولم تكن تلك التجربة الأدبية الجريئة التي أجراها ويلز جديدة كل الجدة على الحياة الإبداعية، لأن كاتباً يونانياً كان قد سبق ويلز بعدة قرون، كتب ما يشبه رواية، وأسماها "السفر إلى القمر"، وتخيل أن هناك مركبة ما، تجرّها بجعات، وسوف تصل هذه المركبة إلى القمر، وبالطبع لم تكن سردية اليوناني القديم تتطوي على التقنيات الفنية التي تحملها رواية الخيال العلمي المتقدمة، وبالتالي لم تكن تحمل فنيّات روائية ذات شأن متقدم كما حدث فيما بعد، ولكنها على الأقل كانت تحمل "أضغاث رواية الخيال العلمي"، تلك الرواية التي راحت تتطور بشكل لافت في القرن العشرين، ووجدت كتاباً لها ومبدعين، استطاعوا أن يصلوا بها إلى ذروات عديدة.



وفى عام 1969 هبط "نيل أرمسترونج" ، و"أدوين الدرين" على سطح القمر بالفعل، وبدأت تبدو في الآفاق علامات عصر جديد في الحياة البشرية، وفي تاريخ الإنسان عموماً، وكانت كلمات "أرمسترونج" المدوية التي هتف بها بعد أن وضع أقدامه على سطح القمر، بداية للانتباه الجاد إلى ما يكتبه الأدباء في مضمار العلم، إذ هتف قائلاً: "إنها مجرد خطوة قصيرة للإنسان، ولكنها وثبة عملاقة بالنسبة له"، ولم ينس كل المتابعين من الباحثين والنقاد والأدباء والمبدعين التجربة العملاقة التي خطتها موهبة ويلز في أوائل القرن.

وفي سبتمبر 1969 أجرت مجلة "الهلال" المصرية، تحقيقاً مثيراً حول هذه الخطوة العملاقة في تاريخ البشرية، واسترشدت المجلة بالمقولة التي أطلقها رواد الفضاء عندما قالوا: "جننا من أجل سلام البشرية جمعاء"، ووجهت المجلة سؤالاً يقول: "هل يتحقق هذا السلام بالفعل في المستقبل، وماذا تعني تلك الخطوة في العالم والتاريخ الإنساني العام؟"، وجاءت الإجابات مختلفة ومتنوعة، وكذلك مثيرة، وقال نجيب محفوظ: "إنني أتمنى أن أصعد إلى القمر.. هذه رغبة حقيقية عندي.. ولهذا فقد كان صعود الإنسان إلى القمر حدثاً أصابني بكثير من الدهشة والانبهار، ومع هذا فأنا أديب وفنان أقع في مأزقٍ أو قل في تناقضٍ وأنا أفكر في علاقة الأدب بالعلم بعد أن بلغ العلم هذه الذروة العالية من التقدم.. ترى ماذا سيكون موقف الفن في المستقبل في ظل هذا العصر العلمي الخطير الذي تم فيه غزو كوكب آخر بعيداً عن الأرض.."⁽¹⁾.

ويعبر نجيب محفوظ في المقال نفسه عن تخوفه من أن يكون دور الأدب والفن قد توقف، فبعد أن كان القمر مجالاً للسطوع والغزل والشفافية، أصبح حقيقة علمية تقبل التحليل المادي، والذي يبتعد كثيراً عن العواطف والرومانسيات التي كانت تتغلغل في القمر، وكانت تلك الغراميات الرومانسية تتخذ من القمر قريناً أعلى للمحبوب دون أدنى

(1) نجيب محفوظ، مجلة الهلال، القاهرة، سبتمبر 1969، ص 163



جدال، وما هو القمر يصبح حقيقة مادية، وبالتالي ستتحوّل هذه الحقيقة التي ظلّت قروناً طويلة جوهريّة، إلى حقيقة أخرى نقيضة.

ورغم أن نجيب محفوظ وضع عدة محاذير حول تطور علاقة العلم بالأدب والفن، نجد الكاتب والأديب إحسان عبد القدوس يذهب مذهبا آخر تماماً، ويضع عنواناً لمقاله "حتى بعد الوصول للقمر.. سيبقى دائماً كشمعة الليل في السماء للمحبين"، ويستطرد: "كان للقمر علاقته الوثيقة دائماً بوجدان الناس وعواطفهم بشكل عام، وبعاطفة الحب عندهم على نحو خاص.. وعلاقة القمر بالحب علاقة قديمة لعلمها وجدت منذ عرف الناس القمر وعرفوا الحب وأعتقد أن هذه العلاقة ستبقى مستقبلاً كما بقيت أبداً حتى بعد غزو القمر واكتشافه كحقيقة علمية مجردة"⁽²⁾.

وذهب إحسان عبد القدوس على عكس محفوظ إلى أن الحقيقة العلمية للأشياء، لن تلغى قيمتها الجمالية وسحرها الخاص، والتقدم الصناعي لا يتعارض مع الإحساس العاطفي للإنسان، وهذا يدفعنا بالتالي إلى أن العلم وحقائقه المتواترة على الحياة البشرية، تعطي أبعاداً جديدة للحياة، ربما لا نجد تفسيرات وجدانية لها إلا في الأدب بشكل عام، وفي الأدب الذي يستعين بالعلم بشكل خاص.

ونحن لا نتخذ موضوع "القمر" هنا إلا نموذجاً حياً وواضحاً قد جعل البشر على مدى التاريخ يضعون له حسابات وخيالات وتقديرات وصفات مختلفة، حتى أتى الأدباء والمبدعون قبل العلماء لتحويله إلى مساحة أخرى للتفسير، ولم يكن ويلز الذي وضع في القمر روايته البديعة مجرد سارد أو شاعر أو فنان، ولكنه كان صحافياً أريباً، وكان ذلك الصحفي يمزج بين العلم والفن والسرد عموماً، ولم يكن يكتب إبداعاً مجرداً عن رسالته الإنسانية التي حملها على عاتقه، فإلى جانب دراسته للصحافة، درس قواعد البلاغة القديمة، والعلوم الفيزيائية وغير الفيزيائية، ويقول سلامة موسى المنحاز للعلم دائماً

(2) إحسان عبد القدوس، المصدر السابق ص 165



: "حياة ويلز الأدبية منذ شرع يكتب حوالي عام 1895 إلى وفاته في عام 1945، هي تاريخ نصف قرن من التطور الذهني لكاتب عظيم إزاء التطورات والانقلابات العلمية والاقتصادية والسياسية، ومؤلفاته الأولى كلها تفاؤل واستبشار، العلوم تسود المعارف وتغريها، تزويد سلطة الإنسان على الأرض والسماء، الأمراض تنهزم وتتمحي، المحصولات الزراعية تزيد وتلغي الجوع..⁽³⁾، هذه كانت حياة ويلز، وهكذا جاءت موضوعاته لخدمة البشرية، وكانت رواياته تستلهم العلوم الوضعية، منذ مرحلة مبكرة، لذلك اعتبره الباحثون "أبو روايات الخيال العلمي".

وظلت مجهودات ه.ج.ويلز تلعب الدور الأعظم في إرشاد كل الخيال العلمي، وبالطبع تجاوز الكتاب مسألة القمر، والصعود إلى سطحه، ولكن الأمر اتخذ وضعاً شبيهاً جداً، وهو موضوع الذهاب إلى كواكب أخرى، وكثير من الكتاب عالجوا فكرة ازدحام الكرة الأرضية بالبشر، ولا بد أن تكون هناك حلول لتلك المشكلة التي يمكن أن تتعرض لها البشرية، فكانت عقول الأدباء تتخيل كيفية اقتحام الكواكب الأخرى، وهذا الأمر كان يستتبع تخيل تلك الكواكب والكائنات التي عليها، وكيف ستستقبل كائنات الكواكب الأخرى الكائنات الأرضية، مما يدفع الكتاب لإعمال آلة الخيال العلمي الجبارة، لوضع مواصفات وحكايات عديدة حول طبيعة إنسان الكواكب الأخرى.

ومن خلال ما سبق، ندرك أن كتابة روايات الخيال العلمي، تأتي وفقاً لوجود مشاكل مستعصية في الحياة، مثل ازدحام الكرة الأرضية، أو انتشار أمراض معينة وأصبحت شبه مستعصية على العلاج، ومن هنا يجد الخيال العلمي دوره، وينشط الأدباء في وضع المشكلة في سلسلة حكايات، وبالتالي يحاولون وضع حلول شبه خيالية، ومع تقدم كتابات الخيال العلمي، لا بد أن يحصل الأديب على قدر كبير من المعلومات

(3) سلامة موسى، هؤلاء علموني، دار المعارف، سلسلة اقرأ، القاهرة، يناير 1972، ص 221



المفيدة، تلك المعلومات التي يضعها الأديب في معملها، ثم يطورها في خياله، لتصبح فيما بعد مادة ثرية وخام في تجارب العلماء الحقيقيين.

ووجدت كتابات الخيال العلمي جهودا نقدية بالفعل، كما أن أبحاثا فكرية راحت تعمل لتطوير ذلك المجال وتفعيله، وبالتالي توالت الدراسات والمدارس، وراح من يضع فروقا بين الروايات العلمية، وهي الروايات التي تحاول تبسيط العلوم وتوصيله عبر روايات وحكايات سلسلة، كبديل للمعلومات الجافة التي يطرحها الباحثون في دراسات مركبة وخشنة، ثم هناك روايات الخيال العلمي، تلك الروايات التي تحاول حلّ الألغاز التي تستعصي على الحل في الأطر الواقعية، ثم هناك نوع ثالث، وهو روايات أو سرود الخرافة العلمية، وهذه تتوافر كثيرا في الكتب التراثية، خاصة في ما يشبه "ألف ليلة وليلة"، وبالطبع هناك تناقضات واضحة بين الخرافة والعلم، ولكن النقاد استطاعوا أن يتجاوزوا دقة المصطلح إلى روحه.

وهناك من النقاد والباحثين الذين وضعوا مواصفات وشروطا لكتابات الخيال العلمي، وذلك بعد الإقبال على ذلك النوع من الكتابة، وهناك دراسة رصينة وضعها الباحث عبد المجيد شكري، وعنوانها "الخيال العلمي في الأدب والفن"، وتطرق الكاتب إلى مناحٍ شتى في مواصفات وتنوع تلك الكتابات، وحاول أن يلخص الشروط الواجب توافرها في كتابات الخيال العلمي، أو الاقتضاء بها على الأقل، ورصدها في تسلسل منهجي، وأجملها هكذا:

"إن أول ما يميز أي عمل من أعمال الخيال العلمي هو الغرابة، أي أننا نكون أمام شيء غير مألوف، سواء أكان ذلك شخصيات أو عوالم أو ظواهر.

إنه شيء محتمل الحدوث في الحاضر، ويمكن أن يحدث في المستقبل، أو قد يكون قد حدث في الماضي ولم نعرف عنه شيئا، وجاء العمل الجديد ليكشف لنا عن ذلك الذي حدث.



إنه عمل لا تقدم فيه الصور الرمادية، فالأسود أسود، والأبيض أبيض، أي الخير خير كله، والشر شر كله، وبذلك يكون العمل منطقياً مع طبيعة العلم ذاته⁽⁴⁾.

ويسترسل الباحث في وضع شروط كتابات الخيال العلمي التي استقاها من دراسات عديدة في ذلك المجال، ولأن هذه الكتابات وجدت طريقها إلى الرواج بين القراء، فانكب الباحثون على تجديد رؤاهم ونظراتهم حول هذه الكتابات، وذلك لأنها: "تقدم في كثير من الأحيان (بوتوبيا) أو مدينة فاضلة، أو عالماً جديداً يمكن أن يلجأ إليه"⁽⁵⁾.

ولا يسعنا هنا سوى رصد أشهر الروايات التي كتبت في هذا المجال، وصارت شبه عيون أدب الخيال العلمي، ومن هذه الروايات "دكتور جيكل ومستر هايد"، وهي للكاتب الإسكتلندي روبرت لويس ستيفنسون، وقد نشرت عام 1886، واعتمدت بشكل لافت على علم النفس، وإبراز جانب الخير وجانب الشر في الإنسان، وهذه الجوانب هي إحدى المجالات التي تخوض فيها روايات الخيال العلمي، ويستطيع المؤلف أن يتيه بحثاً عن أحداث تنظم عملية الشر والخير المتخيلة، حتى ينتصر الخير أساساً.

ثم رواية "الإنسان الآلي"، للكاتب مارتين كايدين، والتي نتج عنها مسلسل "رجل يساوي ستة ملايين دولار"، وبطل الرواية شخصية غرائبية، استطاع أن يستبدل بعض أجزاء جسمه بأجزاء صناعية لتمنحه قوة خارقة في الإبصار والسمع والحركة، ومن خلال تلك الإمكانيات التي أتيحت له، استطاع تقديم موضوعات سياسية تخوض في الصراع الدولي وأسرار الجاسوسية في العالم، واستطاع أن يجنّد قواه الخارقة في تذليل أي عقبات تقف في وجهه لتسهيل كل المهمات التي يقوم بها.

(4) عبد المجيد شكري، مجلة الثقافة، تصدر عن وزارة الثقافة، القاهرة، يونيو 1980 ص 67

(5) عبد المجيد شكري، مجلة الثقافة، تصدر عن وزارة الثقافة، القاهرة، يونيو 1980 ص 67



وهناك بالطبع روايات راجت بشكل عالمي في الماضي القريب، وظلّت تطبع بشكل كثيف على مستوى العالم، وعلى رأسها "رحلات جليفر"، و"إنسان روسوم الآلي، وكوكب القردة"، وكثير من الروايات التي ترجمت إلى عشرات اللغات، وصارت بمثابة "روائع" من الأدب العالمي، وكلها روايات تتخذ من العلم في كل صوره الواقعية أو المتخيلة ويمكن حدوثها، أو خرافية ولا يمكن حدوثها على الإطلاق، ولكن كل هذه الروايات التي راجت وترجمت وجدت صدى طيباً عند الناس، وذلك ليس من باب التسلية فقط، أو تمضية الوقت في قراءة كتابات فائضة عن الحاجة، ولكنها كتابات بحثت عن مواطن إنسانية ما عند القارئ، ولاقت قبولاً منقطع النظير في روايات أدبية بشكل محض.

وبالإضافة إلى أن تلك الروايات التي سبق ذكرها اعتمدت على العلم بكافة صوره الواقعية والمتخيلة والخرافية، تبحث عن مساحات خير بشكل محض، إلا أن هناك روايات اعتمدت على تلك الصور السابقة الذكر، ولكن لأسباب سياسية واضحة ومؤثرة، ومن أشهر كتاب ذلك المجال، الكاتب الإنجليزي المعروف جورج أورويل، والذي قدم روايتين في هذا المجال، وهما "مزرعة الحيوانات"، و"1984"، وفي الرواية الأولى يهاجم الكاتب النظرية الشيوعية، وانتقد كافة الثغرات التي ظهرت في أدائها المختلفة، وراح الكاتب يسرد وقائع متخيلة تماماً أثناء حكم ستالين في الحرب العالمية الثانية، واستثمر الكاتب سرده ليبين الثغوب التي سقط فيها النظام الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، وكانت الشخصيات التي ساقها أورويل في روايته، مجرد حيوانات، واستطاع أن ينفذ إلى سيكولوجية الحيوانات المختلفة، وذلك عبر معرفته الفيزيائية والنفسية بطبيعة الحيوان، وحاول أورويل أن يضع الحيوانات في مقام البشر، ونجده يدير شئونهم على أنهم ينتمون للعالم الآدمي، فيقول مثلاً: "خصص الخنازير غرفة العدة كمقر لهم في قيادة الحقل، وهنا في المساء، كانوا يدرسون الحدادة والنجارة وبقية الأعمال المهمة الأخرى من الكتب التي جلبوها من المنزل"⁽⁶⁾.

(6) جورج أورويل، حقل الحيوان، ترجمة كريم ناصف، دار نشر المكتبة العالمية، د.ت ص 29



أما روايته الأخرى "1984"، فهي استشراف للمستقبل، وتحذير مفرط للمستقبل المعتم، وكما يكتب د رمسيس عوض على غلاف الطبعة القاهرية، فهي "صرخة يائسة أطلقها أورويل حتى ينتبه العالم إلى المستقبل الحالك الظلمة الذي ينتظره، والأمل يحدو بنا أن تنتصر قوى النور على قوى الظلام والديمقراطية على الديكتاتورية، فقد نذر أورويل حياته للدفاع عن مبادئ العدل وقيم الحرية والإخاء الإنساني"⁽⁷⁾.

وبالطبع فإن لعبة السياسة وظلالها الكثيفة، تبدو ظاهرة وواضحة في أعمال أورويل المتقلب أيديولوجيا، ولكنها كذلك تمد بظلالها في أعمال أدبية ذات طابع علمي استشرافي، ولكن بشكل أقل مما تظهر فيه عند أورويل، وذلك لأن أورويل كان متورطا في العمل السياسي بشكل عملي، وكان ينتمي إلى اليسار في مرحلة الثلاثينات، وعندما انكسرت أعواد الديمقراطية على صخرة ستالين الصلبة، بدأت ميول أورويل تختلف، ولم يعد يساريا، على عكس الروح التي أتى بها من إسبانيا، "ففي الفترة التي كتب فيها مزرعة الحيوانات في 1943_1944 لم يكن يُعد يساريا، إنه بين 1937_1943 تحولت وجهات نظر أورويل بصورة ملحوظة نحو اليمين_ وباختصار ، إنه كان قد باع نفسه وصار محاربا_ عن وعي في الحرب الباردة"⁽⁸⁾.

وفي الوقت الذي كتب ه.ج. ويلز، والأجيال التي جاءت بعده، كتابة خيال علمي شبه صافية نقية، ولا تتشد سوى الخير العميم للبشرية، نجد جورج أورويل، يجنّد كل طاقاته الاستشرافية والخيالية والعلمية في استكناه المستقبل، للدخول في حرب باردة كانت تدار من الخلف وفي الصدارة بين النظامين الرأسمالي والاشتراكي.

(7) جورج أورويل، 1984، ترجمة أمال رضوان، أحمد صديق، أيمن الجمل، محمود عبد الحليم، تقديم د رمسيس عوض، مكتبة الجهاد الكبرى بالفجالة، 1984 طبعة أولى ، كلمة الغلاف.

(8) جون مولينيه، زيارة جديدة لمزرعة الحيوانات، ترجمة خليل كلفت، مجلة القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، أكتوبر 1994 ص 19



وبالطبع تركت تلك الروايات قدرا كبيرا من الأثر على أدبنا العربي، وفي العقود الأولى من القرن العشرين، تخصصت بعض دور نشر مستقلة، في إصدار ذلك النوع من الروايات، وكان حافظ نجيب ونقولا حداد يتصدران ذلك النوع من الكتابة، وكان الخيال العلمي يمتزج مع الخيال البوليسي، فنجد بعض الروايات البوليسية، تستند إلى خطط بوليسية تستند إلى أجهزة علمية حديثة للكشف عن المجرمين، وبالطبع كانت بعض الروايات مؤلفة، ولكن كاتبها يزعم أنها مترجمة، لأن الأدب المترجم والعالمي كان رائجا بامتياز في مصر، وكانت بعض المجالات تساهم في ترويج ذلك النوع من الكتابة، مثل مجلات "للطائف المصورة"، و"المقتطف"، ثم تطورت تلك الكتابات في مجلة "الرواية" التي صدرت عن دار الرسالة في عام 1936.

ونستطيع أن نقفز بسهولة _استقرت فيها كتابات الخيال العلمي بشكل واضح_ حتى نصل إلى عقد الستينيات، عندما بدأ الدكتور مصطفى محمود، وأصدر روايته الأولى "المستحيل"، وقد استطاع أن يقدم لأدبنا العربي لونا جديدا من ألوان الرواية _كما يكتب د نعيم عطية_ ، "وربما كان أهم ما في روايته (المستحيل) ، هو قدرة هذا الطبيب على تشخيص مرض العصر الحاضر، ذلك المرض الروحي الذي يراه في الإحساس بالاغتراب، والغريب الذي يصوره مصطفى محمود ، هو الإنسان الذي يبحث لحياته عن معنى ، ويؤمن بأن الحياة لها معنى، ويرى أن بطولته في أن يجد هذا المعنى"⁽⁹⁾.

وتعتبر رواية "المستحيل" محاولة أولى لتحطيم العلاقات المألوفة بين الأشخاص، وهدم النظام الزمني التتابعي للأحداث، "ولا يصور العالم الخارجي ، بل الواقع الداخلي، كما ينساب في الشعور وتيار الوعي، ولكنه استثارته للذكرى والتداعي لا يعتمد على أسلوب السرد الدقيق المسهب كما فعل بروسست في (البحث عن الزمن المفقود) ولا على

(9) د نعيم عطية، لحظات أدبية، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، 1992، ص 151



أسلوب الرمز الدافق المتواتر كما فعل جيمس جويس في (عوليس)، ولا على أسلوب المونولوج الداخلي⁽¹⁰⁾.

ويعتبر الدكتور مصطفى محمود أحد الكتّاب المصريين والعرب الذين فتحو مجالا واسعا وخصبا في الرواية العلمية، خاصة في جانبها النفسي، فأصدر بعد روايته الأولى "المستحيل" التي صدرت عام 1960، سلسلة روايات أخرى على التتابع، منها روايات (الأفيون، العنكبوت، رجل تحت الصفر، الخروج من التابوت..)، وغيرها من مجموعات قصصية ومسرحيات، يعتمد كثير منها على المجال العلمي، وبالطبع فمصطفى محمود كان يتخذ مادة العلم في سرده ومسرحه ودراساته الفكرية والدينية، بعيدا عن برنامج "العلم والإيمان" الذي كان يقدمه في التلفزيون منذ العام 1974، واستخدم العلم لتبرير بضعة تفسيرات دينية أحدثت لغطا وجدلا شديدين، لكن يبقى لمصطفى محمود أنه أول من أسس لمساحة واسعة وعميقة لرواية الخيال العلمي، والتي وجدت مجالا كبيرا بين قراء مصطفى محمود ومتابعيه، وربما خاض في مجال رواية الخيال العلمي فرسان آخرون، ولكنهم كانوا على شاكله أخرى.

ويعتبر الكاتبان رؤوف وصفي ونهاد شريف، من الكتّاب المهمين وقد شقّا طريقا وعرا في مجال رواية الخيال العلمي، وأسسا لها بالفعل، وخدموا المشروع الروائي في هذا الجانب بامتياز، ومن أبرز روايات نهاد شريف رواية "قاهر الزمن"، والشيء، ونالت الروايتان قدرا وافرا من المتابعة النقدية من كتّاب كبار، ويكتب يوسف الشاروني عن رواية "قاهر الزمن" قائلا: "ميزة هذه الرواية الأولى أنها عودة إلى البساطة والوضوح في الأسلوب، ولا شك أن لموضوعها علاقة وثيقة بذلك، فهي ليست جولة في سراديب النفس يقدمها لنا صاحبها وهو نصف واع كما يحدث في معظم ما يقدم اليوم.."⁽¹¹⁾.

(10) جلال العشري، مصطفى محمود شاهد على عصره، دار المعارف، طبعة ثالثة 1978، ص 130

(11) و(12) يوسف الشاروني، الرواية المصرية المعاصرة، كتاب الهلال، القاهرة، إبريل 1973 ص 122، 123



ويتطرق الشاروني في هذه الدراسة للنقص الذي كانت تعاني منه روايات الخيال العلمي، ويعتبر أن رواية نهاد شريف، بمثابة سد بعض النقص الذي تعاني منه في عالمنا العربي، ويقتبس الشاروني فقرة يتحدث فيها نهاد شريف عن الأثر الذي تركه أسلافه من الساردين في هذا المجال فيقول: "وأقرأ لجول فيرن وويلز وكونان دويل وبيير بنوا وهكسلي وغيرهم، وأعيش معهم في عوالمهم الغامضة فأرحل إلى عالم مفقود، وأشهد حربا بين الكواكب، وأعثر على قارة الأطلنطيد المفقودة، ثم أهبط إلى باطن الكرة الأرضية، وأذوق طعام الآلهة.."⁽¹²⁾، ويسترسل نهاد شريف في الفقرة التي اقتبسها الشاروني، ليخبرنا عن كل أسلافه الأماجد الذين حفروا طريقا شاقا ووعرا وقويا في مجال رواية الخيال العلمي، ولكي يؤكد لنا بأن الرواية المصرية والعربية، امتداد للرواية العالمية في الخيال العلمي.

وبهذه المناسبة سنلاحظ أن يوسف إدريس لم يترك هذا المجال فارغا، بل كتب فيه أجمل قصصه وهي قصة "مسحوق الهمس"، كما كتب الكاتب صبري موسى روايته العظيمة "السيد في حقل السبانخ"، وكتبت أسما حليم روايتها "معجزة القدر"، وكلها روايات خيال علمي، يواجه القاص مشكلة ما، ويبدأ في إبداع طرق علمية متخيلة لحلها، ويستخدم الكتاب خبراتهم العديدة في معارفهم العلمية، لصناعة سرد خاص وأحداث خاصة.

ولا بد أن ننوه على أن هذا النوع من الكتابة، يفرض أساليب معينة، تلك الأساليب التي تفترض الدقة اللغوية، والتي لا تسمح بأي ترهلات ما على جسد النص، والمفاجأة أن الكاتب والأديب الكبير صنع الله إبراهيم، له ست روايات علمية يقدم فيها قصصا وحكايات وأشخاصا، وتقدم الروايات سيلا من المعلومات الغزيرة العلمية الفيزيائية، وتلك الروايات هي: "زعنفة الظهر يقابل الفك المفترس، والحياة والموت في بحر ملون، وإنه عالم البحر الأحمر الرائع، والبرقات في دائرة مستقرة، ويوم عادت الملكة القديمة، وعندما



جلست العنكبوت تنتظر"، وفي هذه الروايات يجنّد صنع الله إبراهيم حكاياته لتقديم معلومات معروفة ومستقرة، وهذه تعتبر روايات واقعية علمية في آن واحد.

وبعيدا عن كل هذا ، هناك شغف بكتابة رواية الخيال العلمي في الأجيال الجديدة، ويجد هؤلاء الكتاب راجا كبيرا بين الشباب الذي يقبل على تلك الروايات بنهم شديد، ويعتبر الدكتور والكاتب الراحل أحمد خالد توفيق أيقونة الشباب في هذا المجال، رغم أن بعض تلك الروايات تطرح عوالم شبه سوداوية، إلا أنها كثيرا ما تحرك بعضا من خيال هذا الشباب، ليجد نفسه مرتبطا ارتباطا فكريا وخياليا وأدبيا بهذا النوع من الكتابة، وهذا الرواج يثبت بأن هناك مستقبلا حافلا بالنسبة لرواية الخيال العلمي التي تأسست عبر مراحل وأجيال عديدة، منذ حافظ نجيب، ثم مصطفى محمود، ثم نهاد شريف ورؤوف وصفي، حتى نصل إلى د أحمد خالد توفيق، الذي استطاع أن يخلب عقولا شابة وطازجة ويقظة، وبالتأكيد فرواياته لا تعتمد فقط على تقديم معلومات متخيلة فحسب، بل الأكيد أن خالد توفيق قد اكتشف خلطة سحرية أتاحت لهذا النوع من الكتابة أن يبقى، ويفتح مجالا لا نهاية له في جدار الزمن.



- تقرير حول حادث نيوزيلندا وآثاره السياسية **منسي سليم** —
والإيديولوجية
- الأمن القومي العربي — واقعة وفاقه في ظل التحولات
الاقتصادية العالمية المعاصرة
عرض: **عماد الدين حلمي عبد الفتاح**
- مستقبل التغيير السياسي في الشرق الأوسط الجديد
عرض: **أحمد محمد سعيد**



حادث نيوزيلندا وأثاره السياسية والإيديولوجية دولياً وعربياً

منى سليمان

باحثة دكتوراه كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة

رغم مرور عدة شهور على الحادث الإرهابي بنيوزيلندا الذي راح ضحيته 51 قتيلاً في هجوم مسلح نفذه مواطن أسترالي على مسجدين بمدينة "كرايست تشيرش" قبل صلاة الجمعة يوم 15 مارس 2019، إلا أن آثاره وتداعياته مازالت مستمرة. وقد حظي هذا الهجوم بإدانة دولية بل إن الموقف الدولي توحد على رفضه وشجبه ووصفه بالهجوم الإرهابي وليس حادثاً إجرامياً فقط. ورغم أن نجاح رئيسة وزراء نيوزيلندا "جاسيندا أربيرن" في احتواء الأزمة والإدارة الممتازة لها قد خفف كثيراً من تداعياتها في الداخل إلا أن تداعياتها في الخارج مستمرة ومن أبرزها الهجوم الإرهابي الذي استهدف كنيسةين بسيريلانكا يوم عيد الفصح واستهداف الجاليات المسلمة في عدد من الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية لاسيما مع حلول المناسبات الدينية الإسلامية. ويمكن القول إن هذا الهجوم الإرهابي مثل نقطة تحول لإعادة النظر في عدة قضايا متداخلة ومنها (الإسلاموفوبيا ومخاطر اليمين المتطرف، الإرهاب، قبول الآخر، صراع الحضارات، والهجرة غير الشرعية وأوضاع اللاجئين).

فحادث نيوزيلندا أحدث صدمة لدولة صغيرة جزرية تقع في جنوب غرب المحيط الهادئ وعدد سكانها خمسة ملايين 1% منهم مسلمون، وتوصف بأنها أكثر دول العالم أمناً وسلاماً ويشيد بها المهاجرون المسلمون بوصفها "جنة على الأرض"، وتأتي ثانياً بعد أيسلندا في مؤشر السلام العالمي، ورجال الشرطة فيها يتجولون دون سلاح لاستبعاد أي أعمال عنف، ولذا كان الحادث الإرهابي "أزمة كاشفة" عن عمق اليمين المتطرف وتجذره



وخطورته في المجتمعات الغربية. فالمنفذ وفق بيان سجل فيه تعريفاً عن نفسه ودوافعه لارتكاب الحادث من 73 صفحة هو مواطن أسترالي يدعى "برينتون تارانت" (28 عاماً)، وقام بإطلاق النار على مسجدين في بلدة "كرايست تشيرش" بنيوزيلندا قبل صلاة الجمعة يوم 15 مارس 2019 بدم بارد مما أدى لمقتل 51 مصلياً بينهم 4 أطفال. كما أنه بث الحادث عبر تطبيق "الفيس بوك تايم" وشاهده الملايين عبر العالم في مؤشر جلي على سلبات وسائل التواصل الاجتماعي. والهجوم لم يأت صدفة بل إن مرتكبه قد خطط له ودبره بدقة ونشر بياناً يوثق خطته الإجرامية قبل ساعات من الهجوم، كما أرسل تحذيراً لرئيسة الوزراء يؤكد فيه قيامه بارتكاب الحادث. وقد أوضح "تارانت" في بيانه المطول "أنه نفذ الهجوم ليثأر لكل الأوروبيين الذين قتلوا باعتداءات إرهابية سابقاً، ولتخفيض عدد الهجرة إلى البلدان الأوروبية، وادّعى أن هناك كثيراً من المواقف التي دفعته إلى التخطيط للهجوم، لكنه نفذ هذه الهجمات "كعمل انتقامي" من هجوم إرهابي في السويد في إبريل 2017 أودى بحياة فتاة صغيرة. وكان لافتاً أنه استخدم في الهجوم أربعة أسلحة نصف آلية كُتب عليها أسماء شخصيات تاريخية عسكرية، بينهم أوروبيون قاتلوا القوات العثمانية في القرنين الخامس والسادس عشر، كما ظهرت صورة بندقية وقد غطتها حروف بيضاء اللون لأسماء أشخاص آخرين ارتكبوا أعمال قتل على أساس عرقي أو ديني، وإشارات سلافية وأرمينية وجورجية إلى شخصيات وأحداث تاريخية، وعبارة تسخر من كتيب أعدته الأمم المتحدة لكيفية التعامل مع المهاجرين. وكُتب على جانب البندقية أيضاً رقم (14)، في إشارة إلى شعار يستخدمه العنصريون البيض يتألف من 14 كلمة. وأكد المنفذ في بيانه أنه استهدف مسجدي بلدة "كرايست تشيرش" لأنهما يستقبلان أعداداً كبيرة من المصلين. وأصبح واضحاً أنه نفذ الهجوم تطبيقاً لنظريات تيار اليمين الأوروبي المتطرف الذي تضاعفت شعبيته خلال العامين الماضيين، حيث يعتبر هذا التيار الشعوب الأوروبية والجنس الأبيض متفوقاً على ما سواه في العالم، ويعادي المهاجرين المسلمين والأفارقة، والذين وصفهم المنفذ في بيانه "بالغزاة".



وبالرغم من فداحة الحادث إلا أن الإدارة الجيدة والملتزمة والخطوات الحكيمة التي اتخذتها رئيسة وزراء نيوزيلندا "جاسيندا أربيرن" نجحت في احتواء الآثار السلبية الناجمة عنه سياسيًا واجتماعيًا وأمنيًا. فقد صنفت الحادث فور وقوعه "بالهجوم الإرهابي" ووصفته "بأحلك يوم في تاريخ نيوزيلندا". كما حرصت "أربيرن" على ارتداء ملابس سوداء للحداد ووضع غطاء للرأس لمدة أسبوع ثم جرت مراسم تأبين جماعية شاركت فيها وزارت أسر الضحايا والجالية المسلمة، وكررت شعار "كلنا واحد" في دليل على مدى ترابط وتماسك المجتمع لمواجهة مشاعر الكراهية والتطرف. وعلى المستوى الأمني فقد أعلنت رفع مستوى الإنذار في نيوزيلندا من متدنٍ إلى عالٍ واستمر هكذا لمدة شهر كامل. ثم اتخذت إجراءات سريعة تمثلت في إخضاع المتهم للمحاكمة غداة الحادث ففي يوم 16 مارس 2019 بدأت محاكمة "تارانت" أمام محكمة في نيوزيلندا ووجهت له 49 تهمة قتل للمصلين في مسجدين بمدينة كرايستشيرش، وفي 5 أبريل 2019 أمرت محكمة نيوزيلندية بإخضاعه لتقييم نفسي للتأكد من صحته العقلية. وأعلن برلمان نيوزيلندا موافقته بالإجماع باستثناء عضو واحد يوم 10 أبريل 2019 على تعديل قوانين الأسلحة بعد مرور أقل من شهر على هجوم المسجدين بحيث يتم حظر الأسلحة نصف الآلية ذات الطراز العسكري، ومخازن الطلقات ذات السعة العالية، إضافة إلى البنادق نصف الآلية التي يمكن تزويدها بمخازن قابلة للفك والتركيب، من التداول من خلال خطة لإعادة شرائها، وحظر حيازتها وتشديد أحكام السجن بحق المخالفين. وهي الأسلحة التي استخدمها المتهم.

ثم بدأت في 13 مايو 2019 اللجنة الملكية التحقيق الرسمي في الحادث وسيركز على البحث في أنشطة المسلح الذي قام بالهجومين، وفي استخدامه وسائل التواصل الاجتماعي والاتصالات الدولية التي تلقاها، بالإضافة إلى ما إذا كان هناك ترتيب "غير ملائم" للأولويات في موارد الدولة لمكافحة الإرهاب، أم لا. وأكدت "أربيرن" أن التحقيق سيبحث فيما إذا كانت الأجهزة الأمنية قد فرضت تدقيقًا على الجاليات الإسلامية على حساب الجماعات اليمينية المتطرفة، أم لا؟. ومن المقرر أن تعلن عن نتائجه في 10



ديسمبر 2019. وعلى الصعيد الاجتماعي فقد أعلنت وسائل الإعلام النيوزيلندية منع بث أي وسائل إعلامية محتوى يتضمن مواد تشير لتفوق البيض، أثناء محاكمة المتهم، كما أعلنت نيوزيلندا عزمها منح الإقامة الدائمة للناجين من الهجوم على المسجدين.

هذه الإدارة الجيدة والتميزة للأزمة من قبل "أرديرن" ساهمت في حصولها على إشادات دولية حد ترشيحها لجائزة "نوبل" للسلام، وأصبحت نموذجًا في التسامح ونبذ العنف ومثلا يحتذى به في التعامل مع تداعيات الهجمات الإرهابية. مما أدى لارتفاع شعبيتها داخل بلادها فقد أظهر استطلاع للرأي أجرى منتصف أبريل 2019 أي بعد شهر من الحادث، أن شعبية رئيسة وزراء نيوزيلندا "جاسيندا أرديرن" ارتفعت لأعلى معدلاتها منذ توليها المنصب قبل عامين. وذلك بفضل طريقة إدارتها للهجوم الإرهابي على المسجدين، وقد كشف الاستطلاع أن 51 % من المشاركين فيه أيدوا "أرديرن" بوصفها رئيس الوزراء المفضل لهم، وهو ما يزيد بنسبة سبع نقاط مئوية عن الاستطلاع السابق. كما زادت نسبة التأييد لحزبها "حزب العمال" مقابل تراجع "الحزب الوطني" المعارض الذي يتبع سياسات قومية مناهضة للمهاجرين. مما يعزز فرص فوز حزبها بالانتخابات البرلمانية المقبلة المقررة في 2021.

ولم تقتصر الآثار السياسية على داخل نيوزيلندا فقط، بل إنها امتدت للخارج نظرًا لفداحة الحادث وقوة تأثيره، فحالة الحزن التي سادت الدول العربية والإسلامية فور وقع الحادث نظرًا لأن الضحايا من دول عربية عدة ساهمت في إحداث حالة من التقارب بين نيوزيلندا والدول العربية وليس فقط بين الجاليات الإسلامية فيها بل مع مختلف فئات المجتمع خاصة بعدما أظهرت أعلى درجات التضامن مع الضحايا في الحادث رسميًا وشعبيًا. هذا التقارب العربي النيوزيلندي قابله توتر تركي نيوزيلندي، نظرًا لاستغلال الرئيس التركي "رجب طيب أردوغان" للحادث في الدعاية الانتخابية للانتخابات البلدية التي أجريت ببلاده في 31 مارس 2019. حيث هدد "أردوغان" المواطنين الأستراليين والنيوزيلنديين ببلاده بإعادتهم لدولهم موتى كما فعل أجداده العثمانيون، مما أثار أزمة



دبلوماسية بين أستراليا وتركيا ونيوزيلندا، مما دفع "أرديرن" إلى إرسال وزير خارجيتها "وينستون بيتزر" إلى أنقرة للاجتماع مع الرئيس التركي ومواجهة وتخفيض حدة الخطاب العنصري المتبع منه ضد نيوزيلندا.

ومن بين الآثار السياسية الإيجابية دولياً هي أن الحادث ألقى الضوء بقوة على الآثار السلبية الناجمة من استخدام وسائل التواصل الاجتماعي دون رقابة محددة، حيث إن المتهم بث مباشرة تنفيذ الحادث على موقع "فيس بوك تايم" مباشرة وبقي على الموقع لمدة 24 ساعة شاهده خلالها مليون ونصف شخص ثم استجاب موقع فيس بوك لطلب نيوزيلندا بحذف الفيديو. وقد مثلت الحادثة نقطة فارقة في التعاطي مع مواقع التواصل الاجتماعي وأثبتت أن إدارة المواقع لا تراقب المحتوى ولا تضع معايير واضحة وشفافة أو ضوابط لمنع نشر مواد تحرض على الكراهية والعنف لاسيما ضد المسلمين والمهاجرين. مما ساهم في انتشار ظاهرة "الإسلاموفوبيا" (مصطلح يعني خوفاً جذرياً من الإسلام ومعاداة الإسلام والمسلمين والتمييز ضدهم). والتي طبقت في أسوأ صورها في حادث مهاجمة المسجدين. وقد أثبتت دراسة أوروبية أن بريطانيا وحدها سجلت خلال 6 أشهر (يناير - يونيو 2018) 608 حادثة مرتبطة بظاهرة "الإسلاموفوبيا" ارتكبت 207 منها تلك الحوادث ارتكبت عبر الإنترنت، أي بنسبة 34 % ومثلت حوادث "الإسلاموفوبيا" المرتكبة عبر "تويتر" 59 %. كما كشفت التحقيقات أن منفذ الهجوم بنيوزيلندا طالب متابعيه قبل أيام من القيام بالعملية الإرهابية بنشر صفحة تتبع اليمين المتطرف على موقع (يوتيوب) ليحقق أكبر قدر ممكن من انتشار الحادثة بعد بثها، وتضم تلك الصفحة 89 مليون متابع وتقدم محتوى متطرفاً، ونشر عليها قبل الحادث عبارات معادية للمسلمين. وهناك أيضاً صفحة "المجتمع الأبيض" التي ينتمي إليها منفذ حادث نيوزيلندا، وصفحة (8 تشان)، التي أعلن فيها منفذ الحادث أنه سوف يظهر في بث مباشر في أثناء تنفيذه للعملية الإرهابية. مما يؤكد أن عناصر اليمين المتطرف تستغل مواقع التواصل الاجتماعي لنشر أفكارها وبث مواد تحتوي على الكراهية ضد المسلمين والمهاجرين بصفة عامة. وهو ما دفع رئيس الوزراء الأسترالي "سكوت موريسون" بمطالبة



رئيس الوزراء الياباني "شينزو آبي" بصفته رئيساً لمجموعة العشرين عقب حادث المسجدين في نيوزيلندا، بطرح قضية تشديد الرقابة على وسائل التواصل الاجتماعي في قمة العشرين التي ستعقد في أوساكا خلال يونيو 2019. كما طرحت رئيسة الوزراء النيوزيلندية "أرديرن" مبادرة بالاشتراك مع الرئيس الفرنسي "إيمانويل ماكرون" خلال زيارتها لباريس في منتصف مايو 2019 بغية التصدي للعنف عبر الإنترنت، ولوقف استخدام مواقع التواصل الاجتماعي أداة للترويج للإرهاب. وشارك فيها مديرو شركات التكنولوجيا ودعّتهم للتوقيع على "نداء كرايست تشيرش" المخصص لاستئصال محتوى الإرهاب والتطرّف العنيف من الإنترنت.

وفيما يخص الآثار الإيديولوجية للحادث الإرهابي فإنه يعد نقطة تحول في الصراع بين تيارات اليمين المتطرف الغربي والأصولية الإسلامية، وسيؤدي لتصاعد موجات جديدة من "الإسلاموفوبيا" والعنصرية ضد المهاجرين تحديداً. وهذه التيارات التي تتحالف مع التيارات الشعبوية القومية في شرق ووسط أوروبا صعدت شعبيتها لأنها قدمت نفسها كبديل للأحزاب السياسية التقليدية في أوروبا والولايات المتحدة فبدأت بتبني خطاب سياسي يحمل قدرًا كبيرًا من العنف والكراهية القائمين على الإغلاء من فكرة القومية والشوفينية ويعتمد على معاداة المهاجرين والمسلمين ويرفض العولمة والهجرة والمذاهب الفردية، ويحذر دوماً من مخاطر تزايد أعداد المسلمين على الهوية الغربية الأوروبية، ورغم هذا ربما نجد بعض الخلافات بين أحزاب وتيارات اليمين المتطرف حول السياسات الاقتصادية والثقافية والمحلية وفق خصوصية كل دولة. وقد مثل نجاح الرئيس الأمريكي "دونالد ترامب" في الانتخابات الرئاسية عام 2016 قوة دافعة لهذه التيارات، لأنه ينتمي للتيار الشعبوي القومي المعادي للمهاجرين، كما أن نجاح بعض الأحزاب اليمينية الشعبوية في الدول الأوروبية للوصول لسدة الحكم مثل صعوداً كبيراً لهذا التيار، حيث نافست "ماري لوبان" زعيمة التيار اليميني الفرنسي على الانتخابات الرئاسية في 2017 وهي من أشد المعادين للمهاجرين وللمسلمين.



الأمر الذي دفع مفوض الأمم المتحدة السامي لشؤون اللاجئين "فيليبو جراندي" للتحذير من أن الهجوم الدامي على مسجدين في نيوزيلندا كان نتيجة أسوأ أفكار سامية في السياسة والإعلام تجاه اللاجئين والمهاجرين والأجانب منذ أكثر من 30 عاما. وحذر كذلك من تداعيات النقاش الدائر على مستوى العالم بشأن اللاجئين والمهاجرين والمناهض لهم وذلك خلال جلسة خاصة عقدت بمجلس الأمن لبحث الهجوم على المسجدين.

وبالفعل فمنذ حادث نيوزيلندا تكررت العديد من الحوادث المشابهة التي استهدفت فيها المسلمين ومنها حادث دهس بولاية كاليفورنيا الأمريكية في 23 أبريل 2019 أسفر عن إصابة 8 أشخاص وبرر مرتكبه "بأنه اعتقد أنهم مسلمون" ولذا نفذ الحادث ضدهم. كما تصاعدت المخاوف في دول الاتحاد الأوروبي من استهداف المسلمين في شهر رمضان حيث يتم استهداف المساجد وأماكن العبادة بشكل متزايد من قبل العنصريين وكارهي المسلمين. وبالفعل تم مهاجمة مسجد بالعاصمة البريطانية لندن في 6 مايو 2019 حيث شهد أول أيام الشهر الكريم. وبعد أسبوع من حادث نيوزيلندا زادت جرائم الكراهية التي تستهدف المسلمين في بريطانيا بنسبة كبيرة وتزداد الاعتداءات اللفظية ضد المسلمين والتي تشمل تهديدات بالقتل مثل "يجب أن يموت المسلمون". التنظيمات الإرهابية التي تدعي صلتها بالإسلام ومنها (داعش، القاعدة) منحت ذريعة لليمين المتطرف الأصولي الأوروبي في استهدافهم للمسلمين.

وفي المقابل قد تتخذ التنظيمات الإرهابية الأصولية مثل (داعش، القاعدة، بوكو حرام، حركة الشباب الصومالي) الحادث ذريعة لتجميع قوتها وشن عمليات جديدة كما قد تستغله للترويج بوجود استهداف للإسلام والمسلمين من الغرب وستعمل على استقطاب المئات من العناصر لها بعدما فقدت أغلب عناصرها وقيادتها بعد الإعلان عن هزيمة التنظيم في آخر معاقلة بسوريا في 22 مارس 2019. ومثل تبني تنظيم "داعش" الإرهابي لتفجيرات "عيد الفصح" في 21 إبريل 2019 بسريلانكا حيث استهدفت 4 كنائس



وفنادق وأوقعت أكثر من 250 قتيلاً ردًا مباشرًا على حادث نيوزيلندا، حيث أعلنت الحكومة السريلانكية أن تحقيقاتها الأولية تؤكد أن التفجيرات "ردا انتقاميا" على حادث هجوم المسجدين.

وخلاصة القول، إنه يجب دراسة إدارة نيوزيلندا للحادث باعتبارها نموذجًا مثاليًا لمعالجة الأعمال الإرهابية، وينبغي على كافة دول العالم والمؤسسات الدولية السياسية والثقافية أن تضع خريطة طريق متعددة الأبعاد السياسية والثقافية والاقتصادية لمواجهة الإيديولوجيتين المتطرفتين المتناقضتين وهي "الأصولية الإسلامية" و"الإسلاموفوبيا" لأنهما يعبران عن صور للإرهاب ويجب عدم التفرقة بين أي منهم.



الأمن القومي العربي واقعه وآفاقه في ظل التحولات الاقتصادية العالمية المعاصرة

تأليف: د. علي سيد إسماعيل

الناشر: دار التعليم الجامعي – الإسكندرية الطبعة الأولى 2019 ، 214 صفحة

لم تتفق أنظمة الشعوب العربية وبروتوكولاتها على مفهوم محدد للأمن القومي العربي، كما أنه لا يوجد تعريف واحد لدى العرب الذين يرسمون ملامح الأمن القومي كل حسب مفهومه ، وتصوراته ، ومصالحه ، وتحالفاته ورؤيته لخريطة الصراع في المنطقة العربية المليئة بالصراعات والاختلافات المتباينة.

ورغم أن مصطلح " الأمن القومي العربي " يعد أكثر المصطلحات شيوعا واستخداما في العالم العربي ، سواء من جانب الباحثين ، أو من جانب صنّاع القرار العربي ، إلا أنه لا يزال أقرب ما يكون إلى الشعار أو المفهوم النظري ، ونادرا ما يترجم إلى سياسات أو برامج عمل تطبق على أرض الواقع.

لذا فالأمن القومي العربي لا يزال أملا منشودا يفترض السعي إليه وإيجاده ، فهو ما زال غائبا ، على الرغم من بعض الاتفاقيات التي تمت في فلك التنظير ولم تتعداه إلى خطوات تطبيقية فاعلة.

وكتاب الأمن القومي العربي واقعه وآفاقه في ظل التحولات الاقتصادية العالمية المعاصرة مكون من خمسة فصول ، الفصل الأول والثاني يشير الكاتب فيهما أن المنطقة العربية في الآونة الأخيرة شهدت ما لم تشهده عقود طويلة ، حيث بدأ العالم



العربي في الآونة الأخيرة يشهد بدايات تفكك بنية النظم السلطوية بفعل انتفاضات شعبية بدأت في تونس ومصر ثم ليبيا ثم بعض الدول العربية الأخرى.

لذا فما زال الحديث عن أمن قومي عربي نسعى إليه ونناضل من أجله أصبح شائكا نظرا للوضع الخاص الذي يعيشه العالم العربي ، وهو يشخص في التجزئة والحدود السياسية ، والتراجع السياسي، والاقتصادي والاجتماعي والتكنولوجي ، ثم التبعية ، والمديونية العربية للعالم الخارجي.

أما عن أسباب عدم تفعيل القدرات الأمنية العربية الجماعية في الوطن العربي فنتمثل في ثلاثة أسباب وهي:-

- التدخلات الإقليمية الخارجية ، وهذا النوع من التدخلات يحمل خصوصية خطيرة تميزه عن التدخلات الخارجية الدولية ، فالتدخلات الإقليمية تكمن آثارها الخطيرة في كونها تحمل دوما نزعة الأطماع التوسعية الجغرافية ، وبسط النفوذ على حساب السيادة الوطنية للدول العربية ، وتستخدم النزعات المذهبية والطائفية والاختلافات العرقية وسيلة لدعم سياساتها الداخلية ، وبذر بذور الفتن في الدول العربية.
- اعتماد الأمن القومي لعدد من دول العالم العربي (جزئيا وكليا) على عنصر الدعم الخارجي والضمانات الأمنية والدفاعية الخارجية ، والفشل المستمر في التمكن من تطوير قدرات الدفاع الذاتي.
- التركيز على (الإرهاب) بكونه المصدر الأساسي للتهديد أو المخاطر هو تقدير يفتقد للمنطق لا سيما إذا لم يتم التركيز على أسبابه أو دوافع من يقف خلفه أو يدعمه.

تلك الأسباب الثلاثة هي الأساس أما فروعها فتتمثل أيضا في التهديدات التي يواجهها العالم العربي من التهديد الإسرائيلي الاحتلالي في فلسطين ، والحضور الأمني الأمريكي في الخليج العربي ، وهناك أيضا تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) ، ناهيك



عن التهديد النووي الإيراني فهو بالدرجة الأولى تهديد أمني خطير لدول مجلس التعاون الخليجي ، بالإضافة إلى الرعب النووي بين الهند وباكستان اللتين تمثلان الجوار المباشر لدول المجلس ومن جهة الجنوب الشرقي ، وأيضاً الفتنة الطائفية في عدد من الدول العربية التي توجد بها ثنائيات عرقية وطائفية ، والحروب الوشيكة بسبب التنازع على المياه كما في دول حوض النيل ، ناهينا عن الخلافات على الحدود في بعض الدول العربية.

فليس غريباً أن تتعاضم المخاوف لدى الدول والشعوب العربية في هذا العصر بعد أن عانت من المشكلات التي سببها فقدان الشعور بالأمن والأمان في كثير من بقاع العالم.

والأمن العربي كما يقول الكاتب هو كافة السياسات والإجراءات التي تتخذها وتقوم بها كل دولة عربية في حدودها وطاقاتها وحاجتها وإمكاناتها لتحقيق الأمن الوطني لذاتها، على أن تكون تلك السياسات والإجراءات في إطار الأمن الشامل للأمة العربية أما عن ركائز الأمن القومي العربي فقد قسمه الكاتب إلى أربع ركائز:-

الأولى : الركيزة الجغرافية: تتعلق بالموارد المائية وما تمتلكه من ثروات معدنية ومصادر الطاقة وغيرها ومدى توافر الموارد المائية والمعدنية في تحقيق الأمن الغذائي فالثروة النفطية في المنطقة العربية على سبيل المثال كانت وستظل في صلب الاستراتيجية الأطلسية ومصالحها الحيوية ، ومن ثم ستظل واقعة تحت ضغط التهديد في محاولة لاحتواء هذه الثروة.

الثانية: الركيزة الجيوبوليتيكية وهي تتعلق بموقع الدولة ومدى تأثيرها على الدول المجاورة ومنافذها البرية والبحرية ، وتأثير ذلك على التجارة والنقل ، وكذلك أهمية موقع الدولة بالنسبة للدول ذات المصالح الحيوية في المنطقة.

الثالثة: هي الجيوستراتيجية حيث تتعلق بتفاعل مكونات الموقع ، من أجل تركيز القدرات الدفاعية اللازمة لمواجهة التهديدات الخارجية ، وتتفاعل بعوامل ثلاثة هي :



مساحة الدولة وحجم السكان وموارد الدولة فيها من أجل تحقيق قدرتها على مواجهة التهديدات المختلفة.

الرابعة: هي الركيزة التاريخية حيث يقصد بها تاريخ الدولة وقوتها ، والأحداث التي مرت بها في فترات التاريخ والحضارية التي تؤثر في تكوين طبائع شعبها ، وتنظيم نمط الحياة فيها ، وتشكل جزءا أساسيا في قيمها الجوهرية وقدرتها ونهضتها ومدى تأثيرها الإقليمي والدولي.

ثم يتحدث الكاتب بعد ذلك عن مستويات الأمن القومي العربي ويقسمها أيضا إلى ثلاثين مستوى منها الأمن العسكري العربي وجاهزية المؤسسة العسكرية في الدول العربية على التصدي لأي اعتداء خارجي ، و الأمن الاقتصادي العربي والغذائي والفكري والمعنوي والوقائي العربي والمعلوماتي والاستخباراتي والصحي والبيئي والتكنولوجي والثقافي والاجتماعي والطاقة والعربي والجيني والحدود والإعلام والإلكتروني وأخيرا الأمن السياسي والتربوي والمائي والصناعي العربي.

على حسب قول الكاتب لن يتحقق الأمن القومي العربي بالاعتماد على الأمن العسكري أو الوطني أو الاقتصادي فقط وإنما باجتماع كل أنواع الأمن السابقة في حزمة واحدة ليتحقق وقتها الأمن القومي العربي بمعناه الشامل.

أما الفصل الثالث والرابع فيتحدث فيهما الكاتب في البداية عن مصادر تهديد الأمن القومي العربي ومظاهر اختراقه.

فالتحديات التي تواجه الأمن القومي العربي تشكل المصادر الرئيسية لتهديده هي بالضرورة تحديات ومصادر خارجية ، أي من خارج العالم العربي ككل ، وهناك تحديات ومصادر داخلية ، أي من داخل العالم العربي ككل ، فمثلا بالنسبة للتحديات الخارجية فقد واجه الأمن القومي العربي تحديات على الصعيد العالمي أو على الصعيد الإقليمي ، فعلى الصعيد العالمي شكل الاستعمار التقليدي أحد أهم التحديات التي واجهت العالم



العربي ونجحت بعض هذه القوى في غرس إسرائيل وسطه لتصبح شوكة دائمة تحول دون توحده ورغم انحسار الاستعمار التقليدي وانتهاء دوره تقريبا إلا أن العالم العربي بحكم موقعه المتميز وموارده الطبيعية الوفيرة ، مستهدفا من جانب القوى الدولية المتنافسة للسيطرة على النظام العالمي ، كالولايات المتحدة وروسيا والاتحاد الأوروبي والصين وغيرها ولن يكون بوسع أي من هذه القوى أن تهيمن منفردة على العالم إلا من خلال السيطرة على العالم العربي.

هذا فوجود الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي له أهداف توسعية وعدوانية مهددة لأقطار الوطن العربي لا تتوقف مخططاتها عند حدود إسرائيل الحالية لا تتجاوزها لتشمل رقعة أوسع من ذلك بكثير ، ويمكن الإضافة إلى التهديدات العسكرية الإسرائيلية المباشرة ، تلك المشاريع التي تقوم إسرائيل بتنفيذها من أجل تضيق الخناق على الأقطار العربية المحاذية لها مباشرة مثل سورية ولبنان والأردن ومصر .

وبالنسبة للتحديات الداخلية ، فجميع الدول العربية متراجعة اقتصاديا وعلميا وفكريا بالمعايير العالمية فاقتصادياتها ريعية ، تعتمد على تصدير المواد الأولية ، وهو ما يعرض مستقبلها لمخاطر جمة ، وليس لديها مؤسسات علمية أو بحثية أو تعليمية أو فكرية أو ثقافية متطورة ، وهناك أيضا العديد من المعوقات الاقتصادية للتكامل بين البلاد العربية ، والتي تتمثل في تباين الناتج المحلي الإجمالي ، ومعدل النمو العربي ، وضعف البنية التركيبية الأساسية لبعض الدول العربية إلى جانب بعض المشاكل المتعلقة بالاستثمار كتعدد القوانين واللوائح والقرارات الخاصة بالعمليات الاستثمارية ، وعدم استقرار أسعار الصرف للعملات المحلية بين البلاد العربية وأيضا أهم المشكلات التي تعاني منها بعض الدول العربية مثل الركود الاقتصادي والكساد في بعضها والنسبة العالية للبطالة والنمو السكاني الذي يقوم على النمو الحقيقي ، هذا بالإضافة إلى عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي ، الذي أنهك قوى بعض الدول العربية الغنية.



وعلى هذا يمكن القول إن هناك مصدرين رئيسيين يهددان الأمن القومي العربي شائعا ، وكل منهما يتحدى الآخر المصدر الأول التهديد الإسرائيلي للأمن القومي العربي والثاني ضعف الأنظمة الدفاعية العربية.

ثم يتناول الكاتب بعد ذلك موضوع تحديات الأمن القومي العربي ، أول هذه التحديات التي يتحدث عنها هي الانقسامات العربية ، التي باتت تهدد الأمن القومي العربي برمته ، ولعل أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001 وما تبعها من تفاعلات وكذلك استمرار الغطرسة الإسرائيلية والأحداث الدامية في فلسطين ما تدفع الوطن العربي إلى مزيد من التفكير في تحليل الواقع العربي ، ومن ثم النظر بعمق للأمن القومي العربي ، وتخطئ أي دولة تظن أن بإمكانها تحقيق أمنها الوطني بمعزل عن الأمن القومي العربي الشامل ، ودروس الماضي خير شاهد على ذلك.

وهناك تحد آخر يتمثل في الديون العربية الخارجية حيث أظهر تقرير صادر عن المؤسسة العربية لضمان الاستثمار وائتمان الصادرات أن حجم الديون الخارجية لـ 20 دولة عربية سجل قفزة كبيرة عام 2016 ليرتفع من 426.4 مليار دولار عام 2000 إلى نحو 923.4 مليار دولار عام 2016.

وذكر التقرير أن هذه القفزة بأرقام الديون سببها نزوع العديد من الدول إلى الاقتراض وإصدار سندات دين سيادية لتمويل العجز في موازنتها.

وهناك أيضا مشكلة البطالة حيث إنها من أشد المخاطر التي تهدد استقرار وتماسك المجتمعات العربية بشكل خاص ، وأيضا هناك التطرف والإرهاب حيث تعاني معظم الدول العربية من اضطرابات سياسية وفكرية واجتماعية ودينية تسبب التطرف والعنف الأمر الذي أدخل الكثير من الأنظمة العربية في حالة من الفوضى والحروب والصراعات الأهلية.



وهناك تحد هام جدا وهو الأمن المائي العربي ، حيث يمثل الأمن المائي مدخلا مهما للأمن القومي العربي مما يتطلب وضع استراتيجية متكاملة لضمان أمن الأمة العربية حيث إن أكبر المخاطر التي تواجه المياه العربية ما يسعى إليه الكيان الصهيوني من سيطرة عليها بمختلف الوسائل.

كما تمثل قضية الصراع على المياه في منطقة الشرق الأوسط بعدا مهما ومرتكزا أساسيا في الصراع العربي الإسرائيلي ، إذ سارعت إسرائيل للعمل بكل قوة للسيطرة على مصادر المياه العربية التي ترى فيها الملاذ الوحيد لتنفيذ طموحاتها في الدول العربية.

وعلى كل فإن قضية الأمن تعد من القضايا المحورية التي تستأثر باهتمام المفكرين والمخططين ورجال السياسة والاجتماع في كافة المجتمعات قديمها وحديثها، بغض النظر عن أيديولوجيتها، فالأمن من الأمور الأساسية في هذا الوجود ، وهو ركيزة أساسية، وقاعدة عظمى تستند عليها حياة البشرية، والحاصل مما سبق بأن التشردم العربي والصراعات المتتالية بين بعض الدول العربية وبعضها بات يهدد الأمن القومي العربي برمته بالإضافة إلى استمرار الغطرسة الإسرائيلية والأحداث الدامية المتكررة في فلسطين وسورية ومعظم الدول العربية.

أما الفصل الخامس من الكتاب فعنوانه تحقيق الأمن القومي العربي وآلياته وشروطه فعن خطوات تحقيق الأمن القومي العربي يحدثنا الكاتب أن تلك الخطوات تتكون من -:

أولا: صناعة الإنسان العربي بوصفه الركن المؤتمن على الأمن القومي العربي ، فالأمن القومي العربي بمفاصله المتعددة والمتنوعة لا يتحقق بقرار سياسي، ولا عبر بناء الجيوش، أو تكديس الأسلحة فقط ، بل العنصر الفاعل هنا هو الإنسان العربي، هو أهم سلاح وأداة لتحقيق الأمن القومي العربي، لأنه هو الذي يشكل لبنة بناء المجتمعات والدول.



ثانيا: تحرير المواطن العربي من الجهل والأمية والغيوبة الفكرية، فيواجه التعليم ظرفا دقيقا في الدول العربية، فبعد أكثر من بضعة أعوام من اندلاع الربيع العربي، تقع المراهنة على الشباب ، لتحقيق أهداف التعليم للجميع.

ثالثا: انتشار المواطن العربي والأمة العربية من برائن العوز والحاجة فيعد الفقر من الظواهر الاجتماعية الخطيرة ذات الأبعاد المتعددة، والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بالتنمية، ومما لاشك فيه أن تقليل الفقر أو الحد منه هدف لا تختلف حوله المجتمعات والدول ، وكذلك المنظمات الدولية الفاعلة في مجال التنمية، ومن هذا المنطلق فإن العلاقة وثيقة بين الفقر والسياسات العامة في كافة النواحي والمجالات، اقتصادية وصحية وتعليمية وبيئية.

رابعا: البحث عن مصادر مياه غير تقليدية للمواطن العربي، فالوطن العربي فقير في المصادر المائية وهناك أقطار عربية تعاني يوميا من عدم توفر المياه، وسيأتي زمن تعاني فيه الأقطار العربية من نقص المياه الصالحة للشرب والصالحة للزراعة، فيجب التركيز والحرص على توفير مصادر مياه جديدة، وتطوير الطاقة اللازمة لتحلية مياه البحر بأقل التكاليف الممكنة.

خامسا: إعادة تصنيف قائمة الأصدقاء والأعداء للعرب، وهي مسؤولية ضخمة أمام أصحاب القرار في الساحة العربية أن يضعوا معايير تحديد أصدقاء العرب وأعدائهم، وهذه مهمة ليست سهلة بسبب اختلاف أهداف الأنظمة العربية، السياسية والثقافية والاجتماعية.

سادسا: وضع رؤية استراتيجية شاملة للتكامل بين الأقطار العربية، فإحياء جهود التكامل الاقتصادي بين البلاد العربية مخرجا ملائما ، ويمكن للتكامل الاقتصادي بين الدول العربية أن يكون وسيلة للتغلب على الأجزاء الناجمة عن الصغر في الحجم، وآثار الحدود من خلال تجميع واندماج وتكوين الشبكات البنيوية.



ومن خلال كل ذلك يمكن طرح رؤية استراتيجية للتكامل بين الأقطار العربية تتكون من تعاون سياسي يدعم إقامة الحكم الديمقراطي الصالح في الدول العربية ، وأيضاً تعميق التكامل الاقتصادي بين الأقطار العربية، وزيادة دور الاستثمارات البينية لتدعيم التكامل الاقتصادي بين الأقطار العربية.

والحاصل مما سبق أن الأمن القومي العربي لن يتحقق بين يوم وليلة ، وإنما لابد أولاً من صناعة المواطن العربي بوصفه الركن المؤتمن على الأمن القومي العربي وتحريره من الجهل والامية والفقر والحاجة، ولابد من العمل على تحقيق الوحدة الوطنية لكل قطر عربي، وإزالة الانقسامات العربية، ووضع رؤية استراتيجية للتكامل بين الأقطار العربية.

عماد الدين حلمي

الأمانة العامة لجامعة الدول العربية



مستقبل التغيير السياسي في الشرق الأوسط الجديد (تحليل تاريخي - سياسي - إقليمي)

تأليف: أ.د. محمد علي رجب

الناشر : دار التعليم - الإسكندرية الطبعة الأولى 2018 - 359 صفحة

هذا الكتاب يتناول بالبحث الدقيق منطقة الشرق الأوسط في محاولة لتحليل الأوضاع السياسية الراهنة في تلك المنطقة المليئة بالصراعات.

ولم يقتصر الحديث عن الشؤون السياسية ، بل يتطرق إلى الشأن الاقتصادي حيث الوفرة في الموارد الطبيعية التي نعم بها الشرق الأوسط على مر التاريخ ، بل أضيف إليها منذ أوائل القرن العشرين عنصر البترول حيث لا تزال المنطقة تمتلك نحو ثلثي الاحتياطات العالمية من السلعة الاستراتيجية التي لا تقتصر أهميتها على عمليات الاستكشاف والإنتاج والتكرار بقدر ما تتسحب الأهمية أيضا على جوانب النقل البري (شبكات خطوط الأنابيب) والبحري (السفن - قناة السويس - مضيق هرمز - باب المندب - المنافذ السورية والتركية) وعلى حركة أسواق الأوراق المالية في العالم كله ، هل كل تلك الثروات وقف أمامها العالم متفرجا بدون أن يبدي أي أطماع فيها وهذا ما سنعرضه داخل فصول ذلك الكتاب.

ففي الفصل الأول والثاني يحدثنا الكاتب فيهما عن الشرق الأوسط الكبير ولماذا تهتم أمريكا بهذه المنطقة ، فيقول الكاتب إن مشكلة المشاكل في تعامل أمريكا خصوصا مع الشرق الأوسط إنما ينبع من حقيقة أن أمريكا نفسها بلد تعاني بما يمكن أن نصفه بـ (أنيميا التاريخ) فعمرها الآن 232 سنة فقط ، فإذا بها بحكم عوامل استراتيجية شتى تأتي في صدارتها إسرائيل والبترول مضطرة إلى التعامل والتعاطي مع منطقة الشرق



الأوسط بكل تعقيداتها وكل عراقة تاريخها الموهل في الزمن ، وتتقاطع معه خطوط متباينة ومتشابكة من مختلف الثقافات والديانات والإثنيات التي عرفت كيف تتعايش معا عبر هذا التاريخ الطويل ، الأمر الذي جعل راسمي السياسات ومهندسي صنع القرار في أمريكا يتعرفون على المنطقة من زوايا رئيسية ثلاث هي الزاوية العربية والزاوية الغربية والزاوية الشرق أوسطية.

ثم يتحدث الكاتب بعد ذلك عن موضوع إسرائيل كأداة لسياسة الولايات المتحدة الخارجية في الشرق الأوسط ، حيث تستعمل إسرائيل من خلال مسئوليتها وقادتها والحكوميين للإبقاء على التوتر حيا في الشرق الأوسط ، وهي أداة لتبرير التدخل البريطاني - الأمريكي - الفرنسي - الألماني ، حيث أعداء إسرائيل يوافقون على أن تل أبيب وكيلا المصالح الخارجية البريطانية الأمريكية وقد حذر وزير الدفاع الإيراني السابق علي شمخاني ، الحكومة الأمريكية بأن الرد العسكري الإيراني على أي هجوم إسرائيلي ، سيستهدف كلا من إسرائيل والولايات المتحدة ، وهذا ما يعني أن إسرائيل لن تقدم على أي عدوان دون إذن من الولايات المتحدة ، ولقد شارك البيت الأبيض بشكل كامل في كل التجارب التي أجريت على الصواريخ الإسرائيلية كما أن التحضيرات الحربية الإسرائيلية قد تمت بتنسيق أمريكي.

ثم يتناول بعد ذلك وضعية دراسات الشرق الأوسط في الجامعات الأمريكية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 ، حيث عنيت الحكومة الأمريكية بدراسات الشرق الأوسط حتى كانت لجنة الشؤون الخارجية في عهد السيناتور هنري جاكسون تستضيف العديد من أساتذة الجامعات الأمريكية والبريطانية لتقديم شهادتهم في قضايا تخص المنطقة ، وازدادت حاجة الولايات المتحدة لهذه الدراسات بعد حرب الخليج الثانية واحتلال العراق للكويت عام 1990 ، فزاد الدعم لهذه الدراسات وقدمت المنح التي كان بعضها مشروطا بالخدمة في أجهزة الحكومة الأمريكية وبخاصة الاستخبارات ، وقد أثار هذا الأمر اعتراض العديد من الأساتذة ولكن الحكومة الأمريكية مضت في تمويل هذه الدراسات بطريقة مشروطة بالإضافة إلى الحكومة الأمريكية ، بأن الحركة الصهيونية



العالمية التفتت إلى هذه الدراسات فزرعت فيها العديد من التلاميذ والأساتذة لتصدر الدراسات والمؤتمرات والندوات مؤيدة لوجهة النظر الصهيونية وليستمر الدعم غير المحدد لإسرائيل ، كما أن بعض العرب والمسلمين قد قاموا بإنشاء معاهد للدراسات العربية والإسلامية ، ولكنهم لم يحققوا النجاح الذي حققه اليهود ، بل إن بعض هذه المعاهد حققت نتائج عكسية.

وجاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 م فظهر تغيير كبير في دراسات الشرق الأوسط أولها استمرار التركيز على اتهام الإسلام بالإرهاب ، وتقال السعودية نصيبا كبيرا من هذا الهجوم لمكانتها الخاصة في العالم العربي ، وازدادت صلة بعض المتخصصين في دراسات الشرق الأوسط الذين يتبنون السياسات التي يتبناها المحافظون الجدد في الحكومة الأمريكية حتى أصبح هؤلاء الخبراء بالشرق الأوسط أو المستشرقون هم من يقدمون الغطاء الفكري للسياسة الأمريكية في العالم العربي الإسلامي وبخاصة في احتلال العراق وأفغانستان وغير ذلك من القرارات السياسية.

أما الفصل الثالث والرابع من الكتاب فيتناول بداية موضوع الوعي السياسي وتطبيقاته ، حيث إن الوعي السياسي غالبا ما يتم نشره بين الناس عن طريق وسائل الإعلام بجميع أنواعه ، إلا أن الاستغلال والاحتكار لوسائل الإعلام والاتصال الجماهيري من قبل بعض الجهات في المنطقة كلها أدت إلى تسطيح الوعي السياسي لدى الأفراد في هذه المنطقة (الشرق الأوسط) وأيضا فإن انعدام المشاركة السياسية وعدم وجود الحرية في عمل الأحزاب المعارضة في داخل المجتمع يؤدي بشكل أو بآخر إلى تخلف الوعي السياسي بالنسبة للمواطنين.

ثم ينتقل الكاتب بحديثه إلى الثورات العربية ومشروع الشرق الأوسط الجديد ، حيث مضى أعوام على اندلاع الثورات العربية ، وما زالت حالات الصخب والفوضى التي بدأت تظهر في دول الربيع العربي تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن دول المنطقة بدأت تدخل في إطار الفوضى الخلاقة وهو الشعار الذي رفعته كونداليزا رايس بعد غزو



الولايات المتحدة للعراق عام 2003 ، وذلك في إطار مشروع الشرق أوسطي الجديد، الذي يتم فيه تقسيم الدول العربية إلى دويلات صغيرة وتصبح فيه إسرائيل القوة العظمى.

فمثلا بالنسبة للحالة المصرية ، يستدل الكاتب بسلسلة مقالات بعنوان " مصر الحرب المقبلة " نشرها د. محمد عمارة في الثمانينات نقلا عن مجلة يصدرها البنتاجون " وزارة الدفاع الأمريكية " ونقلتها مجلة " كيفونيم " في القدس (فبراير 1982) عن أن الخطة الإسرائيلية الأمريكية تقضي بتقسيم مصر إلى دويلات:-

1- سيناء وشرق الدلتا (تحت النفوذ اليهودي) ، ليتحقق حلم اليهود من النيل إلى الفرات.

2- الدولة النصرانية عاصمتها الإسكندرية ، تمتد من جنوب بني سويف حتى جنوب أسيوط وتتسع غربا لتضم الفيوم ، ثم تمتد في خط صحراوي عبر وادي النطرون الذي يربط هذه المنطقة بالإسكندرية ، وتتسع مرة أخرى لتضم أيضا جزءا من المنطقة الساحلية الممتدة حتى مرسى مطروح.

3- دولة النوبة المتكاملة مع الأراضي الشمالية السودانية ، عاصمتها أسوان ، يربط الجزء الجنوبي الممتد من صعيد مصر حتى شمال السودان باسم بلاد النوبة بمنطقة الصحراء الكبرى ، لتلتحم مع دولة البربر التي سوف تمتد من جنوب المغرب في البحر الأحمر.

4- مصر الإسلامية عاصمتها القاهرة ، تضم الجزء المتبقي من مصر ، ويراد لها أن تكون تحت النفوذ الإسرائيلي ، وأنها تدخل في نطاق إسرائيل الكبرى كما رسم حدودها المشروع الصهيوني.

هذه الدويلات الأربع عادت صورتهم إلى الظهور مرة أخرى بعد فترة من قيام الثورة المصرية عندما كشف المجلس العسكري بصورة مفاجئة عن مؤامرة تستهدف وحدة البلاد جغرافيا ، محذرا من أخطار المرحلة المقبلة.



وأوضح الجيش وقتها أن الهدف النهائي من كل ما سبق هو تفتيت مصر إلى دويلات صغيرة ، وأشار إلى أن ذلك يأتي في إطار خطة أوسع لتقييم الدولة العربية ، مثلما حدث مع السودان والمحاولات التي جرت في العراق وتجرى في ليبيا ، كي تصبح مصر في غاية الضعف أمام إسرائيل بحيث تكون إسرائيل هي مقلب القط في الشرق الأوسط الجديد.

واختلاف التعبيرات بين الشرق الأوسط الجديد أو الكبير أو الموسع في السياسة الخارجية الأمريكية ، تزامن مع تدشين مشروع خط أنابيب النفط (باكو - تبليس جيهان) في شرق البحر المتوسط ، كما أن عبارة " الشرق الأوسط الجديد " وصلت إلى أوجها في تصريحات وزير خارجية أمريكا ورئيس وزراء إسرائيل في عز الحصار الإسرائيلي للبنان في عام 2006 بدعم أنجلو-أمريكي ، يوم أبلغ أولمرت ورايس وسائل الإعلام العالمية أن مشروعا لخلق شرق أوسط جديد قد انطلق من لبنان هذا الإعلان شكل تأكيدا لوجود خريطة طريق عسكرية ، بريطانية - أمريكية - إسرائيلية في الشرق الأوسط هذا المشروع الذي كان في مراحل تحضيرية منذ سنوات عدة يقضي بخلق قوس من عدم الاستقرار ، والفوضى ، والعنف ، يمتد من لبنان إلى فلسطين وسورية والعراق ، والخليج العربي ، وإيران وصولا إلى حدود أفغانستان الشرقية والشمالية مرورا بدول شمال إفريقيا.

ومن المؤكد أن إعادة خريطة الشرق الأوسط وتقسيمه ، ابتداء من الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط في لبنان وسورية ، والأناضول (في آسيا الصغرى) ، مرورا بشبه الجزيرة العربية ، والخليج العربي ، والهضبة الإيرانية ، وصولا إلى مصر والسودان ودول شمال إفريقيا يعكس أهدافا اقتصادية واستراتيجية وعسكرية واسعة ، تشكل جزءا من أجندة أنجلو أمريكية إسرائيلية قديمة في المنطقة.

إلا أنه خلال دراسة التغيير السياسي الذي حدث في العالم العربي فيما يعرف بالربيع العربي تم الوصول إلى النتائج التالية:-



أولاً: تعتبر ثورات الربيع العربي هي حصيلة لمجموعة من العوامل الداخلية السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بالإضافة إلى العوامل الخارجية التي كان لها دور محدد ، وبالتالي شكلت هذه الثورات العربية الداعية للتغيير السياسي زعزعة لبننة الدولة التسلطية في العالم العربي مما ساعد على سقوط بعض الأنظمة العربية لذلك كان لثورات الربيع العربي دور فاعل في إحداث التغيير السياسي في المنطقة العربية.

ثانيا : ظهور المجتمع المدني في دول الربيع العربي باعتباره قوة مركزية في أحداث التغيير السياسي في المنطقة.

ثالثا : غيرت ثورات الربيع العربي الرؤية السياسية للدول الغربية حول منطقة الشرق الأوسط ، ومستقبلها السياسي، وبالتالي ستقر هذه الثورات علاقات دولية جديدة مع الغرب تعمل على تغيير شكل التحالفات التي كانت موجودة في المنطقة.

رابعا : أفرزت الثورات العربية هيمنة للقوى الإسلامية على السلطة وذلك بعد نتائج الانتخابات التي أعقبت التغيير السياسي للأنظمة العربية التي سقطت ، ما كان له كبير الأثر في تنشيط التيارات الإسلامية بمختلف أنواعها مما يعني تنشيطاً لأيديولوجية الإسلام السياسي في المنطقة العربية.

ثم يتناول الكاتب بعد ذلك موضوع الصراع على الموارد في الشرق الأوسط ، حيث إن الصراع على الموارد هو صراع أزلي قديم ضاربة جذوره في عمق التاريخ الإنساني على الأرض ، فمستويات الصراع على الموارد تم تقسيمها إلى ثلاث مستويات عالمية وإقليمية ومحلية.

الصراع على المستوى العالمي فيشكل قمة الصراع بين القوى العظمى ممثلة في الولايات المتحدة الأمريكية ودول الاتحاد الأوروبي وبقية دول العالم ، فبعد أن تمكنت هذه القوى الكبرى من تعزيز مكانتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية وأصبحت كل موازين القوى في مصلحتها بدأت في الهيمنة على موارد العالم لكسب مزيد من القوة ،



فمثلا بالنسبة للنفط فتسعى الولايات المتحدة للسيطرة الكاملة عليه فهي سلعة لها أهميتها في الحرب والسلم ، لذا فالصراع على الموارد النفطية صراع عالمي تتنافس عليه القوى الكبرى الأمر الذي قاد ويقود إلى إشعال الحروب في منطقة الشرق الأوسط وغيرها من مناطق العالم ، وخير مثال على ذلك محاولة الولايات المتحدة قلب نظام الحكم في فنزويلا وهي من أهم الدول المصدرة للنفط في أمريكا الجنوبية لأن الحكومة الفنزويلية لم تخضع للضغوط الأمريكية ، وعلى هذا تستخدم الدول العظمى وعلى رأسها الولايات المتحدة كل الضغوط السياسية والاقتصادية والعسكرية للحصول عليها الأمر الذي جعل العالم أقل أمنا في ظل هيمنة القطب الواحد.

الصراع على المستوى الإقليمي ، ويمكن أن يأخذ الصراع على الموارد مستوى إقليميا عندما تتعارض مصالح الدول المتجاورة كما هو الحال في النزاعات على الحدود السياسية ، فالصراعات على الحدود تعني الصراع على الأرض والأرض تعني الموارد الأرضية ، فقد شهدت نهاية القرن العشرين صراعات دامية على الحدود بين كثير من الدول معظمها في العالم الثالث ، والمشكلة هنا أن الاستعمار الأوروبي رسم حدودا بين المستعمرات لا تستند إلى واقع تاريخي وإثني واقتصادي فلما حصلت المستعمرات على استقلالها بدأت النزاعات على الحدود التي تركها الاستعمار ، ويشير هنا إلى الحرب الأخيرة بين إثيوبيا وأريتريا والنزاعات الكامنة بين مصر والسودان على مثلث حلايب ، وبين ليبيا وتشاد على إقليم أوزو وبين الصومال وكينيا وإثيوبيا والصومال وبين الهند وباكستان على إقليم كشمير وغيرها من النزاعات.

ومن المشكلات أيضا التي بدأت تطل برأسها خاصة في نهاية القرن الماضي وتتواصل في القرن الحالي مشكلة المياه المشتركة المتمثلة في الأنهار الدولية ، فإذا نظرنا إلى الأنهار الدولية في المنطقة العربية نجد كلها محل نزاع بين الدول المشاركة في أحواض الأنهار ويمثل نهر الأردن وهو نهر صغير أكبر المشكلات حيث قامت إسرائيل بالسيطرة الكاملة عليه مما يهدد الأمن المائي بالنسبة للأردن وفلسطين ليس هذا فحسب بل تقوم إسرائيل بسرقة المياه العربية في جنوب لبنان وهضبة الجولان السورية المحتلة



كما تسيطر على المياه الجوفية في فلسطين المحتلة مما أدى إلى تدمير القطاع الزراعي الفلسطيني.

وقد فعلت تركيا مثلما صنعت إسرائيل فيما يخص مياه دجلة والفرات ، وقد قامت خلال العقود الثلاثة الماضية بإقامة أكثر من عشرين مشروعا مائيا على النهرين خاصة نهر الفرات دون التفاوض مع كل من سوريا والعراق مما أدى إلى تناقص المياه المناسبة إلى سورية بحوالي النصف إضافة إلى تدني نوعية المياه في كل من سورية والعراق.

وأيضا تقوم إثيوبيا الآن ببناء المنشآت المائية دون الرجوع إلى السودان ومصر مما يعقد المشكلة المائية مستقبلا ، وتقدم الولايات المتحدة وإسرائيل الدعم لإثيوبيا في بناء المشروعات المائية على الروافد العليا للنيل الأزرق وبحيرة تانا في محاولة للضغط على السودان ومصر في سبيل تنازلات سياسية.

أما الصراع على المستوى المحلي فملعب دارفور في السودان خير مثال لهذا الصراع والذي يحدث فيه نزاع وصراع بين القبائل وصل إلى حد التدخل الدولي في هذا الإقليم .

أحمد محمد سعيد

باحث مصري - القاهرة



- تأثير مواقف ترامب على مسار الأزمة السورية د. مصطفى عبدالعزيز ومآلتها
- الإعلام الجديد وأثره على قيم الديمقراطية الليبرالية عماد علي حسن



تداعيات مواقف إدارة ترامب على مسار الأزمة السورية

د. مصطفى عبدالعزيز مرسى

كاتب مصري ومساعد وزير الخارجية الأسبق - مصر

على الرغم من الطابع المؤسسي للنظام الأمريكي والذي يفترض أنه يحد نسبياً من تأثيرات التغيير القيادي على التوجهات الخارجية للدولة، فإن رئاسة ترامب وما صاحبها من قرارات غير مألوفة أثرت على علاقات الولايات المتحدة بمختلف مناطق العالم⁽¹⁾، ونالت المنطقة العربية أكبر قدر من هذه القرارات. فمنذ توليه سلطاته أصدر ترامب عدة قرارات مست أوضاعاً سياسية وقانونية ودولية فيها بشكل جوهري، كقراراته بشأن القدس والجولان وانسحاب الولايات المتحدة من الاتفاق النووي مع إيران فضلاً عن استمرار بقاء سوريا بصفة خاصة في دائرة الاستهداف الأمريكية لعدة أسباب يأتي في مقدمتها:

- قدرة سوريا على التأثير في السياسات الإقليمية إيجاباً أو سلباً، فقد مارست في الإطار الفلسطيني دوراً معطلاً لمسار التسوية السياسية للمشكلة الفلسطينية وفقاً للمنظور الإسرائيلي.⁽²⁾

(1) د. علي جلال معوض، "التحالفات غير المستقرة: تعقيدات إدارة العلاقات بين الحلفاء على المستويين الإقليمي والدولي" اتجاهات الأحداث، مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة أبوظبي، العدد 22 يوليو - أغسطس 2017، ص 11

(2) بلال عبد الله، "مستقبل الدور الإقليمي السوري، ملف الأهرام الاستراتيجي - العدد 182 - فبراير 2010، ص 18"



- كما توجد عدة دوافع للتأثر الأمريكي من سورية يعود بعضها لمواقفها من الحرب الأمريكية على العراق، وفشل الجهود الأمريكية في ردع سورية/ بشار الأسد عن عدم استخدام أراضيها كأحد قواعد إسناد لعمليات المقاومة العراقية ضد الوجود العسكري الأمريكي.
- شعور إسرائيل بالخشية من سوريا، فقد كانت تمتلك جيشاً عقائدياً يمتلك خبرة ميدانية وخاصة حرب أكتوبر 1973 بجانب مصر، وبعد تحييد الجيش العراقي بعد الاحتلال الأمريكي للعراق 2003، وحان دور القضاء على الجيش السوري من وجهة النظر الإسرائيلية.
- فضلاً عن السعي الأمريكي المبكر لفصل العلاقة الاستراتيجية بين إيران والنظام السوري وتغيير نظامي البلدين إن أمكن.

أولاً: اعتراف إدارة ترامب بسيادة إسرائيل على هضبة الجولان المحتلة

أصدر ترامب قراراً بوعده في 2018/5/14 بنقل سفارة الولايات المتحدة من تل أبيب إلى القدس زاعماً أن القدس هي "عاصمة الشعب اليهودي الأبدية". كما اعتبر الرئيس ترامب في تغريدة لاحقة له بتاريخ 2019/3/21 أن على واشنطن الاعتراف بسيادة إسرائيل على مرتفعات الجولان السورية المحتلة منذ 1967، في خطوة خطيرة لم يعترف بها المجتمع الدولي، وبرر ذلك بأن هذه المرتفعات ذات أهمية استراتيجية وأمنية بالغة لدولة إسرائيل واستقرار المنطقة. ورداً على ذلك غرد نيتانياهو بدوره قائلاً: " في وقت تسعى فيه إيران لاستخدام سوريا منصة لتدمير إسرائيل، يعترف ترامب بشجاعة بسيادة إسرائيل على مرتفعات الجولان". وزعم نيتانياهو أنه "لولا الوجود الإسرائيلي في



هضبة الجولان لكانت إيران اليوم في طبرية وكرر المزاعم الإسرائيلية بأن حزب الله ينشط من أجل التمرکز في الجولان السوري، وأنه يشكل خلية للعمل ضد أهداف إسرائيلية⁽³⁾.

والجديد في هذا الموضوع أن بنيامين نتنياهو هو ادعى أن لإسرائيل حقوقاً تاريخية ودينية في هضبة الجولان حيث صرح قائلاً: "إن هذه الأراضي تعود لنا، ولدينا جذور تاريخية في هضبة الجولان، وعندما حفرنا هناك بالمعول عثرنا على كنيس يهودي نرسمه الآن: عدنا إلى الجولان، وهي لنا بحق تاريخي وبموجب حقنا في الدفاع عن النفس، والرئيس ترامب اعترف بذلك" ويلاحظ هنا أنه لم يسبق لليهود المتدينين الادعاء بوجود رابطة تاريخية ودينية لليهود بالجولان.

ويجد قرار ترامب بشأن القدس وبعده الجولان تفسيره في مطالعة الأفكار المسبقة التي يعتنقها، من ذلك قوله " إنه كان على بلاده أن تستولي على نفط العراق منذ عام 2003، كمكافأة شرعية بعد إسقاط النظام الحاكم في العراق ... فالغنائم تعود للمنتصر"⁽⁴⁾. وترامب يتبنى على هذا النحو مقولات قادة إسرائيل الذين يعتبرون الاستيلاء على الجولان "غنيمة حرب".

ويلاحظ أنه طوال مفاوضات السلام التي دارت بين سوريا وإسرائيل برعاية الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون واستغرقت أكثر من عام، لم يردد المفاوضون الإسرائيليون هذه الأسطورة / الأكذوبة، لأنهم كانوا يعلمون أن الجانب السوري سيدحضها بقوة ويظهر زيفها. وخلال هذه المفاوضات قدم الجانب السوري عروضاً واقعية تلبي معظم المطالب الإسرائيلية في الأمن والمياه، لا يستطيع أي طرف جاد ولديه رغبة حقيقية في صنع

(3) يلاحظ أنه طوال عهد حافظ الأسد وبعده بشار حرص النظام السوري على أمن مناطق الحدود الفاصلة بين إسرائيل وسوريا في منطقة الجولان ولم تقع أي حادثة تسلب أمانة خلال هذه الفترة إلى ما قبل الأزمة السورية .

(4) ورد ذلك في دراسة علي موسى الددا، "إدارة ترامب للسياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط"، المستقبل العربي - مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد 477 - نوفمبر 2018



السلام القائم على العدل أن يرفضها، ولكن الجانب الإسرائيلي كشف عن حقيقة مخططاته مبكرا برفضه لهذه العروض، لأنه كان يخطط للاستيلاء عليها كغنيمة حرب.

وقد استشعر حافظ الأسد بصفة خاصة ومبكرا حقيقة النوايا الإسرائيلية وأطماعها التوسعية في الأراضي العربية المحتلة في المفاوضات بين الفلسطينيين وإسرائيل والتي أسفرت عن اتفاق أوسلو 1994، والذي سارع إسحاق رابين فور توقيعها إلى القول: "لا نقاش حول القدس والمستوطنات ولا دولة للفلسطينيين في محادثات أوسلو" ولم تحترم إسرائيل الأجندة الزمنية لتفريغ أوسلو من مضمونها وهو ما يتحقق الآن.

إن توقيت صدور قرار اعتراف ترامب بسيادة إسرائيل على الجولان كان لهدفين: الأول دعم مركز ترامب نفسه داخليا، وأن هذا القرار تم اتخاذه في إطار حشد القوى السياسية وبصفة خاصة اللوبي الإسرائيلي، لدعم فرص ترشحه لولاية ثانية في 2022، والثاني: دعم مركز "نتنياهو هو" الداخلي والذي كان يتعرض بدوره لاتهامات بالفساد قد تعرضه للمحاكمة، فضلاً عن مساندته في حملته الانتخابية الأخيرة، والتي تلت صدور قرار ترامب.

وجاءت هذه التطورات قبل إعلان ترامب ما عُرف بـ "صفقة القرن"، التي لم تتبلور بعد وتستحق وفق ما تسرب منها، وصفها بـ "صفقة القرن".

وقد ادعى المتحدثون الإعلاميون باسم البيت الأبيض ووزارة الخارجية أن قرار ترامب جاء ردا على ما تقوم به سوريا وإيران ، وأن وجودهما لا يبعث على الاطمئنان... وتأكيدا لهذا التصور غير الحقيقي، قامت إسرائيل بعد يومين فقط من قرار الرئيس الأمريكي بقصف المناطق السورية شمال شرق حلب بغارات جوية إسرائيلية التي استهدفت إحداها مركز قيادة عمليات الحرس الإيراني في منطقة الشيخ نجار، كما طالت منطقة النفارين الصناعية ومستودعات الذخيرة شمال مطار حلب الدولي، وأكدت إسرائيل أنها سوف تواصل عملياتها ضد محاولات إيران الرامية لترسيخ وجودها العسكري في



سوريا، بالتوازي مع ادعاءات الولايات المتحدة بأن وجود إيران في هضبة الجولان يشكل أحد الأسباب الرئيسية لضم الهضبة.⁽⁵⁾

وإذا كان البعض يرى - وعن حق - أن قرار ترامب بشأن الجولان على هذا النحو معدوم بلغة القانون، فالانعدام يلحق أساسه القانوني كما يلحق الأثر المترتب عليه⁽⁶⁾، إلا أننا أصبحنا نعيش - بسبب المواقف الأمريكية الرعناء - في ظل قانون الغاب المستند لخطرة القوة. ولعل ما شجع ترامب على هذا النحو أن الأوضاع التي يعيشها العالم العربي سهلت اتخاذ مثل هذا القرار الذي تحاشاه الرؤساء الأمريكيون السابقون.

ولعلنا نتذكر أن الضغط الذي مارسه إسرائيل واللوبي الإسرائيلي لم يكن العامل الوحيد خلف قرار الولايات المتحدة مثلاً في الهجوم على العراق في مارس 2003، ولكنه كان عنصراً هاماً فيه. ويعتقد بعض الأمريكيين أن هذا الهجوم لتصفية الجيش العراقي وإزالة خطر ما كان يُعرف بالجبهة الشرقية كان بمثابة حرب من أجل البترول، ولكن لا يوجد دليل مباشر يؤيد هذا الادعاء. وبدلاً من ذلك، فإن دافع الحرب يرجع، في جزء كبير منه، إلى الرغبة في جعل إسرائيل أكثر أمناً وأن "التهديد الحقيقي" من العراق لم يكن تهديداً للولايات المتحدة. إن "التهديد غير المعلن" هو "التهديد لإسرائيل"⁽⁷⁾.

ولنطالع آراء بعض الأمريكيين المطلعين على جوهر النزاع العربي الإسرائيلي، فوليام بيرنز، النائب الأسبق لوزير الخارجية الأمريكي صرح عندما وجه إليه سؤال حول

(5) مكرم محمد أحمد "تبعاً والضفة بعد الجولان" الأهرام، القاهرة، 2019/3/31

(6) د. سليمان عبد المنعم، "الأخطر في محاولة شرعية احتلال الجولان العربية" الأهرام، 2019/3/30

(7) راجع تفاصيل ذلك في مقال أستاذين أمريكيين مرموقين هما: Professor John Mearsheimer and

Stephen Walt on the Israeli Lobby Stirred up a hornet's nest in Washington and

Elsewhere: www.irb.co.uk/v28/no6/mea01_html Also, see

www.nytimes/2006/04/19/opinion/19judt.html



قرار الرئيس ترامب الاعتراف بسيادة إسرائيل على الجولان السوري، بقوله: "إن إسرائيل تسيطر على الجولان منذ أكثر من نصف قرن، ولم يُمارس أي ضغط على إسرائيل للخروج منه. وفي سوريا حرب أهلية دامية، لكن أن تعترف بسيادة إسرائيل حالياً، فإنك لا تضيف شيئاً لأمن إسرائيل لكنك تخلق مشكلتين: الأولى، خدمة للأسد وإيران وروسيا، فبدلاً من الحديث عن إراقة الدماء في سوريا، يجري الحديث عن مقاومة الاحتلال، الثانية تتعلق بعدم جواز كسب أراضي الغير بالقوة وهذا مبدأ دولي".⁽⁸⁾

وبدوره نجد دينيس روس المعروف بمشاركته في مفاوضات السلام العربي الإسرائيلي، وانحيازه لإسرائيل يقول، في كتاب مشترك، عن "أن ضم الجولان لإسرائيل، هو بمثابة "دعوة لإسرائيل" لضم الضفة الغربية، وأن ذلك سيقود المنطقة إلى كارثة".⁽⁹⁾

ولاشك أن هذا القرار سيؤثر سلباً على مسار الأزمة السورية ويخلق لدى أطراف أخرى أطماعاً مماثلة. وهدف إسرائيل والولايات المتحدة من اتباع أسلوب إطالة أمد الأزمة السورية هدفها كسر الإرادة السورية لعرقلة مطالبات سوريا باستعادة الجولان مستقبلاً. وأكتفي في هذا المجال بأن أعيد إلى الذاكرة تحذيراً مسبقاً لفاروق الشرع - وزير الخارجية الأسبق - عندما قال "إن المستوطنين الإسرائيليين الذين سرقوا أرض السوريين لن يشعروا بالأمان أبداً..."⁽¹⁰⁾ وكأنه كان يتنبأ بما حدث.

ثانياً: انسحاب واشنطن من الاتفاق النووي مع إيران وتداعياته على الأزمة السورية:

(8) من مقابلة مع جريدة الشرق الأوسط، 2019/4/6 ص6

(9) Dennis Ross and David Makovskys "Golan Policy May Invite Israel's Right to Annex West Bank Territory: that would spell disaster" Washington Institute for near East Policy 29 March 2019.

(10) من كتابه "الرواية المفقودة" 2015 ص- 9



إبان حملته الانتخابية أعلن ترامب رفضه لهذا الاتفاق مشيراً إلى أنه الأسوأ على الإطلاق، كما وصفه صراحة بأنه "خطير جداً"، ومؤكداً بأنه "خطأ تاريخي" سيوقفه بأي وسيلة ليتسنى له تصحيح هذا الخطأ، ووضعه كأولوية في سياسته الخارجية، وبأنه سيسعى لزيادة العقوبات على إيران حتى أكثر مما كانت عليه قبل الاتفاق وأن إيران لا تحترم روح الاتفاق الموقع عام 2015 مع القوى العظمى. وفي خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في 19 أيلول/سبتمبر 2017 وصف "إيران بالدولة المارقة ومهدداً الطريق لإلغاء الاتفاق بقوله: "لا يمكننا السماح لنظام قاتل بالاستمرار في هذه الأنشطة المزعزعة للاستقرار مع استمراره في بناء صواريخ خطرة، ولا يمكننا الالتزام باتفاق إذا كان يقدم الغطاء لإقامة برنامج نووي محتمل".

ثم اتخذ ترامب قراره بالانسحاب من الاتفاق النووي مع إيران، والعودة إلى العقوبات التي فرضت على إيران في الثامن من أيار/مايو 2018، مؤكداً أن الاتفاق لم ينجح في وقف المساعي الإيرانية للحصول على السلاح النووي، أو ردعها عن مواصلة تطوير برنامجها للصواريخ الباليستية⁽¹¹⁾.

وترامب يرى أن إيران هي أساس مشكلات المنطقة، وهي الخطر الأول الذي يجب مواجهته بقوة، ويتبنى في هذا الشأن منظور اليمين الإسرائيلي⁽¹²⁾. والهدف الأساسي المستتر هو العمل على انسحاب إيران وميلشياتها من سورية والسعي لتغيير سياسة إيران تجاه إسرائيل. ولكن المشكلة أن هناك صعوبة كبيرة في انصياع إيران لهذه المطالب بعد أن استثمرت في سوريا أكثر من 30 مليار دولار بالإضافة لعشرات القتلى من العسكريين

(11) علي موسى الداء، إدارة ترامب للسياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط "المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية العدد 477، نوفمبر 2018

(12) د. محمد أنيس "ترامب وحساب الصفقات في الشرق الأوسط"، مجلة السياسة الدولية العدد 215 - يناير 2019 ص 135 ولعلنا نتذكر قول شمعون بيريز في مؤتمر شرم الشيخ الذي عقد في مارس 1996 "لقد أصبح للإرهاب عنوانا وهو طهران"



الإسرائيليّين، وهي عازمة على جني المكاسب الاستراتيجية التي تتوقعها في المدى الطويل حتى لو كانت على حساب المزيد من الخسائر البشرية والثروات في المدى القصير.⁽¹³⁾

ولتبرير انضمام الولايات المتحدة للاتفاق النووي أوضح أوباما أنه يأتي في مقدمتها توقعه أن تتحول إيران إلى شريك اقتصادي هام وعلى أمل أنه سيجري احتواؤها ضمن خطوط إنتاج غربية وبأدوات ناعمة، وأنه كانت هناك حاجة أمريكية لدور إيراني في أفغانستان وباكستان وأواسط آسيا، وأن هذا الموقف كان نابعا من جعل إيران "البلد الخطر" "أقل خطورة"، فلا أحد يتوقع أن تتحول إيران إلى فاعل خير. وليس أصرح من تعبير أوباما عما حصل بين إيران والدول الكبرى في لوزان في قوله "جربنا كل شيء (مع طهران) وأصبحنا أمام خيارين: الحرب أو الاتفاق فاخترنا الاتفاق".⁽¹⁴⁾ وفي الواقع إن هذا الاتفاق هو ثمرة تقاطع عدد من العوامل ويعد "بمثابة رهان على نيات إيران الحسنة ومدى استعدادها للالتزام ببندوده"⁽¹⁵⁾ ويلاحظ أنه لم يرد بهذا الاتفاق أي إشارة إلى الدور الإقليمي لإيران.

ويتناسى ترامب في مواقفه المعارضة للاتفاق مع إيران حيازة إسرائيل لأسلحة نووية منذ فترة طويلة، وأنها لم توقع على الاتفاقية الدولية لحظر الانتشار حتى الآن، وأن أسلحة إسرائيل النووية مكنت إسرائيل من انتهاج استراتيجية "الإكراه"، وهي استراتيجية هدفها حرمان العرب من بلوغ التكافؤ العسكري معها، ودفعهم إلى قبول ضم إسرائيل

(13) Barzou Daragahi, fineign policy, june2018 ونشر ترجمة عربية لها في مجلة شئون إيرانية ،

العدد رقم 206 - يوليو 2018 ص ، ص 12 - 14

(14) انظر المقالة المطولة التي نشرتها مجلة "ذي اتلانتيك" الأمريكية الصادرة بتاريخ 2016/3/10 والمعنونة بـ "عقيدة أوباما"

(15) انظر تعليق نوران شفيق على ندوة "الاتفاق النووي الإيراني وتداعياته الإقليمية والدولية" كلية الاقتصاد والعلوم

السياسية 2016/1/17، والمنشور في مجلة المستقبل العربي العدد رقم 447 مايو 2016 ص 171



الصفة الغربية والقدس الشرقية ومرتفعات الجولان. ومن الأهداف الأساسية في الاستراتيجية الإسرائيلية تنظيم تكتل دولي لحرمان العرب من الحصول على التكنولوجيا اللازمة للوصول إلى التكافؤ العسكري مع إسرائيل.

وبالمقابل فإن إيران ترى أن سوريا تمثل خط الدفاع الأول عنها، حيث أصبحت العقيدة العسكرية للنظام الإيراني هي عقيدة الدفاع المتقدم أو الأمامي عن إيران خارج الأراضي الإيرانية⁽¹⁶⁾ وانتقلت العلاقة بين البلدين فيما بعد إلى مرحلة التلاحم أو "المصير المشترك". والتحالف الاستراتيجي بين سوريا وإيران أشبه بالزواج الكاثوليكي لا يحتمل الطلاق ولا يسمح بالمشاركة، وهذا التحالف وإن جمع بين أسباب التنافر والتوافق في آن واحد، إلا أنه أثبت وجوده سابقا في المواجهة المشتركة الطويلة لنظام صدام وغيره من المواجهات الإقليمية. فالدولتان تفرقهما الأيديولوجية (التوجه العلماني لسوريا "ومعارضة الإسلام السياسي المتمثل في التيار الإسلامي الإخواني" والتوجه الشيوعي الإسلامي بامتياز لإيران)، ومع ذلك صمدت هذه العلاقات وتعايشت مع المتناقضات، لأنها تحقق مصالح حيوية هامة للجانبين. وقد سبق لـ"شمخاني" - وزير الدفاع الإيراني في (2004/2/27) أن وصف العلاقة مع سوريا بأنها تمثل عمقا استراتيجيا لبلاده وأنها جزء من الأمن القومي للجمهورية الإيرانية الإسلامية في المنطقة.

والتدخل العسكري الإيراني في الأزمة السورية الراهنة جاء عبر استدعاء سوري رسمي، وهو الأمر الذي تدافع به كل من إيران وروسيا عن الوجود الإيراني في مواجهة المطالب الإسرائيلية والأمريكية بخروج إيران من سوريا " فالوجود العسكري الإيراني في سوريا تم بناء على طلب من الحكومة السورية وهو لذلك وجود شرعي " على العكس من

(16) رضا شحاتة، "الرؤية الأمريكية الجديدة للشرق الأوسط وشروطها الغائبة" شئون عربية، العدد رقم 20



الوجود الأمريكي نفسه الذي تطالب سوريا بضرورة خروجه"⁽¹⁷⁾، وقد تم التوقيع على "اتفاق استراتيجي طويل الأمد" بين إسرائيل وسوريا. وهذا التحول فرضته تداعيات الأزمة السورية التي كادت تُسقط النظام السوري نفسه.

وإذا تعمقنا في دوافع ترامب الأساسية في تصعيد الموقف مع إيران، نجد أن وراءه رغبة إسرائيل في إنهاء الوجود الإيراني بسوريا، ومن هنا جاء سعي ترامب لإبقاء إيران في وضع الخصم المعزول بشكل دائم، والسعي لإزاحتها من سوريا. وإيران هي إحدى القوتين الداعمتين للنظام السوري، وإيران تعتبر سوريا خط الدفاع الأول عنها، وكل من إيران وروسيا تنسب لنفسها أنها حالت دون سقوطه. وبطبيعة الحال فإن تحقق انسحاب إيران فإن ذلك سيؤثر بالضرورة على بنية علاقات القوى في الساحة السورية.

وإيران ليست ضحية بريئة، فمنذ 1979 والسياسة الداخلية في طهران، هي التي تشكل سياسة إيران الخارجية، وهيمنت الأجنحة المتطرفة على محتواها وتحكمت في توجهاتها سواء بالتدخل في الشؤون الداخلية لدول الجوار وزعزعة الاستقرار بها أو اتباع سياسة التحريض الطائفي وغير ذلك وبالمقابل نجد أن اليمين المتطرف في إسرائيل وراء الدفع بالملف الإيراني إلى حافة الهاوية. والسعي لإحداث تقارب إيراني خليجي يراعي مبادئ حسن الجوار مهما تحدثنا عن أهميته وضروراته فإن احتمال تحقيقه، سيظل للأسف - ولأمد غير قصير - محكوما بسقف أمريكي طاغ، ومطامع إسرائيلية جامحة.

نخلص مما تقدم أن المستهدف الأول في سوريا، في إطار الأزمة الإيرانية الأمريكية الراهنة هو الوجود الإيراني المتجذر في الكيان السوري. وتوازن القوى السائد حاليا في سوريا توازن حرج وهش ويتأثر بأقل تغيير في مكوناته، وإذا انسحبت إيران فإن

(17) "التغلغل الإيراني في سوريا...واقع ومحاولات هادفة أم محاولات لجر دمشق نحو الصراع الطائفي" مجلة المجلة العدد 1473 - 2008/10/4 وورد ذلك في محمد السعيد إدريس المرجع السابق بعد الإشارة إليه ص 46 - 47.



النظام السوري سيصبح مكشوفاً عسكرياً ومالياً، ما لم يتمكن هذا النظام من تعويض الفراغ - الناجم عن ذلك من مصادر أخرى، وهو أمر يبدو صعباً، لاسيما في المدى المتوسط. وفي حالة انسحاب إيران من سوريا، في إطار سياسي أو اضطراري نتيجة مواجهة أمريكية إيرانية، فإن ذلك سيكون بمثابة دعوة مفتوحة لإسرائيل لمزيد من التغلغل في الجغرافية السورية، بل في الجغرافية العربية المجاورة وتنفيذ باقي مخططاتها، لا سيما وأن الموقف الروسي لا يتوقع أنه سيواجه الموقف الإسرائيلي بشكل حازم، وأن سوريا ستدفع في النهاية ثمن تبادل المصالح والتوافق بين واشنطن وموسكو التي تلتقي في النهاية حول تعزيز أمن إسرائيل.

ثالثاً: ما وراء إعلان الرئيس ترامب عن نيته سحب القوات الأمريكية من سوريا ثم تراجعها عن ذلك

أثار إعلان ترامب عن نيته سحب القوات الأمريكية من شمال شرق سورية في مارس 2018، وجاءت ردود الفعل في أغلبها محذرة من مغبة ذلك، وأنه قد يؤدي إلى انهيار الوضع الأمني في سوريا ويعزز وضع إيران إذا ما تم دون الأخذ في الاعتبار ما ينجم عن ذلك من صراع بين القوى المتنافسة لملء الفراغ الناشئ عنه ، لا سيما بين وحدات حماية الشعب الكردية التي تطالب بمنحها قدراً أكبر من الحكم الذاتي واحتمال مواجهة موقف تركيا التي كانت تستعد للتدخل ضد مواقع وحدات حماية الشعب الكردية التي تدعي أنه يمثل خطراً على أمنها القومي!!؟

وبطبيعة الحال فإن لإسرائيل وإيران وروسيا لكل منها تقييم مختلف عن تداعيات مثل هذا الانسحاب على مصالحها ومشاريعها الإقليمية في سورية.

وكان قرار ترامب في هذا الشأن مفاجئاً حتى لبعض أعضاء إدارته وحلفائه والذي علل اتخاذه بأنه حان وقت عودة الجنود الأمريكيين إلى أرض الوطن، وقوله " إن الدول العظمى لا تحارب الحروب إلى ما لا نهاية لها"، الأمر الذي دفع وزير الدفاع الأمريكي



"جيمس ماتيس" وآخرين إلى الاستقالة احتجاجاً على هذا القرار "المرتجل" وملابسات اتخاذه، واتهمه أعضاء من حزبه بأنه سيسبب أضراراً بالأمن القومي الأمريكي، وسيتيح الفرصة لإيران وتركيا المزيد من الهيمنة".

وقد أثار قرار الانسحاب من سورية - على هذا النحو - تساؤلات حول حجم الوجود الأمريكي فيها، وتبين أنه أكبر حجماً وأكثر انتشاراً مما كان يعتقد البعض. فهذا الوجود يتمثل في قرابة (2000) جندي منتشرين في عدد من القواعد أهمها:

أ- مطار الرميلان الواقع في محافظة الحسكة، شمال شرق سوريا، قرب الحدود مع العراق، ويوجد فيها العديد من آبار النفط، التي تسيطر عليها قوات سوريا الديمقراطية (ق.س.د).

ب- منطقة عين العرب (كوباني) على الحدود العراقية المشتركة مع تركيا وسوريا.

ج- قاعدة الشدادي الواقعة بين محافظتي الرقة ودير الزور، وتضم قاعدة للطيران المروحي، ومنشآت تدريب عسكرية.

د- قاعدة تل البيدر والمبروكة في الحسكة، القريبة من القامشلي. هـ- قاعدة في حقل عمر النفط في دير الزور.

و- قاعدة الزكف في التنف السورية، وهي قريبة من قاعدة التنف على المثلث العراقي - السوري - الأردني المشترك.

ز- قاعدة في تل أبيض في محافظة الرقة.

ح- كما توجد قاعدة للقوات الأمريكية تسمى (صنديد) تقع في منطقة عشائر شمر في الجانب السوري، حيث يزيد عدد الجنود الأمريكيين الموجودين فيها على (500) جندي.

ط- وتوجد القوات الأمريكية والتنظيمات المتحالفة معها في مناطق شرق الفرات، والتي تشكل ثلث مساحة سوريا، وتضم (80%) من صادرات النفط والغاز السوريين،



ولها حدود مشتركة مع العراق تصل إلى مسافة (350) كيلو مترا تقريبا، وتمتد من منطقة القائم غرب العراق، إلى الحدود العراقية - التركية - السورية وهذا يوضح أهمية هذه المناطق اقتصاديا وعسكريا وأمنيا.⁽¹⁸⁾

وبالنسبة لروسيا، لاشك أن الانسحاب الأمريكي - لو تحقق - سيصب في مصلحتها، وسيزيد من القدرة الروسية على السيطرة على المناطق التي كانت خاضعة للسيطرة الأمريكية أو سيطرة حلفاء واشنطن وخاصة قوات سوريا الديمقراطية. كما سيفيد حلفاء النظام السوري، وفي مقدمتهم إيران فالانسحاب الأمريكي سيزيل عقبة هامة أمام المخططات الإيرانية لاسيما في المناطق الاستراتيجية التي ستسحب منها الولايات المتحدة.

ومن هنا فإن الانسحاب الأمريكي لو تحقق، ستقوم قوة أو أكثر بملء هذا الفراغ إن صراعا أو اتفاقا. ويمكن حصر هذه القوى في تركيا وروسيا وإيران والدولة السورية⁽¹⁹⁾، يضاف إليهم إسرائيل التي لن تقف مكتوفة الأيدي.

فبالنسبة لتركيا فهي قدرت مبدئيا أن هذا الموقف سيطلق يدها لمقاتلة الأكراد في هذه المنطقة، لا سيما وأن ترامب داعب أحلام رجب طيب أردوغان تليفونيا بقوله "إن سوريا لك" غير أن الأمور لم تسر في الواقع وفقا لذلك، بل تلقى تحذيرات من الرئيس الأمريكي من مغبة القيام بأي عمل من شأنه تهديد أمن المنطقة الكردية، فقوات سوريا الديمقراطية هي التي واجهت بقايا داعش في مناطقها وقضت عليها، بفضل تمويل الولايات المتحدة هذه القوات بالمال والسلاح والتدريب، وهي تمثل الحليف الرئيسي

(18) عمرو عبد العاطي "الانسحاب الأمريكي من الشرق الأوسط بين مؤيد ومعارض" مجلة السياسة الدولية، العدد 216 - إبريل 2019، ص 282 وما بعدها.

(19) عصام عاشور: "الرايحون والخاسرون من الانسحاب الأمريكي من سوريا" مجلة شئون عربية العدد رقم 177 ربيع 2019 ص 106



للولايات المتحدة في مناطقها، فإذا انسحبت واشنطن منها، ستجد هذه القوات نفسها في مواجهة تركيا وستبقى تحت رحمتها.

وبالنسبة لإسرائيل أثار هذا القرار قلقها البالغ وادعاءها أن غياب القوات الأمريكية سيؤدي إلى تعرضها لمخاطر على أمنها وأنه سيضعف جهودها لوقف التمدد الإيراني في سوريا، قرب الحدود الإسرائيلية. فالتواجد الإيراني تعتبره خطراً رئيساً يهدد وجودها وأمنها.

وبالنسبة لسوريا فإن نظامها انتابه شعور مزدوج من الحذر والارتياح، لأنه سيتأثر سلباً عليها في حالة استمرار العقوبات الاقتصادية المفروضة على إيران ، وسيقلل من حجم دعمها للنظام السوري في وقت مازالت العقوبات مطبقة على سوريا.

وفي الواقع فنحن نعتقد في صحة فرضية أنه كلما قل عدد الداخلين والفاعلين في نزاع إقليمي بحجم النزاع الدائر على الأرض السورية، كلما تزايدت فرص احتمالات التوصل إلى حلول للخروج من المأزق الحالي. فالنزاع الدائر في سوريا حالياً أصبح دولياً وإقليمياً، يضاف إليه أن سوريا أصبحت ساحة مفتوحة أمام العديد من التنظيمات التكفيرية، كما يُصعب من احتمالية التوصل لصيغة توافقية بين كل هذه الأطراف ذات الأهداف المتعارضة. ولذا نظن أنه كلما تناقص عدد المنغمسين في هذا الصراع كلما ساعد ذلك على إيجاد مخرج له، لاسيما لو أن الأطراف المنسحبة كانت بحجم الولايات المتحدة، والتي أعتقد أنها لم تصل بعد إلى قرار حقيقي بالانسحاب. **وهنا نتساءل**

لماذا أثار تراب زويعة الانسحاب؟

لقد تباينت الآراء حول هذا القرار. فبعض الخبراء الأمريكيين اعتبره تخطياً في عملية صنع قرارات الأمن القومي وضعف التنسيق بين المعنيين به، فضلاً عن أنه يكشف عن عدم اكتراث الرئيس الأمريكي بالحقائق والمعلومات التي ترد إليه من أجهزة الأمن والمخابرات، ويتخذ قراراته بشكل مرتجل وهو على هذا النحو يقوض الأمن القومي



بقدر أكبر من أي خصم أجنبي.⁽²⁰⁾ ونجد فريقاً آخر، يذهب في نفس الاتجاه وإن أضاف أسباباً ومخاوف أخرى إلى حد القول أن هذا القرار لو تم تنفيذه سيمنح روسيا منافس الولايات المتحدة على قيادة النظام الدولي المزد من التأثير في اتفاقيات التسوية السياسية للأزمة السورية، فضلاً عن تعزيز انتصار النظام السوري وحلفائه وفي مقدمتهم إيران وميلشياتها.⁽²¹⁾

إلا أن فريقاً ثالثاً من الخبراء يرون في الأساس أن الانخراط الأمريكي في منطقة الشرق الأوسط، يعد أسوأ أخطاء السياسة الخارجية في التاريخ الأمريكي، وأن الرئيس ترامب محق في سحب القوات الأمريكية من سوريا، إلا أن ذلك ليس كارثة، فالأمر لم يكن مكسباً أو خسارة للولايات المتحدة⁽²²⁾ وأنه حينما تكون الأزمة السورية عبئاً على روسيا وإيران بصفة خاصة فإن ذلك أفضل للولايات المتحدة التي تتطلب ظروفها التقليل من التزاماتها الضخمة في منطقة الشرق الأوسط بالأخذ في الاعتبار بالدروس المستفادة من التجربة الأمريكية في العراق، لا سيما وأنه ليس للولايات المتحدة مصالح حيوية في سوريا، فضلاً عن الرأي العام الأمريكي لم يعد يؤيد حرباً طويلة ومكلفة في الخارج.

(20) هذا رأي سوزان رايس، مستشارة الأمن القومي الأمريكي السابقة في إدارة باراك أوباما، وعبرت عنه في مقال لها بعنوان "التهديد القائم في البيت الأبيض" New York Times, 23 December, 2018, <http://nyti.ms/2Cyn0AV>, (Accessed 18 March, 2019). نقلاً عن مقال: عمرو عبد العاطي، "الانسحاب الأمريكي من الشرق الأوسط بين مؤيد ومعارض، مجلة السياسة الدولية العدد 216- إبريل 2019، ص 282 وما بعدها.

(21) Paul Salem "America's Mideast retreat" The World Today, February & March 2019 (21) <http://bit.ly/2JmeelH4> (Accessed 18 March, 2019) نقلاً عن مقال عمرو عبد العاطي مرجع سبقت الإشارة إليه .

(22) Aaron Miller and Richard Sokolsky, "5 reasons why Trump Is right about getting America out of Syria", Los Angeles Times, 3 January 2019, <http://lat.ms/2BWDEID> (Accessed 18 March, 2019).



نخلص مما تقدم أنه حتى الآن لم تتضح الرؤية لإعلان ترامب عن عزمه الانسحاب من سورية مازال في حيز النوايا، وعلينا أن نتذكر أن واشنطن ترى أن سياسات سوريا وإيران تمثلان تحدياً للسياسة الأمريكية الإسرائيلية، مما يعني أن واشنطن وتل أبيب تعملان على عزلهما عن تفاعلات هذه المنطقة. وتدخلت الولايات على خط الصراع في سوريا ليس بهدف تهدئته وإيجاد الحل المناسب له، وإنما دخلته من أجل تفجيره وإطالة أمده، والعمل على تأمين إسرائيل عن طريق تركيع سوريا وجعل نظامها عاجزاً، لأجل غير منظور، عن القيام بدور يهدد أمن إسرائيل أو توسعاتها. ومن هنا نعتقد أن الهدف المرجح لإعلان ترامب عن نيته فتح باب المساومات بجس نبض السوق السياسية لمعرفة ردود أفعال مختلف الأطراف المعنية، والبحث عن أطراف إقليمية مستعدة لتحمل تكاليف تواجد القوات الأمريكية في سوريا، فضلاً عن إطلاق مزيد من الصراع بين القوى الإقليمية والدولية المنغمسة فيه وبالتالي إطالة أمد الصراع، وجعل انفراجه أكثر صعوبة.

رابعاً: حكاية الكيماوي والتواطؤ مع عناصر داعش في سوريا

اتُّهم النظام السوري باستخدام غاز السارين ضد الشعب السوري في مدينة "خان شيخون"، ورغم مطالبة الحكومة السورية بإفاد لجنة تحقيق متخصصة لتبحث في هذه الواقعة ومصدرها ومرتكبيها، إلا أن إدارة ترامب لم تنتظر وسارعت بالقيام بغارة صاروخية استهدفت مطار الشعيرات يوم 2017/4/7 ودمرت بعض أركانه.

وفي تقدير البعض فإن هذه العملية كان الهدف منها إظهار حزم إدارة ترامب، وأنها بدأت تغيير من سياستها في سوريا بالانخراط المتزايد في الشأن السوري، بالمقارنة بسلوك إدارة أوباما "المتساهلة"، وبالتالي إظهار حزم إدارة ترامب - على حد قولها - التي افتقدت في عهد الإدارة السابقة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أوباما في مقابلة مع "اللاتانتيك" أوضح ما يمكن اعتباره رداً مسبقاً على ما قاله ترامب أنه "ليس كافياً أبداً



اللجوء إلى العمل العسكري بكل ما يترتب عليه من نتائج قاسية بمجرد إثبات أننا إذا قلنا فعلنا⁽²³⁾.

وقد جاءت عملية استهداف مطار الشعيرات بعد معركة الرقة مقابل معركة حلب الروسية بالدرجة الأولى، لإشعار روسيا بأنها ليست اللاعب الوحيد في الساحة السورية كما كانت في جانب منها محاولة لطمس الالتباس الذي كان دائراً وقتها حول قضية التدخل الروسي في الانتخابات الرئاسية الأمريكية، والاتصالات السرية التي قيل إنها تمت بين بعض رجال ترامب ومسؤولين روس، ووضعها خارج حلقة الشكوك.

إضافة إلى ما تقدم فإن ضرب مطار الشعيرات كان هدفة أيضاً إرضاء إسرائيل المطالبة بتصفية المخزون الكيماوي السوري!!، كما اعتبرها أنصار ترامب - على هذا النحو - أنها إيذاناً بنهاية المرحلة السياسية الأمريكية المتكفئة والمتردة التي اتبعتها إدارة أوباما. وفي النهاية فإن ضرب مطار الشعيرات كان رسالة تحذير لكل من إيران وسوريا، بأن تكرار استخدام الكيماوي لن يمر دون عقاب. ويلاحظ أن عملية ضرب مطار الشعيرات شاركت فيها كل من بريطانيا وفرنسا، بهدف إضفاء طابع أطلنطي عليها وبالتالي توسيع نطاق الاتهام الدولي للنظام السوري.⁽²⁴⁾

كما اتسمت عملية قصف قاعدة الشعيرات باستعراض قدرات الولايات المتحدة العسكرية، للحصول على "صفقات أفضل" في السوق الدولي للسلاح، بزيادة الطلب على

(23) "ذي اتلانتيك، عقّب أوباما ص 3، وللمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر مقالتنا: "عقيدة أوباما" ونزع القناع عن توجهات السياسة الأمريكية" شئون عربية - العدد رقم 166 صيف 2016 ص 18-19

(24) تعود مشاركة بريطانيا في هذه الضربة إلى أنها كانت تخوض معركة كيماوية وقتها مع روسيا بعد اتهامها بتسميم الجاسوس الروسي سكريبال في أراضيها، كما أن فرنسا كانت تردد عدة مرات بالرد على دمشق في الوقت الذي تختاره.



الأدوار الحمائية الأمريكية من خلال تأجيج التهديدات الإقليمية وإبراز كفاءة الوسائل الأمريكية العسكرية لمواجهتها.⁽²⁵⁾

واتهام النظام السوري باستخدام الكيماوي يعيد للذاكرة دور عناصر ما كان يطلق عليهم "الخوذ البيضاء"، والتي اعتبرتهم الحكومة السورية المروج الأساسي لكل الاتهامات باستخدامها أسلحة كيماوية وجزءاً أصيلاً من الجماعات الإرهابية، وهي الاتهامات التي استخدمتها أمريكا وفرنسا وبريطانيا في توجيه ضربات جوية ضد قواعد ومطارات النظام السوري ولتأليب الرأي العام الدولي عليه، وهو ما يفسر مبادرة إسرائيل بتهريب جماعة "الخوذ البيضاء" بعد افتضاح أمرها ومبادرة إسرائيل، بنقلهم جواً إلى الأردن.⁽²⁶⁾

وفي مقابل مقولة حزم إدارة ترامب - على النحو السابق - في مواجهة الاستخدام المزعوم للكيماوي، نجد التواطؤ الأمريكي الفاضح في تهريب الآلاف من عناصر داعش الذين ارتكبوا جرائم حرب ضد الشعب السوري، فلعلنا نتذكر المشهد غير المألوف لقوافل سيارات تويوتا لاند كروز المسلحة رافعة لأعلام "داعش" السوداء والتي دخلت إلى الأراضي السورية والعراقية بسهولة نسبية. وقد كشفت ما وراء هذه الواقعة صحفية بلغارية تدعى "ديليانا جيتانزيفا" تعمل في صحيفة "ترود" في صوفيا، بنشرها تقريراً منفصلاً عن قيام خطوط الطيران سيلكووي "طريق الحرير" المملوكة لدولة أذربيجان بتنفيذ أكثر من 350 طلعة طيران بغطاء دبلوماسي وبإشراف المخابرات المركزية الأمريكية، ونقلت من خلالها عشرات الأطنان من الأسلحة والذخائر للإرهابيين في سوريا والعراق. وهذا التقرير نشر مدعماً بالوثائق الرسمية التي تحدد بالضبط أنواع وكميات المقذوفات والأسلحة

(25) د. علي جلال معوض، "التحالفات غير المستقرة ... " مرجع سبقت الإشارة إليه ص 12

(26) ولعل هذه الواقعة تذكرنا أيضاً بادعاء إدارة جورج بوش الابن بحيازة نظام صدام حسين لأسلحة نووية لتبرير حربه على العراق، وثبتت عدم صدقيتها، وكيف أدى هذا الاحتلال والقرارات التي اتخذها إلى خلق حالة من الفوضى، وفراغاً في السلطة، جعلت هذا البلد ملاذاً آمناً للتنظيمات الإرهابية.



ومناطق الشحن أيضا.. مناطق التفريغ والأهم.. أسماء الشركات المتعاقدة مع الحكومة الأمريكية للإسهام في تسليح وتدريب الجماعات الإسلامية المسلحة في سوريا، وأبرزها شركة "بريل شوفل" التي كانت تمد الإرهابيين بالقذائف المضادة للدبابات التي تم شراؤها من شركات سلاح بلغارية، عبر وزارة الدفاع الأذربيجانية وتوصيلها إلى قاعدة "إنجريك" الجوية في تركيا، التي تعد واحدة من أهم مراكز قيادة قوات الناتو والقوات الأمريكية للعمليات السرية في سوريا "الأهرام العربي 2017/1/28"

وهناك عدة مؤشرات تشير لعملية التواطؤ مع تنظيم "داعش" وآخرها المتمثل في مشهد تحرك عشرات الشاحنات يوم 2017/11/13 وهي تنقل - عبر صفقة سياسية - مئات المقاتلين المتطرفين بأسلحتهم ومعداتهم وعائلاتهم من مدينة الرقة، تحت حماية جوية لا تقدر عليها فنيا إلا قوة كبرى!! والسماح لهم بالعبور إلى شمال سوريا، تحت أعين "قوات سوريا الديمقراطية" المتحالفة مع الولايات المتحدة. وقد أشار مصدر روسي إلى أن آليات أمريكية عرقلت الاستهداف الجوي لعناصر التنظيم المتطرف في البوكمال. فقد أصدرت قيادة القوات الروسية في سورية بيانا بتاريخ 2017/11/14، ذكرت فيه "أن الأمريكيين رفضوا في شكل قاطع قصف قوافل "داعش" بدعوى أنهم بصدد تسليم أنفسهم، وبالتالي تنطبق عليهم أحكام "معاهدة جنيف بشأن أسرى الحرب" وخلص البيان إلى أن "هذه الوقائع تثبت بما لا يقبل الجدل أن الولايات المتحدة تتظاهر أمام المجتمع الدولي بخوض حرب حاسمة ضد الإرهاب، لكنها في الحقيقة، تؤمن حماية لفصائل "داعش" المسلحة من أجل إعادة قدرتها على القتال وإعادة تشكيلها واستخدامها لتحقيق مصالح أمريكية في مناطق أخرى في الشرق الأوسط" (الحياة 2017/11/15).⁽²⁷⁾

وقد بررت واشنطن - بكل وقاحة - هذا التعامل غير العادي - مع مقاتلي "داعش" الإرهابيين، أنه كان "بهدف تجنب الانتهاكات "التجاوزات" التي شهدتها السنوات

(27) وانظر أيضا د. عمرو عبد السميع، "الأمريكي الرذيل"، الأهرام 2017/12/19



الأولى بعد حرب العراق (مارس 2003) وتقليل انتقادات منظمات حقوق الإنسان" (مركز المستقبل للأبحاث - أبوظبي - 2017/9/19م).

ولكن بأي حق يتم السماح للإرهابيين بالفرار ودون عقاب بهذا العدد (قراءة أربعة آلاف)، بعد كل جرائم الحرب التي ارتكبوها ضد الشعب السوري، ألا يعتبر ذلك إخلاقاً بمبدأ الجريمة والعقاب، ويعطي رسالة خاطئة ومشجعة للتنظيمات الإرهابية، ألا يدل ذلك على أن "داعش" وأخواتها صناعة أطراف إقليمية ودولية متواطئة.

بعض الملاحظات الختامية

1- رغم انتقادات ترامب المتواصلة لمواقف إدارة أوباما تجاه هذه الأزمة السورية، إلا أنه ظل مع ذلك ملتزماً بخطها الرئيسي بالابتعاد عن الانغماس المباشر فيها، فظل التواجد الأمريكي العسكري داخل سوريا محدود العدد واعتمد ترامب أساساً فيه على فئات محلية (الأكراد).

2- لقد استحققت سياسة ترامب في سوريا وغيرها وصف كتاب في مجلة "فورن بوليسي" لها بعبارة (Passive – aggressive) فهي عدوانية تريد من اشتعال الصراعات الدائمة التدخل المباشر الذي يتسم بتغيير الاستهدافات والخصوم، لكنها في الوقت نفسه لا تتخذ أي سياسات لمعالجة هذه الصراعات⁽²⁸⁾، الأمر الذي دعا البعض إلى وصف مجمل سياسات ترامب بأنها فوضى "غير خلاقية"، إذا ما استعرنا بشكل معكوس ما عُرف باسم سياسات "الفوضى الخلاقية" التي

Brian Katulis and Daniel Benaim, "Trump's Passive – Aggressive Syria Policy (28) Risks Creating (13) More Mayhem in the Middle East", Foreign Policy (16 April 2018), <http://foreignpolicy.com/2018/04/16/trumps-passive-aggressive-syria-policy-risks-creating-more-mayhem-in-the-middle-east/>
من الحرب الباردة إلى حرب ساخنة، المستقبل العربي العدد رقم 476 - أكتوبر 2018



انتهجتها واشنطن في الشرق الأوسط سابقاً⁽²⁹⁾. وهي سياسة - أيا كان وصفها - تطيل الأزمة السورية وتطيل معها مأساة شعبها ومعاناته.

3- لقد كانت مختلف الإدارات الأمريكية تمارس الابتزاز الدولي بشكل مستتر، إلا أن إدارة ترامب مارست ذلك علناً وبشكل فج، مما أفقد الولايات المتحدة لمزيد من هيبتها ومصداقيتها دولياً، لا سيما في المنطقة العربية، وبرز خضوعها الكامل للوبي الإسرائيلي، ودفعها لعدم احترام القرارات الدولية والقانون الدولي في موضوعي القدس والجولان، فقدت الولايات المتحدة دورها كوسيط نزيه. الأمر الذي دفع بأستاذين أمريكيين مرموقين امتلاكاً من الشجاعة الأدبية بقولهما صراحة: "إن الآثار السلبية لنفوذ اللوبي الإسرائيلي أصبح من الصعب إخفاؤها بشكل متزايد.... وأن ما هو مطلوب هو مناقشة صريحة لنفوذ اللوبي ومناقشة مفتوحة عن المصالح الأمريكية في هذه المنطقة الحيوية، وأن تتحرك الولايات المتحدة إلى موقف أكثر تمشياً مع مصلحتها القومية، وبما يتمشى أيضاً مع مصالح دول المنطقة، والمصالح طويلة الأمد لإسرائيل أيضاً".⁽³⁰⁾ كما طالب الكاتب الأمريكي "بيتر بينارت" أن تتم مراجعة المساعدات التي تقدمها الولايات المتحدة لإسرائيل، والتمييز بين المساعدات التي تقدمها للحفاظ على أمن إسرائيل والمساعدات التي تستخدم للتضييق على الفلسطينيين وسلبهم حقوقهم والعمل على وقف هذه المساعدات فوراً⁽³¹⁾.

(29) حسن أيوب، المرجع السابق ص 15.

30 Professor John Mearsheimer and Stephen Walt. مرجع سبقت الإشارة إليه.

(31) Forword نقلًا عن موقع (<https://bit.ly/2v0panN>) نقلاً عن صحيفة الشروق بتاريخ 2019/5/28 ص 7.



الإعلام الجديد وأثره على قيم الديمقراطية الليبرالية

د. عمار علي حسن

روائي وخبير في علم الاجتماع السياسي - مصر

تقديم

لا يمكن تجاهل العلاقات الظاهرة والخفية بين الإعلام الجديد كواسطة أو وسيلة وبين التصورات الفكرية التي تحكم تصرفات البشر في كل القضايا، وتهندس رؤيتهم حيال جميع الظواهر الإنسانية، وتجلي مواقفهم وتوجهاتهم إزاء ما يجري من وقائع وأحداث وحوادث، بصرف النظر عن أهميتها وحيويتها وضرورتها ودرجة الانشغال بها، ومستوى تأثيرها على مصالح الناس.

في البداية اقتضت الرؤية لدور الإعلام على أنه مجرد ناقل للمعرفة وليس منتجا لها، فهو الوعاء الذي نملؤه بما نريد من رسائل عبر كلمات وصور ورسوم ورموز، ونحن فقط الذين نتحكم في طبيعة هذه الرسائل من حيث حمولاتها ومعانيها وقيمتها ورؤاها ومقاصدها وأهدافها، ونحدد المستهدفين منها، وليس على الإعلام سوى أن يمتثل طائعا خاضعا تماما لما نريد، لا حول له ولا طول. لكن هذا التصور لم يعد قابلا للصمود في زمن الإعلام الجديد، الذي يتجاوز دوره كأداة طيبة، ويساهم في تشكيل الرسالة، متكئا على النظرية التي يبرهن أصحابها على أن الشكل لا ينفصل عن المضمون.

فحتى لو اعتبرنا الإعلام آلة، نحن الذين نضع لها خطة التشغيل، ونُعيّن ما ندفعه إليها، ونعرف كيف تدور تروسها، وما سيخرج منها كسلعة أو منتج قابلا للاستهلاك، فإننا لا يمكن أن ننكر أن هذه الآلة تعمل، بمرور الوقت، على تشكيل أذهاننا، وطريقة



نظرتنا إلى الحياة وللظواهر والمعارف، وقد تمدنا بجزء من تصورنا عن ذواتنا، وبعض القيم التي تحكمنا، وهي مسألة أقر بها الإنسان بعد طول تعامل مع مختلف الآلات.

وإذا كان الإعلام التقليدي، الذي تقل فيه درجات التأثير المتبادل والتغذية المرتدة، لم يفلح في إقناع كثيرين بأنه ليس مجرد وعاء أو إناء، فإن الإعلام الجديد تمكن من فعل عكس هذا، بقدرته على جذب أعداد هائلة من البشر ليمارسوا دور "المواطن الصحفي" سواء أدركوا هذا أم لم يدركوه، وقد نجح كثيرون منهم في رفع وبث مادة ذات بال على مواقع التواصل الاجتماعي، لفتت انتباه الإعلام التقليدي، فنقلتها البرامج المتلفزة، وكُتبت حولها المقالات والتحقيقات الصحفية.

وقد كان واضحاً منذ البداية أن التغير سيأتي هائلاً، مع ظهور الإعلام الجديد، وستحدث قفزة عملاقة في تاريخ البشرية، مثل تلك التي وقعت حين عرف الإنسان كيف يزرع الأرض، ويخزن الطعام، وحين اخترعت الكتابة، وظهرت أول مطبعة، واخترع الصينيون البارود، واكتُشفت الكهرباء. فالإنترنت أحدث ويحدث وسيحدث تغييرات عميقة في الاقتصاد والمجتمع،⁽¹⁾ وما يمور فيه من أفكار وحركات.

ويمكن القول، باطمئنان، في هذا الصدد أنه "تكاد لا توجد تطورات في العقود الأخيرة أحدثت تحولاً أكثر عمقا في السياسة والمجتمع المدني مما أحدثه ظهور تكنولوجيات المعلومات والاتصالات الرقمية، وكانت الإنترنت هي الأبرز من بين تلك التطورات، ومجتمع المدونات الذي أنتجته، والتشكيلة المنتشرة من وسائل الإعلام الاجتماعي، والنمو المطرد في سبل الوصول إلى تلك الوسائط الإعلامية الرقمية عن طريق الهواتف المحمولة التي قدمت وسائل جديدة، ودينامية على نحو مذهل، ولا مركزية

(1) رمادوك هسي، "مستقبل وسائل الإعلام"، في: مجموعة باحثين، "هكذا يُصنع المستقبل"، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2001) الطبعة الأولى، ص: 189 . 190.



كلية، كي يتواصل الناس والمؤسسات ويتعاونوا فيما بينهم لغايات سياسية، وأخرى تتعلق بالحقوق المدنية⁽²⁾. ويزيد هذا مع اتساع حركة التعليم، وتمكين الشباب، وتنازل شبكات المجتمع المدني عبر الدول.

والى جانب تأثيره في المسائل الخاصة بالتقارب بين الناس، وانسياب الأفكار وطرائق العيش، وسيادة الدول، والحروب الذكية، يمارس الإعلام الجديد ثلاثة أمور أساسية أثرت في القيم والتصورات والاتجاهات، الأول يتعلق بتعزيز التفكير الشبكي، وهي طريقة تعترف بالتجاور والتعدد والتشابك والتناظر، بدلا من التفكير الخطي، الذي ينطلق بين نقطتين، علوية وسفلية، أو جنوبية وشمالية، أي رأسية وأفقية، وهي التي تآلف معها التفكير البشري زمنا طويلا. والثاني يرتبط بفتح باب المشاركة وتسهيل الفواصل بين النخب والجمهور، فقديمًا كان من الصعب على قارئ أن يتواصل مع كاتب بارز، أما الآن فبوسعه أن يعلق على ما يكتبه على مواقع التواصل الاجتماعي ويراسله على بريده الخاص. والثالث يتمثل في تحرير الأذهان، فمن قبل كان المتلقي يستقبل الرسالة وقد يستحسنها لأنه لم يفكر في نقائصها، ولا يعرف بديلا لها، أما الآن فإنه يجد، وفي سرعة شديدة، آخرين يرممون له ما يعانيه من نقص حيال فهم الرسالة واستيعابها، وقد تؤدي تعليقاتهم عليها إلى أفول سحرها، وانطفاء بريقها، والأهم هو تقليل قدسيته وإطلاقيتها ووثوقيتها في ذهن المتلقي بسيط المعرفة.

عند هذا الحد يكون الإعلام الجديد هو ابنا شرعيا للبرالية، لاسيما في قيمها الأساسية التي تركز على المواطنة، والمراكز القانونية المتساوية، والمشاركة الواسعة، واحترام حرية التفكير والتعبير والتدبير، والانفتاح على الآخر، والتعددية، واللامركزية، والمساءلة، والشفافية، والسوق المفتوحة، والحكومات المفتوحة أيضا .. إلخ. ومع هذا لا

(2) لاري داي몬드، مارك بلانتر، "تكنولوجيا التحرر: وسائل الإعلام الاجتماعي والكفاح في سبيل الديمقراطية"، ترجمة: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (أبوظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2013) الطبعة الأولى، ص: 11.



يزال من المبكر جدا معرفة ما إذا كانت تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الرقمية سينظر إليها بدرجة أكبر باعتبارها أدوات للتحرر أو أدوات للسيطرة الاجتماعية والسياسية،⁽³⁾ بعد أن التفتت النظم المستبدة إلى أهميتها واستعملتها في الحرب على الحرية.

ولمناقشة هذا التصور، لا بد أولاً أن نعرض على ما أحدثه الإعلام الجديد من تغيرات في الحياة، ارتفعت إلى أن تكون ثورة ناعمة، ثم نناقش علاقة السياسة بالإعلام الحر، وبذا نكون قد اقتربنا أكثر من الإجابة على التساؤلات الأساسية التي يطرحها عنوان هذه الورقة، وهي تتعلق بأثر الإعلام الجديد على قيم الديمقراطية والليبرالية، وما إذا كان يغذيها بعد أن نبت من رحمها أم يلتف عليها بفعل فاعلين، يتربصون بالحرية، ويضجرون من القدرة الهائلة التي تمتلكها الشعوب لمعرفة الكثير مما يجري، بعد قرون طويلة ظل فيها الناس محرومين من الإلمام بما يقع في بلاط الحكم، وعاجزين عن الإدلاء برأي فوري ومباشر وواضح فيه.

أولاً: الإعلام الجديد كثورة ناعمة

ألغت شبكة "الإنترنت" المسافات، واخترقت السدود والحدود، مزجة بين الكلمة والصوت والصورة في صيغة رقمية، بعد أن دمجت الحوسبة بالاتصال، وأزالت الفواصل بين العمل والترفيه، وفتحت نافذة واسعة للجماهير الغفيرة كي تشارك في ثورة اتصال تغير كل يوم أنماط الحياة والتفكير في مختلف دول العالم، بدرجات متفاوتة، وتنتج مشاهد ومعالماً وأحوالاً لا تُصم عنها أذن سميعة، ولا تغمض عنها عيون بصيرة.

وما جرى في الإعلام خلال السنوات الأخيرة هو تطور هائل وفارق بكل المقاييس، يمكن أن نصفها بأنها "ثورة إعلامية" أو اتصالية، تضاف إلى الثورات الناعمة التي يشهدها العالم، والتي تغيرنا من دون إراقة أي قطرة من دم، لاسيما بعد أن صارت

(3) المرجع السابق، ص: 38.



الثورات السياسية نفسها تنساب في سلاسة وسلامة عبر التطور الديمقراطي، كما يقول جون فوران وزملاؤه في كتابهم الأثير "مستقبل الثورات"⁽⁴⁾. والثورة الاتصالية تلك تكسر النماذج الإرشادية التقليدية، متسقة في هذا مع الطفرات المعرفية التي شهدتها العالم في العقول الأخيرة، ومن ثم لا يمكن فهمها أو الإحاطة بها اعتمادا على طرق التفسير التقليدية لأداء الإعلام، ونظرياته البسيطة المعهودة، بل تحتاج إلى اقتربات ومداخل مبتكرة وجديدة تواكب التطور الرهيب الذي يشهده عالم الاتصال.

ولهذه الثورة سمات عدة، سأشرحها في هذا المقام، كنوع من العصف الذهني، أو مجرد طرح أولي ينتظر التعديل بالحذف أو الإضافة، وذلك عبر النقاط التالية:

1- توسيع المشاركة الشعبية في صناعة الإعلام، بما جعلنا نشهد ما يمكن أن يسمى بـ "المواطن الصحفي"، إذ بوسع أي شخص أن يكتب ما يشاء ويبيئه على الإنترنت في موقع خاص أو مدونة أو حتى في تعقيب على مقالات الكتاب، وأخبار وتقارير وتحليلات وتحقيقات الصحفيين. وهذا الاتساع حقق كل ما حلم به من كتبوا منذ عقود عن "مسرح المقهورين" متخيلين ومطالبين بأن يشارك المتفرجون في صناعة النص المسرحي وتمثيله.

2- تعزيز الفردية، التي تتغول دوما بفعل التقدم التقني وتغير بعض أنماط وطرائق المعيشة، فمثلا أدى اختراع الطباعة وتقدمها إلى إنهاء التجمعات البشرية التي كانت تتحلق حول شخص يقرأ لهم مخطوطا، وبات بوسع كل شخص أن يقرأ كتابه مختليا بنفسه، كما أدى اختراع الساندويتش إلى انصراف أفراد الأسرة عن التجمع لتناول الوجبات اليومية المعتادة، وعلى المنوال نفسه فإن الإنترنت ستزيد من عزلة الفرد عن المحيطين به مباشرة من أفراد الأسرة والأصدقاء والرفاق، وتعيد دمجها في "مجتمع افتراضي"، ليصبح له أصدقاء من شتى أرجاء المعمورة

(4) لمزيد من المعلومات انظر: جون فوران، "مستقبل الثورات"، ترجمة: تانيا بشارة، (بيروت . الجزائر، دار الفارابي، 2007) الطبعة الأولى.



قد لا يرى وجوههم أبداً، لكنه يتواصل معهم ويقضي بصحبتهم ساعات طويلة عبر مختلف مواقع التواصل الاجتماعي. ومثل هذا الوضع قد يعيد في المستقبل تشكيل الهويات والانتماءات.

3- إعطاء دفعة قوية لاقتصادات المعرفة، فإذا كان النفط قد لعب دوراً حيوياً في الثورة الصناعية، فإن عالم الرقميات ستكون له اليد الطولى في الطفرات الاقتصادية الحديثة، التي تسعى جاهدة إلى الاعتماد على بدائل جديدة للطاقة، وإلى إنتاج سلع جديدة، لم يعرفها العالم من قبل.

4- ظهور تحدٍ للسلطة السياسية، عبر منازعتها في امتلاك وسائل الإعلام، والرد عليها حين تستخدم هذه الوسائل في التعبئة والحشد وتبرير السياسات القائمة، وتزييف الوعي في شقه المناهض للاستبداد والفساد. وهنا يكسر الإعلام الجديد تسلطية وأحادية ورسمية وقسوية أهداف الإعلام القديم، ويضغط على السلطة من أجل تحسين الأوضاع القائمة، وتغييرها بما يؤدي إلى مزيد من الحرية والكفاية. وقد بلغ الإعلام في هذا حداً عالياً، إلى درجة أنه بات يمثل الرقيب الحقيقي على أداء الحكومات، في ظل نظم تتراوح بين الشمولية والطغيانية، حولت البرلمان إلى مقهى عام، وسلبتها وظيفة المراقبة، ووظفت دورها في تشريع القوانين لخدمة من هم في سدة الحكم وتابعيهم.

ويؤدي الإعلام الجديد، الذي تتآكل قدرة السلطة المستبدة عن حصاره وتقويضه وإسكات صوته، بالتتابع إلى تعزيز الحريات الثلاث حول التفكير والتعبير والتدبير، إذ أنه يساعد الناس على الاطلاع على ما يجري في مختلف أرجاء المعمورة من طقوس وطرق تفكير وتصرف، وتفتح أمامهم باباً واسعاً ليعبروا عن آرائهم، ثم يمنحهم وسيلة مهمة لممارسة النضال المدني، حيث يعينهم على التواصل والتعبئة والتحريض على معارضة النظم المستبدة. لكن الإنترنت تظل هنا مجرد وسيلة وليست غاية، فالدعوة إلى العصيان المدني والإضرابات



والاعتصامات من خلال الإنترنت، إن لم تتبعها استجابة في الواقع فإنها تفقد معناها.

5- الإفراط في استخدام الإعلام كركيزة أساسية في السجال العقائدي الذي يدور في العالم أجمع، لاسيما بعد أن صار الدين يشكل عاملا بارزا من عوامل الصراع الدولي الراهن، بفعل إذكاء الولايات المتحدة لمسار "الإسلاموفوبيا" في سياق بحثها عن عدو عقب انهيار الاتحاد السوفييتي، من جهة، وطرحها فكرة "الفوضى الخلاقة" التي تقوم على إشعال النعرات الطائفية والمذهبية والعرقية، من جهة ثانية، وتعزز قدرة التنظيمات والجماعات المتطرفة والإرهابية على استخدام الشبكة العنكبوتية في التجنيد والتعبئة والدعاية والتحريض وتوجيه أتباعها نحو أهدافهم، من جهة ثالثة.

ومع تغول العولمة وعودة الاستعمار التقليدي، بعد أن ظنت الأغلبية من علماء السياسة أنه قد ذهب إلى غير رجعة، يتصاعد دور الإعلام في المقاومة، وتتناسل أيضا مواقع على شبكة الإنترنت لبعض الجماعات والتنظيمات والحركات المناوئة للولايات المتحدة، عبر العالم، سواء كانت دينية أم يسارية.

6- لأي ثورة ضحايا، وقوى مضادة لها، ما يعني في هذا المقام التطرق إلى مصير الإعلام القديم أو التقليدي،⁽⁵⁾ الذي أصبح في تحد واضح. والنظر بإمعان إلى الصراع بين الجديد والقديم في مجال الإعلام يشي بأن الوسائط الجديدة ليس بوسعها أن تهيل التراب على القديمة تماما. فنظريات التحديث على اختلافها تتبنأ بأن القديم لا يموت كله، وتؤكد في الوقت ذاته أن القديم لا ينطوي دوما على شرور أو نقائص يجب التخلص منها، بل إن بعضه أجدى للناس من أشياء.⁽⁶⁾ وقد ظن بيل غيتس أن الصحف الورقية ستختفي تماما عام 2018

(5) مرمدوك هسي، مرجع سابق، ص: 190 . 191.

(6) لمزيد من التفاصيل حول هذه المسألة، انظر:



لكن الأمر الواقع جعله يعيد النظر في رأيه، ويعترف أنه لا يمكن أن يقطع بشيء خاص بمستقبل لا يراه، ولا يلم بقوانينه وظروفه كافة. ومن ظنوا أن القراءة على الإنترنت ستؤدي إلى اختفاء الكتاب المطبوع عادوا لينتجوا كتابا إلكترونيا على شاكلة الكتاب الورقي، يمكن أن يصطحبه القارئ إلى مخدعه، ويستمتع بقراءته تحت ضوء حميم. وعلى التوازي زاد توزيع الكتاب المطبوع، ليصل إلى أرقام غير مسبقة، نرى مثالا لها في رواية "هاري بوتر" التي وزعت حتى الآن نحو تسعين مليون نسخة بلغات عدة، ورواية "الخيميائي" للأديب البرازيلي باولو كويليو التي وزعت نحو ثلاثين مليون نسخة.

إن البعض انساق وراء الثورة الجارفة للإعلام الجديد، وظن أن المطبعة ستدفن مع مخترعها الألماني يوحنا غوتنبرغ حين تحل ذكرى مرور أربعة قرون على وفاته عام 2048، أو توضع في المتحف برفقة الفأس البرونزية، لكن الأمور تسير عكس هذا الخط البياني المتهم، وتثبت أنه من الخطأ الجسيم أن نخلط خلطا ظاهرا بين "الآلة" و"السلعة"، فالآلة المتطورة تتسخ أختها المتخلفة أو تلغيها كلية، لكن السلع الجديدة لا تلغي القديمة، إذ لا يزال الناس يستهلكون سلعا كانت البشرية تستهلكها منذ آلاف السنين. والجريدة وكذلك الكتاب هما من صنف السلع، وليس من طرز الآلات، ومن ثم فهما باقيان معنا سنين طويلة، لكن عليهما التكيف مع معطيات ومتطلبات مجتمع المعرفة، لاسيما في مجال القابلية للحمل، والمحتوى، والعائد الدائم.

ثانيا: السياسة والإعلام الحر

Kagarlitsky, The Mirage of Modernization, Translated by: Renfrey Boris -
.Clarke, New York, Review Press, 1995



ليس بوسع السياسة والإعلام إلا أن يتبادلا المنافع، في النظم الديمقراطية، وتوجه الأولى الثانية في النظم المستبدة والشمولية.⁽⁷⁾ وقد يؤدي ذلك إلى نشوب صراع بينهما في بعض الأحيان، لكن مثل هذا الصراع لا يأتي أبداً على هيئة معادلة صفرية، ولا يستمر دوماً، أو يكون عميقاً، إنما هو نسبي ومؤقت وسطحي، ويكون سببه الرئيسي هو رغبة طرفي المعادلة في إحداث توازن بينهما، كي يستمر في تبادل المصالح، وتقاسم الوظائف. فالسياسي يعطي الإعلامي مضمونا يقدمه، وقد يوجهه ويموله وينقده ويجذبه نحوه بكل قوة مستطاعة. والإعلامي يصل السياسي بالناس، ويساعده في رسم صورة جيدة له، ومن دونه يصرخ أهل السياسة في البرية، ولا يسمعون صدى صرخاتهم.

ومنذ نشأتها كان لوسائل الإعلام دور سياسي، واستخدمها رجال الدولة في الترويج لسياساتهم، خصوصاً خلال أوقات الصراعات والحروب، وأحياناً كانت تُستخدم في التضليل ونشر الإشاعات. ولم يستطع أي حاكم، مهما علا شأنه واحتد ذكاؤه، أن يستغني عن وسائل الإعلام.

لكن علاقة الإعلام بالسياسة أعمق من الوقوف عند حد توظيف السلطة لوسائل الاتصال في خدمة مصالحها، إذ يكون لها دور في تنمية الثقافة السياسية، عبر ثلاثة مستويات⁽⁸⁾ المعرفي، المرتبط بما يؤدي إليه التعرض للمحتوى الذي يقدمه الإعلام من زيادة الوعي، والعاطفي، المتعلق بدور الإعلام في تحديد مواقف واتجاهات الأفراد حيال

(7) لمزيد من المعلومات، انظر: Brian McNair, An introduction to political communication,

London, Routledge, 1st Edition, 2003.

د. أحمد قزان الزهراني، "السلطة السياسية والإعلام في الوطن العربي"، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2015) الطبعة الأولى.

(8) د. سليم بوسقيمة، "الثقافة السياسية ودور الإعلام في تنميتها"، مجلة "الباحث الاجتماعي"، العدد (11) مارس 2015، ص: 124 . 127.



القضايا السياسية، والسلوكي، الذي يترجم كل ما اكتسبه الفرد من معلومات ومعارف وقيم إلى تصرفات في الواقع المعيش.

كما يحدد العلاقة بين الطرفين السياق الذي يعملان فيه. ففي النظم المستبدية، يكون الإعلامي مجرد خادم للسياسي، وعلى النقيض من ذلك يكون الحال في الدول الديمقراطية، كما يحددها مدى إيمان الإعلامي بضرورة استقلاله، الذي قد يعني رفضه لتسييس رسالته الإعلامية، أو أدلجتها إلى حد يجعلها مجرد وسيلة للتضليل والتلاعب بعقول الجماهير والتعبير عن فكرة واحدة واتجاه واحد. فاستقلال الإعلام يحفظ له مصداقيته في أذهان الجماهير، ما يعمق ويوسع تأثيره، وهو أمر تحتاجه أي سلطة رشيدة.

لكن ليس من المحبذ وجود ذلك النوع من الاستقلال الذي يجعل الإعلام وسيلة جافة محايدة باردة بلا عواطف مشبوبة، يصنعها أحيانا الشعور بوجود رسالة حيال المصالح الوطنية العامة، والانتصار لقيم الحق والخير والعدل والجمال. عند هذا الحد تتلاقى وسائل الإعلام مع السياسة في جانبها النازع إلى العمل من أجل الناس، وهي مسألة يطرحها ساسة وقادة وأحزاب بلا توقف، يقومون على الأقل بإنتاج "قوة الدفع" التي تخلق توازنا سياسيا واجتماعيا مفيدا للناس، نظرا لأن انفراد شخص أو حزب أو قوة بالسلطة بلا رقيب أو حسيب أو بديل يجعلها تتوحش، ويحرفها عن أسباب قيامها.

ومن بين ألوان عدة من الإعلام يبدو الليبرالي منه، أو لنقل الحر، هو الأكثر قدرة ومنعة. حيث تجد وسائل الإعلام الحديثة أرضا خصبة للتأثير في الرأي العام بالدول الديمقراطية، بل خارج هذه الدول، حين يكون الأمر متعلقا بمجتمعات بعيدة مكانيا، أو متخلفة زمانيا عن الحرية الإعلامية، لاسيما إن كانت مجتمعات مضطربة بسبب الحروب أو الصراعات العرقية والطائفية والطبقية والجهوية، التي تجعل من أحداثها مادة طيبة لوسائل الإعلام الأجنبية، التي يكون بمكنتها النفاذ إلى قلب الأحداث، وتناولها بشكل يقبل عليه الجمهور ويصدق.



وعلىنا في هذا المقام أن نفحص مصطلحات ثلاثة على النحو التالي:⁽⁹⁾

1- الديمقراطية الإعلامية: وهي فكرة وممارسة تدعو إلى إصلاح الإعلام بحيث لا يصبح مجرد بوق في فم سلطة، أو مجموعة محتكرة، إنما معبر عن الناس، في هيئة "صحافة الشارع"، التي تقوم بإخبار جميع الأفراد بما يجري، وتمكينهم من المشاركة في صناعته، عبر وسائط الصحافة العامة والإعلام البديل. وهو ما يتطلب ابتداء أن تكون بنية الإعلام ديمقراطية في ملكيتها وتنظيمها وطريقة اتخاذ القرار فيها، بما يمنع أو على الأقل يخفف من غلواء ما تسببه المصالح الخاصة من تحكم في وسائل الإعلام.

وتسعى الديمقراطية الإعلامية إلى وضع نظام إعلامي جديد، لا يرمي إلى الربح، ويحل محل النموذج التحرري الربحي الحالي، وتقوية خدمة البث العامة بحيث تصل إلى كل الناس، وزيادة المؤسسات الصحفية والإعلامية، وفتح باب لمشاركة الجمهور، وتوظيف الوسائط الإعلامية في تعزيز قيم الديمقراطية.

وقد وجد أصحاب هذا الاتجاه في الشبكة العنكبوتية العالمية "ويب" وسيلة لتحقيق ما يصبون إليه، حيث صارت منبر من لا منبر له، وفتحت أبواباً واسعة لمشاركة الناس على اختلاف توجهاتهم، لاسيما مع ظهور مواقع التواصل الاجتماعي الرقمية، التي أصبحت صوت المحجوبين في وسائل الإعلام الرسمية في الدول غير الديمقراطية.

2- وسائل الإعلام الديمقراطية: وهي وسائط إعلامية تراعي الديمقراطية أفكاراً وقيماً وممارسة وسياً في المحتوى الذي تقدمه، وطريقة تنظيم العمل داخل المؤسسات التي تنطلق منها، في ظل الحرص على عدم الاستسلام لقواعد

(9) لمزيد من التفاصيل حول علاقة الإعلام بالديمقراطية، انظر:

د. حسين علي إبراهيم الفلاح، "الديمقراطية والإعلام والاتصال: دراسة في العلاقة بين الديمقراطية والإعلام وطبيعة الإعلام الديمقراطي ووظائفه"، (بغداد، دار غيداء للنشر والتوزيع، 2014)، ص: 109 . 144.



التجارة، ومقتضيات الأيديولوجيا، التي تصبغ الإعلام الآخر، إنما الاستجابة لمبادئ الشفافية والمصادقية والتوازن، والاستقلالية والانفتاح، والإخلاص للمصلحة العامة، وحق الجمهور في المعرفة وتحصيل المعلومات، على اعتبار أن الإعلام يمثل ركيزة من ركائز المجتمع الديمقراطي.

3- الصحافة الديمقراطية: وتعنى بتصنيف القصص الخبرية وفق تصويت القراء عليها، وتعزز هذا الاتجاه بظهور مواقع التواصل الاجتماعي، حيث بات يؤخذ في الاعتبار آراء الجمهور فيما يتم ترويجه من قصص. وبذا صارت هذه الصحافة، أكثر ملاءمة لسياق ديمقراطي، يراعي حق التعبير والتدبير، وإعلاء القانون، والتمسك بالقيم والمسارات المدنية، وإذكاء الشعور بالمصلحة العامة.

ثالثا: الإعلام الجديد كابن شرعي لليبرالية

هل كان من الممكن أن تولد وسائل الإعلام الجديدة في ظل بيئة اجتماعية وسياسية مستبدة أو شمولية؟ .. الإجابة بالطبع لا، فنظم الحكم غير الديمقراطية لا يمكنها التفكير في أداة أو وسيلة تمكن الناس من تداول المعلومات، والإدلاء بآرائهم في السياسات الجارية، وتعبئة قطاعات عريضة من الجمهور للاعتراض أو الاحتجاج على القرارات التي تراها ضارة بمصالحها.

كما أن المجتمعات المحافظة والجامدة والمغلقة لن تفكر في وسيلة تفتح بين الناس نوافذ وأبوابا للتواصل والنقاش في أدق الأشياء حرجا، وفي كل ما يعتقد المتشددون الدينيون أنه من قبيل المحرمات، أو تتصور السلطات المستبدة والشمولية أنه سيجعل الناس يشعرون، عبر المناقشة الافتراضية المستفيضة، بتضامنهم، ويطمنون إلى قوة عددهم، وقد يدفعهم هذا إلى تحرك في عالم الواقع للاعتراض على السياسات والقرارات.

وقد أثر أيضا وجه آخر لليبرالية، يتمثل في شقها الاقتصادي المتعلق بالرأسمالية، على ميلاد الإعلام الجديد. فروح التعدد والانفتاح والتحرر والتنافس المتفاوتة درجاته،



والإيمان بقاعدة "دعه يعمل، دعه يمر"، تبدو هي الإطار نفسه تقريبا الذي يحكم الإعلام الجديد. فشبكة الإنترنت أصبحت "توفر بيئة عامة ومجهولة للنقد، ونظاما لتعبئة الاستياء الاجتماعي، وربما يكون هذا أمرا جيدا لأن كثيرا من وسائل الإعلام الحالية تسيطر عليها الحكومات أو أصحاب الأملاك أو مجالس الإدارات"⁽¹⁰⁾، وبالتالي لم تعد حرية المرور مقصورة على من يملك الإعلام التقليدي، إنما صارت متاحة أمام كل الناس.

كما أن التطور الرأسمالي ساهم في توسيع الاعتماد على تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي، التي سهلت العمل الحكومي، وأثرت على متخذي القرار، وفي الوقت نفسه خلقت منافسين وشركاء له في التأثير على صنع السياسة، في مقدمتهم شركات التكنولوجيا التي تملك تقنيات هذا النوع من الذكاء، الذي سيمس، من دون شك، مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والأمنية.⁽¹¹⁾ وبالطبع فإن يده قد امتدت إلى الإعلام.

لكن نقطة التشابك الأهم هي بين القيم التي تركز عليها الليبرالية وبين قدرة الإعلام الجديدة على الاستفادة منها وخدمتها في الوقت نفسه، أو حتى مناقضتها أحيانا. ويمكن تصور هذا الأمر في النقاط الآتية:

- 1- المواطنة: فهذه الفكرة التي تعني المراكز القانونية المتساوية لكل المواطنين، وتقر بحقوقهم وواجباتهم دون تمييز بينهم بسبب الدين أو العرق أو الجهة أو اللغة، ساهمت في صناعة ما يسمون بمواطني الإنترنت Netizens.
- 2- حرمة الحياة الخاصة: وأثرت هذه في وجود حيز للتراسل السري الشخصي بين المتداولين على مواقع التواصل الاجتماعي، أو تمكين أي متداول من تحديد أصدقائه ومتابعيه، وطرده لأي شخص لا يود أن يكون من بينهم.

(10) مرمدوك هسي، مرجع سابق، ص: 203.

(11) د. جمال سند السويدي، "الذكاء الاصطناعي والسياسة .. جوانب التأثير"، صحيفة "الاتحاد" الإماراتية، في

5 نوفمبر 2018.



3- المشاركة أو الانخراط السياسي: وهي قيمة أساسية في الليبرالية، اقتضى تعزيزها وجود الإعلام الجديد، وهو بدوره ساهم في ترسيخها، من خلال إتاحة فرصة كبيرة للناس كي يدلوا بدلوهم في السياسات العامة، بل وفي علاقات الدول، وسط جو من الشفافية النسبية، وإيمان كثيرين بحقهم في مساءلة الحكومة ومحاسبتها.

4- الحريات العامة: فالإيمان بحرية التفكير والتعبير كان أحد الشروط الجوهرية لانطلاق مواقع التواصل الاجتماعي، التي فتحت بابا واسعا لأخذ ما كان يتحدث به الناس أمما إلى أفراد قلائل، وإلقائه في مجرى واسع جدا.

5- التعددية: وهي قيمة ساهمت في خلق "التفكير الشبكي"، الذي يتيح للمتعدد والمتجاور والمتداخل مزيدا من التفاعل، وهو أمر يليق بشبكات التواصل الاجتماعي واسعة الترابط.

6- اللامركزية، وهي إن لم تكن بالضرورة طريقة إدارة لازمة لنظام ليبرالي إلا أنها في جانبها المتعلق بالتفويض، وتعدد المراكز، وتمثيل الأطراف، تصنع بيئة مهيئة لما يجري في مواقع التواصل الاجتماعي، التي تتسم بالخصائص نفسها تقريبا.

7- السوق المفتوحة⁽¹²⁾ وهذا الانفتاح لا يخص مجال السلع فحسب، إنما يمتد إلى الأفكار، بل ويصل حد وجود "الحكومة المفتوحة" التي تقوم بواجبها حيال حق الناس في الاطلاع على القرارات وحيثياتها والخطط، عبر نشر المعلومات بطريقة شفافة تسعى إلى الاكتمال، وحقهم كذلك في المشاركة في صنع القرارات ورسم السياسات، عبر أخذ مقترحاتهم في الحسبان.⁽¹³⁾

(12) لمزيد من التفاصيل حول خصائص السوق المفتوحة انظر: روجي غيسنوري، "اقتصاد السوق"، ترجمة: د.

فريد الزاهي، (أبوظبي، هيئة أبوظبي للثقافة والسياحة . بأبوظبي مشروع كلمة، 2016) الطبعة الأولى.

(13) د. جمال السويدي، المرجع السابق.



رابعاً: الإعلام الجديد .. أداة للتحرر أم الإكراه؟

ألغى الإعلام الجديد الحاجز أو الفاصل بين الخبر والرأي، والمعلومة والإجراء، وأدى إلى تلاشي الوسيط بين المرسل والمتلقي، وجعلهما يحتكان صوتاً لصوت، مختزلاً زمن التفاعل بينهما، وفتاحاً باباً للتفاعل اللحظي، حيث يمكن لكل منهما أن يعمقا النقاش، ويمارسا تغذية ارتجاعية لا حدود لها، لاسيما حيال القضايا الجديدة والمهمة والأحداث الساخنة، التي تتدفق بلا هوادة.

ومثل هذا الوضع يثير تساؤلاً مهماً: هل مثل هذا النوع من الإعلام يعزز التحرر؟ أم يشدد القيود؟

ابتداءً فإن الإعلام الجديد يتمتع بفائض من الحرية لا تعرفه الليبرالية في تطبيقاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهي ربما تمثل المسافة نفسها التي تفصل بين "القول" و"الفعل" أو بين "التفكير" و"الحركة" في أي مجتمع، بما في ذلك المجتمعات الديمقراطية. فقد يتاح لفرد أن يقول ما يشاء على مواقع التواصل الاجتماعي، لكنه لن يكون ممكناً من تطبيق أقواله في الواقع المعيش، لأنها ستنتصادم مع إرادات آخرين، على رأسهم من يجلسون في كراسي السلطة السياسية.

لقد أصبحت مواقع التواصل الاجتماعي أساسية بالنسبة إلى الحملات الانتخابية في الأنظمة الديمقراطية المتقدمة والناشئة على حد سواء. وصنع الهاتف المحمول تحولا في السياسة من خلال تمكين كثيرين من رصد ومتابعة الانتخابات بمزيد من الكفاءة والشمول، وتعزيز الشفافية، وتقوية الرقابة والمساءلة المتعلقة بالميزانية العامة للدولة، وإحاطة المواطنين بجهود مكافحة الفساد، وانتهاكات حقوق الإنسان، ورسم خريطة لتلك الانتهاكات.⁽¹⁴⁾

(14) لاري دايموند، مارك بلاتنر، مرجع سابق، ص: 16.



وحتى في الأنظمة المستبدة والشمولية والمنغلقة سياسيا أعطى تمكن مواقع التواصل الاجتماعي المواطنين قدرة على الالتفاف والتحايل على السلطة، ففي الصين مثلا يتجنب مواطنو الإنترنت الرقابة الصارمة التي تفرضها الدولة، ويخترقون جدران السرية أحيانا، ليصلوا إلى معلومات حساسة عن المسؤولين وما يقف خلف القرارات المهمة، ويتلاعبون بالحروف والرموز، ويوظفون أشكالا من اللغة المضمرة والمستترة والاستعارات وألوان أخرى من البلاغة، وتسعفهم أحيانا بعض الصور والمضامين المستمدة من الموروث الشعبي، لاسيما النكات ذات الطابع السياسي والأغاني، في السخرية من الحزب الحاكم ورجاله ونقدهم وتعريتهم إذا لزم الأمر.⁽¹⁵⁾

لا يعني هذا أن الإعلام الجديد بوسعه أن يمارس فائض الحرية في كل مكان وزمان، فالسلطات المستبدة والشمولية، وحتى في بعض الدول الديمقراطية، تتدخل لتقليص هذا الفائض، وضغطه ليتوجه من مد إلى جزر، ثم يغيض ليصبح في بعض المجتمعات أقل من رغبة الناس المتداولين على مواقع التواصل الاجتماعي، وذلك بفعل قوانين تُفرض، وإجراءات قاسية للرقابة والتحكم يتم وضعها.

كما أن أداء الإعلام قد يضر بالديمقراطية حين يخفق في القيام بمهمة التنوير، لعجزه عن تقديم الحقيقة بموضوعية، نظرا لأنها تتطلب دقة وتمحيصا وقدرة على الفهم والتفسير لتجاوز اتصافها بالذاتية، بينما يجد الإعلامي نفسه في سباق مع الزمن، ليقدم إلى الجمهور خدمة الإبلاغ في أسرع وقت، وإلا انصرف عنه، ولذا لن يكون بمُكنته أن يحصل على صورة كاملة لأي حدث أو واقعة، وقد يجد نفسه مضطرا إلى إتمام الناقص منه بالتخمين والكذب والتحايل، عبر سلسلة من الومضات والدقائق واللمحات. ومثل هذا

(15) لمزيد من التفاصيل حول هذه المسألة، انظر:

Yongnian Zheng, Technological Empowerment: The Internet State and Society in China, Stanford University Press, 1st Edition, 2008, -



الوضع يضر الديمقراطية التي تستوجب سوقا حرة للأفكار، تتواجه فيها الآراء، وتتقارع، ويجد الجمهور الفرصة الكاملة للحكم على الصالح منها والطالح.

وما يعمق هذه النظرة أنه قد لا يوجد ما يسمى بـ "الرأي العام" وفق التصور الذي يقدمه لنا باعتباره شيئا متماسكا له قوام، وبوسعنا تصوره ودراسته على نحو دقيق. فالرأي العام، المختلف على تعريفه أصلا،⁽¹⁶⁾ هو نتاج تصارع المصالح السياسية والاقتصادية التي تعكسها وسائل الإعلام، وبذا تجعله مجرد مخرجات مشوهة ووهما كبيرا وحشدا من مستهلكي الثقافة، وليس شيئا مستقلا.

فالأنظمة السلطوية تمتلك تقنيات المراقبة والتحكم في الإنترنت، التي ترصد وتشكل بصورة متزايدة نشاط المستخدمين على الشبكة العنكبوتية، كما أنها تلجأ إلى الهجمات الإلكترونية، والتحكم في الأجهزة والشبكات لتعقب نشاط الإنترنت وإعاقته عند نقاط محددة موقعا، والتحكم في أسماء النطاقات لإزالة المواقع الشبكية غير المصرح بها، والمواقع مجهولة الهوية بصفة خاصة، والفصل والتقييد المحلي للإنترنت في أثناء لحظات الاحتجاج، والمراقبة المشددة لمستخدميه لاسيما عبر الأجهزة المحمولة، وكذلك الجهد الذي يبذل مسبقا لإدارة الحوارات في العالم الافتراضي، واستباق أي نشاط رقمي ترى الأنظمة السلطوية أنه يهددها، ثم تطهيره أو تدميره ومعاقبته.⁽¹⁷⁾

وتتعدد أدوات النظم السلطوية في توظيف الإنترنت بغية تقييد الحريات ومنها: سن قوانين وتشريعات للتحكم في الإنترنت، وشراء المعلومات، وإطلاق الميليشيات الإلكترونية "الذباب" التي تساند هذه النظم، واستعمال وسائل مأكرة في تطوير فنون مظلمة للاختراق الاجتماعي للشبكات الإلكترونية بواسطة المخربين من أجل إيجاد انشغاقات مصطنعة

(16) د. محمد عبد القادر حاتم، "الرأي العام وتأثره بالإعلام والدعاية"، (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

مكتبة الأسرة، 2006)، ص: 11.

(17) لاري دايموند ، مارك بلاتنر، مرجع سابق، ص: 27.



تصيب التماسك الاجتماعي، والاستفادة من الجهد التخريبي لصعاليك الإنترنت "الهكرز" للاستيلاء على حسابات بعض المعارضين، وإطلاق برمجيات خبيثة أو شريرة للتحكم في حواسيب مستخدمين غير منتبهين لأغراض الجريمة أو المراقبة أو التخريب.

شبكة الإنترنت تعتمد على خطوط الهاتف، لتبدو "أشبه بالنظام العصبي الحسي للجسم البشري، إذ يمكنك أن تحقنه بالسّم بحيث تدمر الجزء الأساسي من النظام، مثل الدماغ، وبالطريقة نفسها تماما، من المحتمل أن تطلق جهات عديمة الضمير ومجردة من المبادئ فيروسات للقيام بذلك من خلال الإنترنت"⁽¹⁸⁾.

ويتيح الإعلام الجديد تحقيق السيادة المعلوماتية التي تخدم وجهة نظر المستبدّين الذين بوسعهم استغلال ما لديهم من ملاءة وقدرة مالية وتقنية كبيرة، مقارنة بالمعارضة. ويتم استعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات استباقيا لتقفي أثر قادة الاحتجاجات واعتقالهم، بما يحول مواقع التواصل الاجتماعي إلى أفخاخ لاصطيادهم. وهناك كذلك نشر الشائعات كجزء من حرب نفسية، وغسيل أدمغة، تشنها هذه الأنظمة لتثويته المعارضين، وتخويف الشعب، وإفقاده الثقة في نفسه، وقد يصل الأمر إلى حد القرصنة بزعم الحفاظ على الأمن القومي. ويمكن أيضا للأنظمة المستبدّة أن تتعاون في تعزيز خبرة الرقابة والتحكم، من خلال ما يسمى "الاستبداد المترابط شبكيا".

والى جانب فتحه بابا أوسع للاستقطاب السياسي، والسجال العقائدي، الذي يمارس فيه السب والقذف بإفراط، فإن الإعلام الجديد، يخدع كثيرين بتحقيق الرضا الزائف عن المشاركة السياسية، حيث يكتفي أغلب المتداولين على مواقع التواصل الاجتماعي بالتعبير عن مواقفهم كتابة أو بالرسوم التعبيرية والمشاهد المستعارة من الدراما والكوميكس، معتقدين أن هذا يعوض عن النزول إلى الشارع إذا كان هناك ما يستحق فعلا الاحتجاج المباشر. فالأدوات الرقمية يمكنها صرف انتباه المواطنين عن العمل

(18) مرمدوك هسي، مرجع سابق، ص: 205.



السياسي عبر الترويج للترفيه الشخصي، وإضعاف المقاومة الديمقراطية من خلال منح الناس وهما يبدو آمنا، ولكنه سطحي، بأنهم يمارسون العمل السياسي، وربما لا يكونون في حاجة ماسة إلى حياة عضوية الأحزاب السياسية كي يحققوا هذا الهدف.

في الوقت نفسه، وفي اتجاه آخر مساند، بوسع السلطات المستبدة توظيف ميليشياتها الإلكترونية في صناعة وسوم (هاشتاج) قد تتحول إلى اتجاه دافق قوي (تريند) يبين، زورا وبهتانا، أن الأغلبية تساندها في قراراتها وإجراءاتها.

وما يزيد الطين بلة أن جهود الدول الديمقراطية القانونية لمراقبة الجريمة والقرصنة والحرب على الإنترنت قد تصنع بيئة مواتية للحكومات التسلطية الحريصة على تمرير تدابير شبيهة ترمي إلى التضيق على الحريات السياسية.⁽¹⁹⁾ وحتى في الأنظمة الديمقراطية الليبرالية، يوجد قلق من المواطنين حيال فقدانهم لخصوصيتهم باستمرار لصالح الأطراف الفاعلة الحكومية والتجارية على السواء. كما أن الحكومات المنتخبة تقوض قواعد الليبرالية للنظام الدستوري وحقوق الإنسان في انجراف متهور من أجل التفوق التكنولوجي في الحرب على الإرهاب، والحرب على الجريمة الإلكترونية،⁽²⁰⁾ فضلا عن نشر الأفكار غير الليبرالية، التي يطلقها المتشددون الدينيون وأتباع اليمين المتطرف في الدول الغربية وغيرها. ومثل هذا الوضع يجعل بوسعنا أن نقول أنه لا توجد علاقة مباشرة مقطوع بها بين وسائل الإعلام والديمقراطية في كل الظروف والأحوال.⁽²¹⁾

وصار الإعلام أحد ركائز القوة لخدمة المشروعات الإمبريالية، سواء من خلال دعمه الجارف للحروب العدوانية والتوسعية أو تبشيريه بالتصورات التي يريد المستعمرون

(19) لاري داييموند، مارك بلاتنر، مرجع سابق، ص: 23.

(20) المرجع السابق، ص: 38.

(21) د. عيسى عبد الباقي، "الصحافة الاستقصائية وصناعة القرار السياسي: دراسة في المدخل الرقابي لوسائل الإعلام"، (القاهرة، دار العلوم للنشر والتوزيع، 2014)، ص: 39.



الجدد أن يطلقوها في المجال العام، للتمهيد لحركة السلع والجنود على الأرض. (22) وفي مثل هذه الحالة يصبح الإعلام، جديدا كان أو قديما، مضرا بقيم الديمقراطية والليبرالية، حتى لو تشدق بها.

فضلا عن هذا، وبعيدا عن السياسة بقيمها وأفكارها وإجراءاتها، فإن ثورة الاتصالات بقدر ما أفادت فقد حملت ضررا في ركابها، يمتثل بالأساس في الحرب الإلكترونية بما فيها سباق التسلح في الفضاء السيبري، والجريمة الإلكترونية، التي تمتد إلى اختراق السجلات الطبية والمصرفية والضريبية والتجارية وغيرها، ونشر الإباحية، وتقوية النزعات الاستهلاكية، التي قد تؤدي بالناس إلى التشيؤ، والوقوع في شكل من العبودية الطوعية.

(22) أنتوني غدنز، "علم الاجتماع"، ترجمة: د. فايز الصباغ، (بيروت، المنظمة العربية للترجمة . مؤسسة ترجمان، 2005) الطبعة الأولى، ص: 530 . 532.

مجلة "شؤون عربية"

مجلة فصلية

تصدر عن الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

رئيس التحرير - السفير / سعيد رفعت



تغطي المجلة الموضوعات والقضايا العربية - غير القطرية - في كافة المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والإعلامية، وترحب بمشاركة المفكرين والمتقنين العرب فيها حسب القواعد التالية:

- تنشر المجلة أبحاثاً ودراسات من المدارس الفكرية المختلفة، ويكون معيار النشر هو الموضوعية والمستوى العلمي، والدقة، ودرجة التوثيق.
- يتراوح حجم الدراسة بين 4000 و 6000 كلمة. ويشترط أن تكون موثقة علمياً، وأن تشمل الإشارات المرجعية على: اسم المؤلف، عنوان الكتاب، دار النشر، مكان وسنة النشر، رقم الصفحة.
- كما ترحب المجلة بالمشاركة في أبوابها الأخرى (مقالات حول أهم القضايا العربية والأحداث السياسية الجارية في العالم العربي فيما لا يزيد عن 2500 كلمة - تقارير عن الندوات والمؤتمرات التي تعقد في الوطن العربي أو في دول أخرى حول موضوعات تخص الوطن العربي، عرض ونقد الكتب التي لم يمض على صدورها أكثر من عامين فيما لا يزيد عن 1500 كلمة).
- يشترط أن تكون الدراسات مطبوعة على الكمبيوتر، ومرفقة بتعريف بحياة الكاتب الفكرية، على أن تُرسل إلى المجلة على قرص خاص أو بالإنترنت.
- تحتفظ المجلة لنفسها بحق إجراء تغييرات في النص، بما يتلاءم مع أسلوبها في النشر.
- تلتزم المجلة بتقويم أية مساهمة تصل إليها، وإعلام الكاتب بذلك في خلال شهرين من تاريخ استلامها، والمساهمات التي تعتذر المجلة عن نشرها لا ترد إلى الكاتب.
- تصبح الدراسة التي أجزى نشرها ملكاً للمجلة ويؤول إليها حق النشر. ويحق للكاتب إعادة نشر الدراسة في كتاب فقط مع الإشارة إلى المصدر الأصلي للنشر.

المراسلات: رئيس تحرير مجلة "شؤون عربية" - جامعة الدول العربية - الأمانة العامة

ميدان التحرير - القاهرة - الرقم البريدي : 11642

هاتف : 23781911 - 23580375 / فاكس: 27514196

البريد الإلكتروني: shoun.arabiyya@las.int shounarabiyya@yahoo.com

رقم الترميز: م09/دوري 01(2019)/02/ع.177(0147)

ISSN 1687 - 2452